المسيحيون والقومية المصرية

فى العصر الحديث

تأليف

دكتور زاهر رياض

رئيس قسم الدراسات الافريقية
بمعهد الدراسات القبطية

دار الثقافة

ص.ب ١٣٠٤ القاهرة

صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ ـــ القاهرة .
 ١٠/٣٠٥ ط ١/٧٩ (أ) ٣ ـــ ٣
رقم الايداع : ٣٢٢٢ / ٧٩ ترقيم دولى : ٢ ـــ ٨٦ ـــ ٧٠٧١
طبع بمطبعة **دار الطباعة القومية بالفجالة**

فى هذا الـكتاب

تقـــديم

كتبت هـــذا الـــكتاب منذ أمد ليس بالقصير من اجل هدفين وضعتهما امام عينى . أولهما تدعيم الوحدة الوطنية وهو هدف كل مصرى لا فى الوقت الحـــاضر فحسب . بل طـــوال تاريخنـــا كله . منذ أن ضم اهلهـــا وطن واحد . فالعمل على تفتيت هذه الوحدة أو على الأقل الوقوف منها موقفـــا ســـلبيا جريمة معناها القضاء على مستقبل هذا الوطن ، قضاء لا رجعة فيهـــــا .

أما الهـــدف الثانى فهـــو الوقوف أمام سيئى النية والحـــــاقدين والدساسين الذين لا يفتـــــأون يسيئون الى هذا الوطن بترديد دعوى أن المسيحيين تواكلوا دائما عن اداء دورهم الوطنى . بل كانوا فى أوقات كثيرة دعائم الاستعمار الأجنبى . وجعـــــلوا يشوهون مواقف من برز منهم فى المناسبات الوطنية المختلفة من أمثال المعلم يعقوب حنا وبطرس باشا غالى . فالمسيحيون لم يتوانوا مطلقا عن ان يأخذوا مكانهم بين صفوف المجـــاهدين من اجل هذا الوطن ، بل وقفوا فى بعض الظروف وحدهم . فرغم أنهم اقلية عـــددية الا انهم لم يتملكهم يوما شعور الأقليات فى غير مصر من البـــــلاد . بل شعروا ويشعرون دائما انهم أصحاب هذا البلد . وان ليس لهم وطن آخر يلجأون اليه اذا عز عليهم المقام . أو يطالبون الحماية من بلد أجنبى ، فالوطن وطنهم وان ســـخط الحاقدون . فأكون قـــد أردت بهذا الهدف ان أجلو صفحة المسيحيين بعامة وصفحات هؤلاء الناس بخاصة .

واذ كنت قد ألمحت فى معرض الكلام — الى بعض سوء المعاملة الذى وقع بالمسيحيين فى بعض فترات التاريخ الاسلامى فانى أرمى بذلك الى هدفين أيضا أولهما أن اظهر أن هذا لم يكن فى يوم من الأيام سياسة عامة تتبعها الدولـــة ازاءهم بل كان سياسة بعض الولاة أو الخلفاء أو السلاطين من اجل دوافع شخصية أو استجابة لدعوات اجنبية لظروف خاصة اما الهدف الآخر فهو

أن يقرأها المسيحيون فيحمدون الله على ما يعيشون فى ظله الآن من أمن وطمأنينة وسلام وارف وحرية يحسدهم عليها كثيرون ، وأن يقرأها المسلمون فيعملون دائما على أن لا تتكرر لمواطنيهم فى المستقبل هـــذه المحنة . فالقوى أن تسامح فمن قوة ، وأن منع فمن تجبر غليس اوقع فى نفس المسيحى من أن يخلو الى نفسه والألم يعتصره ويردد مع الشاعر :

وظلم ذوى القـــــربى أشد غضاضة

على النفس من وقع الحسام المهنـــد

أول اكتوبر سنة ١٩٧٨

زاهـــر رياض

الباب الأول

الحكم العثمانى

أجمع المؤرخون جميعا على أن حكم الدولة العثمانية للولايات التى خضعت لها كان فاسدا بالغ الفساد . وكأن أنواع الفساد الموجودة فى جميع نظم الحكم العالمية ، قد اجتمعت فى بوتقة واحدة لتنصهر وتكون هذا الحكم العثمانى ، الذى اتسم بالجمود والعزلة وسوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فبينما كان العالم خارج الامبراطورية التركية ينمو وينشط ويتعلم كانت الشعوب الخاضعة للحكم التركى جامدة على الحالة التى وجدت عليها فى أوائل القرن السادس عشر ، بل أسوأ مما كانت . فقد كانت الدولة التركية دولة حربية قائمة على القوة وحدها ، لا يعنيها الا الفتح . أما غير ذلك فمحتقر غير جدير بالعناية . ولكى تضمن هذه الامبراطورية خضوع الولايات الاسلامية صورت لهم — منذ منتصف القرن الثامن عشر — العالم الخارجى مجموعة من الكفرة الذين لا يستظلون بنعمة الاسلام . ففى الاتصال بهم نوع من الرجس والكفر لا يرضى عنه المسلم الصالح فكفى بالاسلام نعمة تظللهم وكفى بخضوعهم لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين فخرا . ومن المؤلم أن هذه الشعوب الكبيرة من الشعوب الاسلامية التى تفوق الأتراك فى ثقافتهم وعلمهم وسمو ادراكهم قد صدقتهم وبقى هذا الطلسم يحول بين هذه الشعوب النشطة المجدة وبين نور العالم .

وحالت الدولة بين معظم رعاياها وبين الخارج ، فمنعتهم من الخروج الا باذن من السلطان ، ودون هذا الاذن خرط القتاد وكان من أثر هذه السياسة على اقليم مصر أن تحولت القومية الوطنية فيه الى قومية اسلامية وبات الناس لا يفكرون فى بلدهم قدر ما يفكرون فى الرابطة الاسلامية ويجدون فى هذه الأخيرة بديلا عن قوميتهم . فكان الحكم التركى بذلك نكبة على قوميتنا . ولكن القومية المصرية الصحيحة قوية ، قديمة ، راسخة ، عميقة الجذور . ولذا لم تلبث الحوادث أن أظهرتها .

وفى خلال هذا العمر الطويل الذى عاشته الدولة التركية ظلت العلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمة على سوء الظن وعدم الثقة سواء من السلطان بمن حوله من افراد عائلته أو بينه وبين الحاشية أو بين هؤلاء والجيش والموظفين ، وامتدت هذه الصفة الى عدم الثقة بالحكام المعينين لحكم الولايات . ولذا كان هؤلاء الحكام يعينون لعام واحد ، وقد تمتد مدتهم الى عامين أو ثلاث أو اكثر . ولكن نادرا ما كان يحدث ذلك . وحتى السلطة التى يتمتع بها الوالى كثيرا ما كان يقاسمه فيها غيره من رؤساء الفرق . الذين كانت سلطتهم فى ذلك مطلقة ولذا كانت النتيجة الحتمية لهذا الحال انهيار الدولة انهيارا سريعا . وان ظلت محتفظة بهيكلها الخارجى لأكثر من أربعة قرون .

ومصر التى كانت درة العالم فى القرن السادس عشر ، بالرغم من سوء حكم المماليك لها ، قضى عليها هذا الحكم التركى الفاسد . فقد أسرع السلطان سليم فحمل مهرة الصناع الى استنبول . وكانت بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين فكانت تلك أولى النكبات التى شهدتها البلاد من هذا القادم الجديد ، علاوة على ضياع استقلالها . وشهدت البلاد بعد ذلك قرونا من الانهيار والفساد . فقد اهتدى البرتغاليون قبل الاحتلال التركى بسنين قليلة الى طريق راس الرجاء الصالح من أجل الوصول الى الهند . ثم ملكوا الهند فخسرت مصر ما كانت تحصل عليه من مكوس التجارة الهندية الوفيرة . وبدأ الفقر يخيم عليها ، وكان الفلاح أول من شعر بهذه النكبة ، حين انصب الحكام على هذا المسكين يذيقونه مر العذاب ليستخلصوا منه ما كانوا عليه من دخل التجارة .

وكان النظام الذى فرضه الاتراك لحكم الولايات لا يقصد منه الا مصلحة :(الأم) فقد كان تحديده مدة الولاية باعثا لأن يجعل هذا المنصب مثارا لكثير من « المزادات » فى العاصمة (استنبول) واتجه حكام الولايات الصغيرة الى نيل هذه الولاية الغنية بالرشى التى اتخذت شكل الوعود ، أو المال المؤجل . أو المدفوع ، أو النساء ، أو صلة القرابة ، أو المصاهرة . حتى اذا فاز الغانم بها لم يكن هدفه موجها الا الى الاسراع فى جمع الثروة

بطرق اقل ما يقال عنهـا انهـا بعيدة عن النزاهة . فكان من جراء ذلك أن هرب الفلاحون تاركين الأرض دون زراعة . فلم يـكن يمر جيل واحد الا وتحدث مجاعة او مجاعتان أو ثلاث كما حدث فى السنوات ١٦٠٣ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٢ .

ويحدثنا التاريخ أن هذه المجاعة الأخيرة افنت مائتين وثلاثين قرية . واعقبها قحط وغلاء . ودأب الجند العثمـانى خلاله على النهب والسلب ، حتى عجز الولاة عن قمعهم وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها عددا من التجار أو المزارعين ليقتسموا معهم الأرباح نظير حمـايتهم من غيرهم ، ومن أداء حقوق الحكومة .

ويحفظ لنا « السنكسار » من أمثال هذه الحوادث كثيرا . فهو يذكر من حوادث سنة ١٦٢٤ أنه حدث وباء عظيم فى أرض الصعيد ولبث قائما من طوبة الى برمودة حتى فنيت الناس وخربت البيوت .

وفى سنة ١٦٢٦ ظهر وباء عظيم فى كل الأرض . كما يذكر عند ذكر حياة الأنبا بطرس السادس أنه فى سنة نياحة هذا البابا (وقع وباء الطاعون مع قحط شديد فتنيح قسس كثـيرون ، وأساقفة ووقع الموت على النـاس من الاسكندرية الى أسوان واضطر الناس الى ترك الزرع حتى صاروا يدفنون الناس فى الحصر من قلة الأكفان ، وفى تلك السنة تلفت زراعة القمح فلم يسد حاجة البلاد ووقع القحط والغلاء) .

كما يذكر عن حياة البابا مرقس السابع (١٧٤٥ — ١٧٦٩) أنه بعـد سنتين من رئاسته « حدثت فتنة عظيمة بين العسكر فى مصر قتل فيهـا كثـيرون من الأمراء وهرب البعض منهم الى الصـعيد ثم هاجروا الى الحجاز » .

وكانت الحالة تزداد سوءا حين يسود نفوذ بعض قبائل العرب . ففى بعض الأوقات سيطرت الهوارة على الصـعيد واغاروا على القرى ونهبوها (١) وأكثر من ذلك حين يتحد الأمراء مع العرب على هذا النهب .

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٤٩ .

فكثيرا ما جمعوا المراكب وحجزوها ، وعطلوا أسباب التجارة ،والمسافرين، وجمعوا الأموال من المصادرات والملتزمين والفلاحين (١) .

وكان الاستعداد للحج وقيام المحمل ، يبدأ فى العادة فى شهر جمادى الأول ، حين يقلد أمير الحج . فاذا ما أهل رجب ، فرضت ضريبة خاصة على التجار (٢) وصودرت البهائم ، واخصها الخيول والبغال (٢) . ولكن الناس سرعان ما ينسون ما حل بهم اذا ما رأوا جمل المحمل يتبختر بأحماله الثمينة فى شوارع القاهرة فيسرعون الى مشاهدته والتبرك به . ولاضطراب حبل الأمن فى الطريق قلما كان المحمل يصل الى الحجاز سالما . اذ تتلقفه قبائل الأعراب فتنهب ما يحمله الحجاج من مال بل يصل الامر الى قتلهم .

واذا نجح فى الوصول الى غرضه فقلما كانت هذه الفرصة تفوت الأعراب عند عودته . فكثيرا ما وصف الجبرتى فى صفحاته المختلفة دخول الحجاج العائدين وهم فى اسوأ حال ، من جراء هجوم الأعراب عليهم وسلبهم ما يحملون .

ولم يكن أمام الفلاحين الهاربين سوى أن يسعوا الى الرغيف من أهون طرقه وهى اللصوصية وقطع الطريق فاختل الأمن وفسد الحال . فلا غرابة اذا وجدنا الأرض الزراعية قد نقصت مساحتها واغارت الصحراء عليها برمالها وطمرت الترع والمصارف .

وكثيرا ما ضاق السلطان بنفوذ المماليك فيمنع السفن الاجنبية من الملاحة فى البحر الأحمر والوصول الى السويس لئلا يكون ما تدفعه من مكوس سببا فى زيادة قوة المماليك (٤) وان كان السبب الظاهرى الذى ذكره السلطان لذلك هو حماية الأراضى المقدسة وقد يكشف السلطان عن قناعه فيرسل لهم من يقاتلهم كما فعل حين أرسل حسن باشا القبطان لمقاتلة ابراهيم بك ومراد بك فوصل على رأس اسطول هزم أسطول المماليك فى فوه

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٧٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ .
(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٥٥ .
(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٩ .

وتقدم الى القاهرة ، ففر المماليك الى الصعيد الا ان جنوده سرعان ما عاثوا فى القاهرة فسادا كمـــا استخرج هو اموال المماليك واستولى عليها واخرج جواريهم وامهات اولادهم بل وأولادهم وعرضهم للبيع . ولم يكد ينتهى من ذلك حتى التفت الى التنكيل بالاقباط فأمرهم أن يقيدوا أسمائهم وأن يعفوا من كان عندهم من المسلمين من خدمتهم كمـــا صادر أملاكهم وفرض عليهم الجزية (١) .

وكان اثر اختـــلال الأمن على التجـــارة الداخلية توقفا تاما . وعملت كل قرية على أن تكفى نفسها وتركزت التجـــارة الكبيرة فى القـــاهرة والاسكندرية وقوص . وكان التجـــار يتخذون من مداخل بيوتهم معـــارض لبضاعتهم حتى اذا شعروا أن الاضـــطراب وشيك الوقوع ، أو أن المماليك بسبيل النزاع بين فرقهم المختفلـــة اغلقوا عليهم الأبواب وتحصـــنوا ونساءهم وابنائهم داخل بيوتهم ليوم أو أكثر حتى تنتهى الغمة . ولـــكنهم فى اغلب الأحيان كانوا اذا ما عادوا اليهـــا وجدوا اغلبهم منهوبا ، فيجمعون ما تبقى منهـــا وهم يصبون لعناتهم على كل من المماليك والأتراك ، ولجأوا بالشكوى الى سر التجار فلجأ هذا الى شيخ البلد فيعده هذا بالحماية وعدم العـــودة الى مثل ذلك ، ولكن بعـــد ان يدفع واخوانه بعض المـــال ثمنا لهذه الحماية . ولن احاول هنـــا ان اطيل فى وصف أحوال المصريين ، بل سوف أكتفى بأن انقل لك صورة منه كما كتبها الجبرتى مؤرخ هذا العصر . فأنت اذا قلبت صحائف هذا الكتاب الجامع فلن تجـــد الا عبارات تكاد تتكرر فى كل صفحة من صفحاته اليك بعضها .

« وقبضوا على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسببين وحبسوهم وصادروهم فى أموالهم وسلبوا ما بأيديهم فجمعوا من المال ما جاوز الحـــد ولا يدخل تحت العد (٢) .

واشتد الكرب والضنك على النـــاس واهل البلاد . وانقطعت الطرق القبلية والبحرية،برا وبحرا . وكثر تعدى العسكر وغلت الأسعار،وشح وجود

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

الغلال وزاد أسعارها . وكثر عبث المفسدين والفحش جماعة لبكوات فى السلب والنهب ولم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر (١) » .

« وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس » (٢) ومن حوادث هذا الشهر زيادة تعدى العسكر على النساء وأخذ ثياب من ينفردون به من النـاس ، وهاج الفلاحون من من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسفهم فى البلاد » (٣) .

« سارت زفة عروس بالنحاسين فهجم عليها الانكشارية وخطفوا ما على العروس وبعض النساء من المصاغ والزينات » (٤) .

أما الاقباط فلم يكن عددهم يزيد على أكبر تقدير عن مائة وخمسين الفا مبعثرين فى طول البـلاد وان زادت فى الصعيد عنها فى الوجه البحـرى ولا تصل نسبتهم مطلقا الى أن يكونوا أغلبية فى قرية من القرى وان خلت منهم بلاد كثيرة .

وقبل ان نستطرد الى وصف أحوالهم فلابد ان نذكر شيئا عن المسيحيين عامة تحت الحكم التركى . فقد كانت الدولة حتى بداية القرن السادس عشر تحكم من أوربا شبه جزيرة البلقان حتى نهر الدانوب ومن آسيا شبه جزيرة الأناضول ولا تحكم من أفريقيا شيئا . فكانت الحكومة اسلامية وان كان شعبها مسيحيا وكلهم من الأرثوذكس الذين يعترفون بالرئاسة الدينية لبطريرك استنبول ولذا وجدت الحكومة نفسها أمام شعب لا يفهم شيئا فى طقوسه ولا فى طريق حياته فاضطروا لأن يتركوا لهم حريتهم الدينية يديرها لهم البطريرك واكتفت معهم بمجرد دفع الضرائب والولاء التام للدولة . وكان جزء من هذه الضرائب يدفع على شكل أطفـال صغار لا يتجاوز الاثنى عشر سنة تجمعهم الدولة سنويا ، وتفصلهم عن أهليهم فصلا تاما على أن يربوا فى قصر السلطان تربية خاصة تؤهلهم لأن يشغلوا وظائف الدولة ويكونوا جيشها فخرج هـذا النوع من الافراد وهم لا يعرفون لهم أهـلا الا الولاء

---

(١) الجبرتى حـ ٢ ص ٨٤ .
(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٠٣
(٣) نفس المصدر ص ٢١٢ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

للسلطان ، والولاء له يعنى حياتهم ومستقبلهم مجرد الشك فى هذا الولاء يقضى عليهم القضاء الأخير . وهـذا النوع من الأفراد هو الذى عرف باسم الانكشارية . وكان هذا العسكر ممتازا عن الأهلين فى كل شىء فرفضوا أن ينتظم غيرهم فى سلكهم حتى لا يحظى بما يتمتعون به . وقد حاول أحد ولاة مصر وهو ادريس باشا (١٥٨٧ — ١٥٩١) أن يدخل المصريين فى الجيش فاشتعل لهيب الفتنة ولم يقبلوا أن يتشبه بهم أحد فى لباسهم وهجموا على ادريس باشا وأهانوه فاضطر الى الاذعان لهم . وغنى عن الذكر ان هـذا الاجراء فوت على الولايات تكوين القوة الوطنية التى تستند عليها اذا ما أرادت لنفسها الاستقلال . اذ لابد أن تستند مثل هذه الحركات على قوة وطنيـة تعضدها والا كتب عليها الفشل مقدما .

ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذت الدولة تتطلع نحو الشرق . فغزت العراق ، ثم فارس فالشام فمصر والجزيرة العربية ولم ينقض الربع الأول من القرن حتىكانت هذه البلاد خاضعة للامبراطورية التركيةوبذلكانقلب الميزان وأصبحت الدولة الاسلامية شعبا وحكومة . وكانت مصر ولا تزال تضم اقلية مسيحية كونت جزرا صغيرة وسط محيط اسلامي . وخضعت هذه الاقلية لبطـريركية خاصة هى بطريركية الاسـكندرية التى كانت منذ نشأة المسيحية موضع الحسد والكراهية من بطريركيتى استنبول وروما كمـا ان هذه البطريركية الصغيرة كانت فى حالة انحطاط وتفكك فمنذ أكثر من عشر قرون سابقة ظلت خلالها محرومة من كل ثقافة دينية ، كما كانت محرومة من الموارد الخارجية التى يمكن أن تستخدمها فى زيادة ثقافتها ولذا لم تجـد هذه الأقلية المسيحية التى تعيش فى مصر من يعنى بها بشكل جدى . فبينما كان مسيحيو أوربا يتمتعون بحريتهم كاملة سـواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية كما كان مسيحيو الشرق من الروم الأرثوذكس يجدون مثل هذه الحماية بفضل رئاسة بطريرك استنبول لهم . كان مسـيحيو مصر محرومين من هذا كله.فلم تعن الدولة بايجاد تشريعات خاصة تحدد مركزهم، ولذا خضعوا لأنواع من الاحكام التقليدية التى كانت نجرى عليهم قبل الاحتلال التركى وهذه العبارة المنقولة عن الجبرتى تصور بعض حالهم .

---

(١) تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ٨١ .

« قصد بعض نصارى القبط حج بيت المقدس وكان كبيرهم اذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هـــدية والف دينار فكتب له فتـــوى وجوابا ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من ديانتهم وزيارتهم فلمـــا تم لهم ذلك شرعوا فى قضـــاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة واحمال وتختراوانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا عند تبة العرب وأحضروا العربان ليسـيروا فى خفارتهم واعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وانعـــامات وشاع أمر هذه القضية فى البلد . فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى الى بيت الشيخ البكرى كعادته . وكان على افنـــدى أخو سيد بكرى متمرضا فدخل عليـــه يعوده فقال له « أى شىء هذا الحال ياشيخ الاســـلام . كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال . الكونهم ارشوك وهادوك » . فقال لم يكن ذلك . فقال « بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى هذا تصير اهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من ذلك . ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين . وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة . فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظا وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم . وخرج كذلك معهم طائفة من مجـــــاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دامرداش . وانتكس النصارى فى هذه الحـــــادثة نكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء (١) »

وقد حاول الأجانب أكثر من مرة أن يستغلوا سوء حال الاقباط تحت الحكم التركى ليتدخلوا فى الحكم والحكومة الوطنية بدعوى حمايتهم ، فرفض الاقباط هذا التدخل وهذه الحماية رافضين أن يبيعوا بلدهم مقـــابل الحرية الدينية فقد سعى بابا روما خـــلال بطريركية يؤنس الثامن عشر (١٧٦٩ — ١٧٩٦) لاجتذابكنيسة الاسكندرية لتعترف برئاسته فأرسل اليهرسولايحمل رسالة يدعوه فيها الى الاتحاد مقابل الحماية فسلم البابا هذه الرسالة الى

---

(١) الكافى جـ ٤ ص ١٤٠ نقلا عن الجبرتى .

الانبا يوساب اسقف جرجا وكلفه بدراستها والرد عليها . فقام هذا العلامة بالرد عليها وتفنيد دعواها لأنه كان من المتضلعين فى العلوم اللاهوتية . وقد حدث مثل ذلك مما فعله القائد التركى حسن باشا قبل ذلك من مصادر خزينة البطريركية واخذ اموالها الأمر الذى اضطر البطريرك الى أن يتوارى ويختفى من جور هذا الحاكم (١) كما هجم على بيوت النصارى ونقض ناموس الانسانية فنهب وجنوده اثاث المنازل وقام العسكر بالقبض على زوجة المعلم ابراهيم الجوهرى وارغموها على اخراج اموال زوجها وتحفه الثمينة بعد أن هرب مع ابراهيم بك ومراد بك فى ثورتهما ولم يتورع عن فرض الضرائب الباهظة على النصارى بصفة تشبه النهب والسلب .

وكان الشيء الوحيد الذى يزاولونه فى حرية واختيار هو حق انتخاب البطريرك فاذا ما مات احدهم اجتمع الآباء والأساقفة والكهنة وبعض البارزين من افراد الشعب لاختيار الراعى فينتخبون عددا من الكهنة والرهبان فيقيمون القداسات لثلاثة أيام تنتهى بعمل قرعة هيكلية طالبين من الله أن يرشدهم الى من يصلح لرعاية شعبه (٢) وعلى هذا النحو انتخبت اربعة عشر بطريركيا خلال العهد التركى وهم :

١ — غبريال السابع (٩٥) الذى انتخب سنة ١٥٢٥ ومكث ثلاث واربعين سنة مات اثناء هربه من الوالى التركى الذى طالبه بمبلغ من المال .

٢ — يؤنس الرابع عشر (٩٦) الذى انتخب سنة ١٥٧١ ومكث خمس عشرة سنة .

٣ — غبريال الثامن (٩٧) الذى انتخب سنة ١٥٨٧ ومكث ست عشر سنة .

٤ — مرقس الخامس (٩٨) الذى انتخب سنة ١٦٠٣ ومكث ست عشرة سنة .

---

(١) السنكسار من تذكرات ٢ بؤونة .
(٢) السنكسار ١٠ بؤونة و ٢٦ برمهات و ١٣ برمودة ٢ بؤونة .

٥ ــ يؤنس الخامس عشر (٩٩) الذى انتخب سنة ١٦١٩ ومكث عشرة سنوات .

٦ ــ متاوس الثالث (١٠٠) الذى انتخب سنة ١٦٣٣ ومكث أربع عشرة سنة .

٧ ــ مرقس السادس (١٠١) الذى انتخب سنة ١٦٤٦ ومكث عشرة سنوات .

٨ ــ متاوس الرابع (١٠٢) الذى انتخب سنة ١٦٦٠ ومكث خمس عشرة سنة .

٩ ــ يؤنس السادس عشر (١٠٣) الذى انتخب سنة ١٦٧٦ ومكث اثنتى وأربعين سنة .

١٠ ــ بطرس السادس (١٠٤) الذى انتخب سنة ١٧١٨ ومكث ثمان سنين .

١١ ــ يؤنس السابع عشر (١٠٥) الذى انتخب سنة ١٧٢٧ ومكث ثمان عشرة سنة .

١٢ ــ مرقس السابع (١٠٦) الذى انتخب سنه ١٧٤٥ ومكث أربعا وعشرين سنة .

١٣ ــ يؤنس الثامن عشر (١٠٧)

١٤ ــ وأخيرا مرقس الثامن (١٠٨) الذى انتخب عند بداية حكم محمد على .

ومن تكرار القول أن نذكر ان البطاركة كانوا ينتخبون دائما من بين الرهبان الذين يعيشون فى الأديرة وقد نذروا أنفسهم للبتولية والمعيشة الانفرادية داخل الاديرة وكان للأقباط منها سبعة أديرة أربعة منها فى وادى النطرون وهى دير السيدة العذراء المعروف بالسريان ودير انبا بشوى بالصحراء الشرقية مقابل مدينة بوش بمديرية بنى سويف ويقطع الطريق منها الى الدير فى ثلاثة أيام بالقوافل ثم دير أنبا بولا الذى يقع بين جبال البحر الأحمر ثم دير السيدة العذراء الشهير بالمحرق الذى يقع فى سفح جبل قسقام تجاه بلدة القوصية وعلى خمسة عشر كيلو مترا منها وكان بكل دير

مكتبة تحوى المخطوطات الدينية التى توافر الرهبان على نسخها خلال اقامتهم بالدير الا أن تعرضت هذه الأديرة خلال العصور المتعاقبة لهجوم الغزاة وقبائل البربر والعرب عليها اضاع كثيراً من هذا التراث الثقافى الثمين .

ولم يكن الاقباط رغم قلتهم وضآلة أمرهم فى نظر الحكومة متحدين ولا متعاونين فكثيرا ما اختلفوا مع بعضهم وتراشق زعماؤهم بالتهم حتى كانوا فى كثير من الأحوال سببا فى تأخير انتخاب البطريرك مددا امتدت فى بعض الأحيان الى أربع سنين كما حدث عقب وفاة مرقس السادس البطريرك الحادى بعد المائة وقبل انتخاب متاوس الرابع ولم يكن ينتخب البطريرك فى العادة الا بعد سنة أو سنتين كما حدث عند انتخاب يؤنس الرابع عشر ومتاوس الثالث وغبريال الثامن ومرقس السادس ويؤنس السادس عشر ويؤنس السابع عشر يقضيها الاقباط فى نبش الخلافات القديمة واختراع خلافات جديدة تزيد من احتقار الحكومة لهم واستهتارا بأمرهم بل وصل الحال أيام غبريال الثامن (١٥٨٧ — ١٦٠٣)(١) أن اقيم اربعة من البطاركة فى وقت واحد ينصر كل بطريرك فريق من الأقباط (٢) بل بلغ الحال ببعض الاقباط بأن يحاولوا منع البطريرك بطرس السادس أن يحترم الدين بمنع الطلاق فاعترضه بعض المسيحيين لأغراضهم الشخصية فسار الى السنجق ابن ايواز وباحث علماء المسلمين فكتبوا له فتاوى « بأنه المقرر على أصول مذهبه دون غيره وليس لأحد أن يعارضه فى أحكامه » .

وكان من التقاليد التى ورثها العهد التركى عن المماليك وحرص على الابقاء عليها وساعد على ذلك ما كان عليه الأقباط من جهل واختلاف وتفكك عدم بناء كنائس جديدة أو تجديد أخرى قديمة حتى اذا جرأوا على ذلك قامت قيامة الحاكم عليهم ومنعوا من اتمام ما بدأوه بل وسلط عليهم العامة يخربون ما أتموه . فقد روى السنكسار فى حوادث ١٠ بؤونة أنه فى شهر أبيب سنة ١٤١٧ ش .

---

(١) الدليل العام للأقباط ص ٦٢ — ٧٠ .
(٢) السنكسار ٩ بشنس .

وقع اضـــــطهاد على الشعب الأرثوذكسى بمصر المحروسة فى زمن الوالى محمد باشا بسبب وشاية وصلته بأن طائفة النصارى القبط احدثوا بنيانا جديدا فى كنائسهم فعين على الكنائس اغا من قبله وجاء رجال المعمار وقضاة الشرع للقيـــام بالكشف على الكنائس فنزلوا وكشفوا واثبتوا أن فى الكنائس بناء جديدا . ولكن عناية الله لم تتخل عن شعبه بصلوات أبيهم الطاهر فحنن على امته القبطية قلوب جماعة من أمراء مصر واكابر الدولة وتشفعوا عند الوالى فقرر عليهم غرامة فاجتمع السيد البابا بالسادة المخاديم المعلم يوحنا ابو مصرى المعلم جرجس ابو منصور والمعلم ابراهيم ابو عوض واتفق الرأى بينهم على أن يطوف البابا المكرم حارات النصارى ويزور البيوت ويحصل منهم على ما يمكن تحصيله الى ان يتم جمع الغرامة المطلوبة .

كما جاء فى سيرة الانباء بطرس السادس (١٧١٨ — ١٧٢٦) أنه « عمر بيعـــا كثيرة فناله بسبب هذا التجديد ان غرمه الوزير أربعين كيسا دفعهـــا من ماله المعلم لطف الله يوسف ناظر دير القديس انطونيوس » .

وبسبب هذه الغرامات التى لم يكن البطاركة يجدون وسيلة لدفعها أو تسديدها ، لم يحجم بعضهم عن ارتكاب الآثام كبيع المناصب الدينية أو فرض الضرائب السنوية على بعض الاقباط يجمعونها فى بعض المواسم مما اثار استياء كثيرين فقد روى أن مرقس السادس (١٦٤٦ — ١٦٥٦) طلع الى الصعيد واقام أربع سنوات جمع فى أثنائها اموالا طائلة وكان كثير الحمق فضج من اعماله الناس وسائر الأساقفة والقسوس والأراخنـــة واستمرت العداوة قائمة بينه وبين المعلم بشارة حتى عاد الى مصر فتواقع عليـــــه واصطلح معه (١) .

ولذا خضع الأقباط طوال العهد التركى لأنواع من المظالم ورثها الأتراك عن المماليك وجروا على احيائها فى فرص مختلفة (٢) ومن العبث أن نذكرها أو بعضا منها فهى كلها معروفة والباعث اليهـــا سواء كان من الأتراك أو المماليك انهم غرباء عن البلاد لا يعنيهم شىء قدر الاحتفاظ بسلطتهم لا تعنيهم

---

(١) السنكسار ١٥ برمودة .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٣ .

مصلحة البلاد فى قليل أو كثير .

ولم تكن هذه المظالم فى الحقيقة سوى نكاة لنهب أموالهم فغالبا ما كانت هذه المظالم تتوقف يوم صدور الاعلان بها أو فى اليوم التالى اذا ما اتفق على دفع مبلغ من المال يصل فى العادة الى الف ريال (١) ولكنها كانت أيضا فرصة ثمينة لتعدى الغوغاء على بيوتهم ونهبها (٢) .

وهناك حقيقة لابد أن نعترف بها وهى أن جانبا كبيرا من مسئولية هذه الحالة السيئة يقع على عاتق الرئاسة الدينية التى كانت تعيش فى بحر مغلق من التقاليد دون أن تحاول التطلع الى الخارج أو الاتصال بغيرها من الرئاسات الدينية كما انها لم تحاول أن تقوم بالدور الذى قامت به الرئاسات الاخرى التى كانت خاضعة للدولة التركية من محاولة تثقيف الشعب أو حتى محاولة تثقيف رجالها مما يؤهلها لأن تحتل مكانة الزعامة من الشعب وفى نفس الوقت يجب أن نعترف انه لم يكن هناك من القوانين ما يمنعها من أن تفعل شيئا من ذلك .

ويمكننا بعد هذا الاجمال أن نعطى بعض التفصيلات عن أقباط القاهرة فقد عاشوا فى ثلاث مناطق احداها فى الطرف الشمالى من المدينة وهى المنطقة التى تمتد حاليا من الخازندار حتى باب الحديد وكانت تحدها بركة الأزبكية من الجنوب وتطل من الشمال على منطقة زراعية واسعة هى منطقة الفجالة الحالية كما تحدها من الغرب ترعة تخرج من النيل شمالى المتحف المصرى الحالى وتسمى الترعة البولاقية لأنها كانت تفصلها عن بولاق وكانت تصلها بالمنطقة قنطرة تسمى بقنطرة الليمون وما زال هذا الحى يحمل اسمه حتى الآن وهو حارة النصارى ويحترف أهل هذا الحى بتجارة العلف والشموع والبخور والعطارة . وقامت على أطرافها قلفة بناها المعلم يعقوب حنا عند حارة الجبرونى وكان الحراس يحرسونها ليل نهار .

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٥ .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٨ .

وتقوم المنطقة الثانية على ضفة النيل اليمنى فى مواجهة النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة وهى منطقة مصر القديمة حيث يوجد دير مارقوريوس الشهير بأبى سيفين وكنيسته التى تعتبر من أجمل الكنائس لاحتوائهـا على جملة احجبة من خشب الابنوس المطعم بالعاج ومجموعة من ايقونات قديمة . كما يوجد بعض الكنائس القديمة مثل أنبا شنودة واستفانوس الشهيرة بالمعلقة لبنائها بأعلى أحد أبراج الحصن الرومانى المعروف بقصر الشمع وكانت مقرا للبطريركية حتى القرن الحادى عشر حين انتقلت منهـا الى أبى سيفين الى حارة زويلة فحارة الروم (١) وهناك أيضا كنيسة أبى سرجة التى تقع بأسفلها كنيسة أخرى صغيرة يقال أنها انشئت مكان المنزل الذى اقامت به السيدة العذراء والمسيح وخطيبها يوسف اثنـاء وجـودهم بمصر هربا من وجـه هيرودس ثم كنيسة السيدة بربارة وكنيسة مار جرجس .

أما المنطقة الثـالثة فتنحصر بين خان الخليلى والخليج المصرى وهى الصاغة الحالية واحترف أهلها صياغة الذهب والفضة وتسليف النقود مقابل الرهون والمنسوجات وكان فلاحو القرى يقصدونها حال نزولهم للقـاهرة لتجهيز بناتهم وسكن قليل منهم الغـورية وبولاق والحمزاوى واشتغلوا بالتجارة (٢) .

وكانت دكاكينهم التى تراكم فيها تجارتهم تطل على الحـارات الضيقة وهى فى نفس الوقت مداخل بيوتهم وهى تقود الى حوش كبير غالبا ما يحمل اسم صاحبه مثل حوش الشماع تطل عليه المنـازل التى على هيئة مربع يحيط بهذا الحوش .

وكان سـكان القاهرة من المسيحيين يعيشون فى رفاهية نسبية عن سكان القرى كما كانوا يهتمون بتعلـيم أولادهم الحساب والقراءة العربية وبعض التراتيل الدينية بل اهتم بعضهم بدراسة اللغة القبطية واتقانها وغالبا ما كان يقوم بمهمة التعليم بعض القسس يعاونهم بعض المدنيين الفقـراء

---

(١) الكافى جـ ٤ ص ١٠٦ .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٨ .

وكان يطلق عليهم اسم الخوجة بل تعلم بعضهم اللغات الأجنبية بفضل اتصالهم ببعض التجار الأجانب الذين كانوا يعيشون فى القاهرة .

وقد سكن كثير من الاقباط الصعيد لا سيما مدن أخميم وقوص ونقادة واسيوط وقد كان ثراء تجار اسيوط يصور لنا مثلا حسنا لمقدرة الاقباط التجارية . فقد اشتغل كثير منهم بالتجارة مع السودان فكانوا يستقبلون ما يرد منه من العاج وريش النعام والرقيق ويقومون بتوزيعه فى جميع انحاء البلاد فعند اسيوط ينتهى درب الأربعين الذى يبدأ من الفاشر ويقطع الصحراء الغربية شمالا حتى ينتهى الى اسيوط فلا غرابة اذا اتخذ سلطان دارفور المعلم غبريال شنودة أحد تجار أسيوط وكيلا له فى مصر ليستقبل قوافله الواردة وكانت تبلغ فى بعض الأحيان خمسة عشر الف جملا كما يجهز القوافل الصادرة ويحصل له أثمان ما يبيعه حيث كان السلطان هناك يحتكر معظم تجارة سلطنته . وكانت علاقة هذا السلطان بالمماليك متوترة دائما لا يثق بهم ولا يأمن اليهم فاذا بلغه نبأ وصول نابليون واتجاهه الى القضاء على المماليك أرسل اليه يهنئه قائلا « لى الشرف أن أبلغكم ان أخبار انتصاراتكم قد وصلت الينا وعلمنا بالسرور نبأ انتصاركم على المماليك واسلامكم ومداومتكم على مراعاة جانب الاجانب وقد اعطينا هذا المرسوم الى قائد القافلة يوسف الجلابى ليؤكد لكم صداقتنا التى سوف تكون دائمة باذن الله . ونحن نؤكدها لكم بكل حرارة لأجل أن تحافظوا عليها ونقدم اليكم ألف تحية وتحية (١) .

ويجب أن نسجل لاقباط هذا العصر كثيرا من المفاخر التى استحقوا لأجلها كثيرا من المديح والثناء أولها انهم تلهلا ما كانوا يخضعون لما يصدر اليهم من الأوامر والنواهى التى تتعلق بمعاملاتهم وازيائهم وركوبهم وغير ذلك فكثيرا ما ابتنوا البيوت العالية وسكنوها رغم أوامر الحكومة بأن لا تعلو منازلهم فوق منازل جيرانهم وكثيرا ما ركبوا الخيول وساروا بها فى شوارع القاهرة واتخذوا لهم الاتباع والأعوان . وتمتع بعضهم بكثير من أسباب الجاه والثروة فتقرب اليهم الناس طلبا لحمايتهم .

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٦٧ .

وشيء آخر يجب أن يفتخر به اقبـــاط مصر انهم فى وسط هذا الخضم من القومية الاسلامية لم يكن هناك من دليل واحد على بقاء القومية المصرية الحية سوى هؤلاء الأقبـــــاط الذين احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم بل حرصوا على أن يعطوا أولادهم هــذه الأسماء المميزة ليميزوا انفسهم كمصريين فى وسط هذا البحر الذى لم يكن يعرف فيه المصرى من غيره من رعاية الدولة . فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية حتى اذا رأوا بوادر أمل فى احياء هده القومية لم يكونوا يترددون فى تشجيعها واذا كان التاريخ قــد سجل لنا ثورة على بك الكبير على الحكم التركى ومحاولته الاستقلال بمصر عن السلطان وسعيه فى استعادة القومية المصرية واحيائها فى رأى بعض المؤرخين (١) أو محاولته فقط التمع بمركز مرموق فى الدولة فى رأى البعض الآخر (٢) فان الاقباط كانوا من ورائه يشجعونه وينظمون له حركته ويعينونه على القيام بهـــا فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك الكبير والقــــوة الدافعة من ورائه (٣) واليه يرجع الفضل فى التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء فى مصر او سوريا . كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر اكبر عون لمراد بك فى محاولة الخـــروج عن السلطان وكذلك المعلم غبريال سيداروس من ابراهيم بك بل اشترك هؤلاء فى تدريب الجند المصرى وابلوا بــلاء حسنا فى المواقع التى دارت وان انتهت بفشلهما وعودتهما الى طاعة السلطان .

ويحدثنا الجبرتى فى جزئه الاول عن المعـــلم رزق انه كان رجلا حازما ومدبرا يقظا وانه كان على شيء من العلم وعلى الأخص علم الفلك الذى مهر فيه بينما كان على بك من المصدقين بصدق المنجمين .

بدأ فى أول عهده سكرتيرا لدار سك النقود ورفعته ثقة على بك الكبير به الى مدير حسابات الحكومة وقتئذ وذلك على الرغم من قســـوة على بك

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٨١ — مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) على بك الكبير ص ٦٠ .
اسمه الاصلى يوسف بن داود ، ولد سنة ١٧٢٨ بالاناضول ، أبوه قس رقيقا الى أبراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا أعتنق الاسلام وتسمى يونانى وبيع رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنـــا اعتنق ألاسلام وتسمى باسم على .   (٣) محمد فؤاد شكرى ص ٢٦ .

على القبط ثم رفعته هذه الثقة أيضا الى رئاسة الدواوين واعتمد على بك عليه فجعله مع القيام بوظيفته مستشاره الخاص فى تدبير شئون الدولة وعاون على بك معاونة صادقة فى تحقيق أغراضه التى كان يهدف اليها من الاستقلال بمصر ورفع الحكم العثمانى عنها فتوافر للمعلم رزق من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الدولة . وقد استخدم المعلم رزق لمعاونته فى عمله كثيرين من الأقباط رغم كراهية على بك الكبير لهم فكان المعلم رزق بذلك صاحب مدرسة تؤهل الأقباط لان يحتلوا أكبر مناصب الدولة لكفائتهم وأمانتهم وسعى فى أوقات كثيرة كما يقول الجبرتى فى منع الاضطهاد عن القبط ورفع الذلة عنهم .

ولم يحاول الأمراء والمماليك استخدام هؤلاء الاقباط لكفائتهم البارزة فى الامور المالية فحسب فكانوا بمثابة وزراء المالية لهم ويبدو ان كفائتهم فى هذه الناحية كانت فذة وأمانتهم فوق مستوى الشبهات مما جعل مرتباتهم مرتفعة لا يدفعها الا من وصل حدا كبيرا من الثراء حتى اننا نجد الجبرتى عندما يريد أن يبالغ فى اظهار ثراء احد الناس فانه لا يجد عبارة يدلل بها على عظم ثروته غير عبارة (واستخدم الأقباط) وربما يكون هناك هدف آخر من وراء انضمام الاقباط الى المماليك فقد كان هؤلاء الآخرون العنصر الذى اغتصب منه الاتراك السلطة والذى كان تواقا للخلاص منه ويتطلع الى اليوم الذى تتخلص فيه البلاد من هذا الحكم التركى الاجنبى البغيض لتعود الى استقلالها السابق فكان اتحاد الاقباط معهم بمثابة اتحاد العناصر الثائرة ضد الاستعمار الاجنبى ترقبا ليوم الخلاص أى وحدة الغاية والهدف هى التى جمعت بين هذين الخصمين السابقين .

ويبدو ان نشاط المعلم رزق كان متجها اكثر ما يكون الى الاخلاص فى خدمة سيده على بك الكبير بينما كان تلميذه المعلم ابراهيم الجوهرى متعدد جوانب النشاط فالى جانب تدبيره مالية على بك ثم محمد بك أبو الدهب ثم ابراهيم بك لم يكن يألو جهدا فى خدمة طائفته ما وسعه ماله ونشاطه فيذكر عنه السنكسار انه كان من عادته على ما روى معاصروه أن يقسم ماله الى ثلاثة أقسام يخصص منها الثلثين للفقراء والانفاق على نسخ الكتب ووقفها وتقديمها من حين الى آخر الى البطريرك يؤنس الثامن

عشر وقد كانت كثرة الكتب التى قدمهـــا منسوخة الى البطريرك سببا فى دهشته حتى ســـــاله فى ذلك فكشف له عما يفعله فسر البطريرك من غيرته وتقواه وباركه قائلا (ليرفع الرب اسمك ويبـــارك عملك وليقم ذكراك الى الأبد) .

ولم يحدثنا التاريخ عن موطن ابراهيم الجوهرى أو نشأته فما زال نسبه مجهولا . كان فى أول أمره كاتبا لأحد الامراء المماليك ثم ترك خدمته وأصبح عاطلا فالتمس من البطريرك التوسط له لدى المعلم رزق الذى كان موضع ثقة على بك الكبير فاتخذه كاتبا خاصا به .

واذا ما عصفت ريح السياسة بعلى بك وخلفـــــه محمد ابو الدهب استبقى ابراهيم الجوهرى فى خدمته استقر الرأى بين جميع كتبة مصر على أن يخلف ابراهيم رزقا فى وظيفته فانتهت اليه رئاسة الدواوين .

وانتهت أيام محمد أبو الذهب وذهبت سلطته كما ذهبت سلطة سلفه على بك الكبير وانتهى الامر الى يـــد ابراهيم بك ومراد بك على أن يتبادلا مشيخة البلد وامارة الحج سنويا فقلد ابراهيم الجوهرى رئاسة الدواوين فى مصر كلهـــا وهنا تجلت مواهبه فأصبح صاحب الكلمة المسموعة لا يعلوه غير الحـــاكم الأعلى .

وقد استطاع الرجل فى هذا المنصب رغم ما ناله فى بعض الاحيان من اضطهاد ومصادرة أن يمنع عن الأقبـــــاط بعض الاذى اذ تمكن بنفوذه من استصدار بعض الفتاوى التى تجيز اعادة ما تهدم من الكنائس وأوقف عليها الأموال الكثيرة اذ لم يكن له الا ولد واحد مات فى شبابه (١) .

وقد ذكر الجبرتى مؤرخ هذا العصر ان المعلم ابراهيم (كان رجلا عظيما فى خلقه وفى علمه . سخيا كريما الى أبعد حدود الكرم . أما عن خلقـــــه الشخصى فقد كان وقورا فى دعة . متواضعا فى رفق ولين . طيب السريرة . عطوفا . يرفق بالمحتاجين يواسى البائسين كمـــا كان رحب الصدر واسع

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٢٨٩ .

الحلم . عادلا فى معاملة جميع النـــاس) . واذ ما مات فى ٣١ مايو سنة ١٧٩٥ حزن عليه ابراهيم بك حزنا شديدا وخرج ليشهد جنازته أثناء مرورها بالقصر العينى وقد رثاه الجبرتى مع ما عرف عنه من تحيز ضد المسيحيين فقال : (ومات الذمى المعلم ابراهيم الجوهرى . رئيس كتبـــة الأقبـــــاط فى مصر . ادرك فى هذه الدولة من العظمة ونفـــــاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله من ابناء جنسه . وكان من دهاقين العـــــالم . ودهاتهم . لا يغرب عن ذهنه شىء من دقائق الأمور . ويدارى كل انســـان بما يليق من المداراة . ويحابى . ويهادى .ويواسى الأمراء عند دخول رمضان وعمرت فى ايامه الكنائس وديور النصارى وأوقف عليهـــا الأوقاف الجليلة والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والارزاق الدارة والغلال) (١) .

ولعلنا لا ننسى ان بناء الكنيسة المرقسية فى شارع كلوب بك يعود الى حسن تصرفه وذكائه كما يعـــود الى كرمه اذ انتهز فرصة مرور احـــدى الأميرات بمصر لأداء فريضة الحج فخدمها بنفسه واكرمهـــا اكراما زائدا فى ذهابها وعودتها وأهدى لهـــا الهدايا الفاخرة فحصل بواسطتها على فرمان برفع الجزية عن الرهبان وأذن ببناء الـــكنيسة الكبرى بالأزبكية حيث مقر سكنه ولكنه توفى قبل بنائها فقام بذلك أخوه المعلم جرجس (٢) .

أما عن نفوذ الكنيسة القبطية خارج اقليم مصر فقد كانت رئاستها تمتد الى اثيـــوبيا والسودان منـــذ أن دخلت المسيحية الاولى فى القـــرن الرابع الميـــلادى أيام البطريرك اثناسيوس الرسولى . الثانية فى القــــــــرن السادس (٣) .

أما فى الأولى فقد كان البطريرك المصرى هو الذى يعين المطران هنـــاك وكان فى العادة مصريا ولم يكن للكنيسة القبطية الا اثر قليل هناك حتى القرن الثالث عشر رغم ما ترجم من الكتب القبطية واليونانية الى اللغـــة الاثيوبية

---

(١) الجبرتى جـ ٢ .
(٢) السنكسار جـ ٢ .
(٣) يرجع الى كتاب (كنيسة الاسكندرية فى افريقيـــا) للمؤلف لمزيد من التفاصيل .

وما كان من سفر الرهبان المصريين الى هناك وانشائهم الأديرة ثم تعليمهم المبادىء المسيحية للكهنة والشعب .

الا أن المسيحية بدأت تؤثر تأثيرا ظاهرا وتتغلغل فى الشعب منذ القرن الثالث عشر حين اهتمت الأسرة السليمانية وعلى رأسها الأمبراطور يكونو ملاك ثم ابنه يجبيا صيون بالتنازل للكنيسة عن ثلث أراضى الدولة (١) ثم انشاء منصب الاتشيجى ليكون حلقة اتصال بين الأكليروس الوطنى والمطران (٢) وكذلك انشاء المدارس الدينية الملحقة بالأديرة والكنائس لتعليم الناس أصول الدين ثم تخرج الكهنة اللازمين للشعب (٣) .

ومنذ هذا الوقت أخذ الأباطرة متوالين فى الاكثار من بناء الكنائس ووقف الأوقاف عليها وانشاء المدارس الدينية فكان من أثر ذلك انتشار المسيحية وازدهارها هناك والقضاء شيئا فشيئا على الديانات القديمة والمعتقدات القديمة وان بقيت بعض الطقوس التى لا تتنافى مع المسيحية فى شىء .

وجرت العادة أن يكون تعيين المطران اثر مجىء وفد اثيوبى مكون من بعض المدنيين والكهنة يحمل خطابا الى البطريرك فيه نبأ وفاة المطران السابق مع رجاء تنصيب مطران جديد وكذلك خطابا آخر الى صاحب السلطة فى مصر برجاء السماح للبطريرك بتنصيب المطران من أجل دوام العلاقات الطيبة بين اثيوبيا ومصر كما جرت العادة أيضا أن يحمل الوفد معه هديتين ثمينتين احداهما الى البطريرك والأخرى الى السلطان (٤) .

ويعتبر المطران منذ رسامته رأسا للكنيسة الاثيوبية وأهم واجباته تنصيب الكهنة الاثيوبيين بعد استشارة الاتشيجى بينما كان أهم حقوقه تتويج الأباطرة وعزلهم اذا ما ارتكبوا ما يهدد سلامة البلاد أو عقيدة الشعب (٥) .

---

(1) Bulletin T. VIII, Bridge, Vol I p - 312.

(٢) تاريخ تكلا هيمانوت الحبشى مخطوط رقم ٢٠ بمكتبة بطريركية الاقباط الأرثوذكس .

(٣) Bridge P. 204

(٤) السنكسار ج ٢٦٢ برمهات ١٣ بئونة ، ١٢ بشنس برمودة .

(٥) Bridge, Vol. II P. 545

وكان البطريرك فى مصر يراقبـــه عن كثب ويكتب اليه مرتين كل عام مستفهما عن اخبار رعيته هناك وكثيرا ما كان الحكام المصريون يضيقون بهذه الكتب عندما تحمل اخبارا من مصر عن اضطهاد بعض الحكام للأقباط (١) فيكون ذلك سببا فى تدخل اباطرة اثيوبيا لدى السلاطين كى يحسنوا معاملة الاقباط فى مصر لقاء حسن معاملتهم للمسلمين هناك فيستدعون البطـــريرك ويهددونه بل قد يسجنونه انتقاما منه لأنه حمل اخبار هذه الاضطهادات (٢) .

ولكن هذا البطريرك المصرى وهذه العـــلاقة بين مصر واثيوبيا كثيرا ما كانت أيضا سببا لرباط من العودة والصداقة يربط كلا من مصر واثيوبيا فتسير الرسل والوفادات من مصر واليها (٣) ، كما تكون سببا لنشاط تجارى بينهما أيضا . وكثيرا ما كان الأباطرة الاثيوبيين يلجأون الى مصر بسبب هذه العلاقة الدينية اذا ما احتاجوا الى الصناع المهرة فى الفنون المختلفة فلم تكن مصر تبخل بارسال ما يريدون .

وظلت الكنيسة الاثيوبية تابعة للكنيسة المصرية تعترف الاولى ببنوتها للثانية وترعاها رعاية الأم لوليدها . ولم يكن البطاركة أو المطارنة المصريون يحاولون التدخل فى الامور السياسية بل ظلت رعايتهم قاصرة على الامور الكنسية .

فكان من أثر ذلك أن اينعت المسيحية فى اثيوبيا وازدهرت وان لقى الشعب من الأباطرة والأمراء كثيرا من الاذى بسبب ما ساد البـــلاد من اضطراب نتيجة لاختلاف الامراء وتطاحنهم حول العرش (٤) .

أما فى السودان فكان الأمر مختلفا فقد دخلت المســـيحية فى القرن

---

(١) البدر الطالع ص ٢١٠ .
(٢) المقريزى . السلوك ج ٢ ص ١٢٨ .
(٣) Bulletin de la société d'archéologie copte vol VIII.
(٤) رفع من درجة المطران الى بطريرك جاثليق فى الاتفـــاقية الاخيرة من الكنيسة المصرية والاثيوبية سنة ١٩٥٩ .

السادس وتبعت الكنيسة السودانية الكنيسة المصرية وكان أهل السودان متأثرين الى حد بعيـد بالثقافة المصرية والحضارة ، فكانت الكنيسة المصرية هى التى ترسل اليهم بالمطران والكهنة ويقوم الملوك ببناء الكنائس وتزيينهـا على الطريقة المصرية وبدخـول مصر ضمن دائرة الامبراطورية الاسلامية حاولت الجيوش الاسلامية التوغل الى هناك الا انها لقيت من قوة مملكة النوبة المسيحية ما صدها فاكتفت منهـا بمعاهدة ترسى العلاقة بينها على أساس من الصـداقة لقـاء تبادل تجارى بين النوبة ومصر وكان الرقيق والمنسوجات والغلال أهم ما يتبادلانه .

ولم يتح الزمن للمسيحية فرصة كافية لان تتمكن من السودانيين كما تمكنت فى اثيوبيا فظلت المسيحية هناك طلاء لكثير من المعتقدات الوثنية كما كان المطـران المصرى والـكهنة المصريون بسبب جهلهم لـكثير من عادات السودانيين ولغتهم غير قـادرين على اعطـاء المسيحية جذورا عميقة فى السودان . كما لم يهتم الملوك هناك بانشـاء المدارس المسيحية لتعليم الشعب العقيدة المسيحية . فأخذت الثقـافة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية من ضعف أيضـا وما لقيته من سوء معاملة فى بعض الأوقات سواء من بعض الولاة الأمويين أو العباسيين (١) أو بعض الخلفاء الفاطميين كالحاكم بأمر الله أو السلاطين المماليك .

واذا ما تدخلت دولة المماليك فى الخلافات المستمرة بين ملوك السودان، ونجحت حملة السلطان قلاوون فى عزل آخر ملك مسـيحى هو كارامبوس وتولية عبد الله بن شنبو واعتناق هذا الاخير الاسلام كان هذا ايذانا ببدء الانهيار السريع للمسيحية هناك .

هذا الى أن السودان لتى من ظروفه الداخلية وهى انقسامه الى أكثر من مملكة مسيحية ضعيفة وكذلك هجرة القبـائل العربية اليه سواء من

---

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ١٦٥ ، ٢١٦ .

الشمال أو الشرق ما زاد فى ضعف المسيحية ، بل وانهيارها فقد استقر كثيرون من العرب هناك واصهروا الى السودانيين ورغب السودانيون فى هذه المصاهرة ليتخذوا منهم حماة ودروعا ضد هجمات تجار الرقيق الذين كانوا يهجمون على المسيحيين ويتخذونهم رقيقا ويبعثون بهم الى أسواق الرقيق فى فارس والجزيرة العربية والدولة الرومانية الشرقية واوروبا . فلم يجد المسيحيون هناك امامهم سوى أن يرتموا فى احضان الاسلام وان يصهروا الى هؤلاء العرب القادمين (١) .

وكان قيام دولة الفونج فى القرن السادس عشر فى حوض النيل الاوسط قرينا باختفاء المسيحية هناك ولعل الكنيسة القبطية فى القاهرة هى المسئولة الوحيدة عن هذا الاختفاء اذ لم تحاول منذ أن تبعتها الكنيسة السودانية فى القرن السادس أن تعطى المسيحية جذورا عميقة فلم تبذل أية محاولة لاقتلاع جذور الوثنية التى كانت متغلغة فى نفوس السودانيين كما لم تحاول أن تقيم من السودانيين كهنة وقسوسا على نحو مافعلت فى اثيوبيا — — ليستطيعوا بدورهم ان يقيموا المسيحية على دعائم ثابتة قوية — وقد يكون سوء حال الكنيسة القبطية خلال الحكم التركى وما لاقته من الاضطهاد عذرا لها على هذا الاهمال . ولكن ذلك لا يكفى لتبرير هذا الاهمال لا سيما وأن الاسلام عند دخوله الى السودان لم يدخله عن طريق ائمة أو معلمين بل عن طريق بعض القبائل المسلمة التى لم تقصد مطلقا نشر الاسلام أو عن طريق تجار الرقيق الذين أرغموا المسيحيين — عن طريق غير مباشر — على اعتناق الاسلام ، وأخيرا عن طريق أصحاب الطرق الصوفية الذين قصدوه سواء من طرابلس أو مراكش أو الحجاز واخذوا فى انشاء الزوايا ، ولذا كان تأثير هؤلاء الزعماء المحليين وتأثير هؤلاء الأولياء أكثر من اى شىء آخر فى نفوس السودانيين الى ما بعد الحكم المصرى . واذا ما وصلنا الى نهاية القرن السابع عشر لم يعد للمسيحية أثر مطلقا فى السودان كأنها لم تظهر هناك بتاتا وكأن السودانيين لم يكونوا يوما مسيحيين .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر (كنيسة الاسكندرية فى افريقيا) للمؤلف .

الباب الثانى

الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت فى أول يولية سنة ١٧٩٨ تبغى أغراضا لا تتعلق بمصر نفسها ، كما لا تتعلق بتركيا صاحبة السيادة على البلاد ، ولكن تبغى أغراضا خارجة عن نطاق الدولتين . فقد استحكمت العداوة بين انجلترا وفرنسا وعز على فرنسا أن تقابل الاولى فى ميدان برى حيث كان لها السيادة الحربية ، فأرادت أن تختار مكانا حساسا من بريطانيا يرغمها استيلاء فرنسا عليه على أن تركع لها طالبة الصلح — كما فعلت النمسا وبروسيا وروسيا ، أعضاء التحالف الدولى من قبل (١) .

ورأت فرنسا أن يكون هذا المكان الحساس هو مصر لأنها فى طريق انجلترا الى املاكها فى الشرق الأقصى . وبسبب ضعف المماليك ونزاعهم المتواصل مع انفسهم تارة ومع تركيا تارة أخرى . وبسبب تخلف كل من تركيا والمماليك عن النظم الحربية ومستوى الأسلحة السائدة ، وكذلك بسبب حرمان المصريين من الاندماج فى سلك الجيش ، استطاع الفرنسيون أن يتغلبوا بسهولة على مقاومة المصريين اليسيرة فى الاسكندرية ، فدخلوها . واذاع قائد الحملة منشورا على المصريين أنه صديق لهم ، لا ينبغى سوى تخليصهم من هؤلاء المماليك الذين أهدروا مصر والتجارة الفرنسية ، ويمنيهم بالمساواة التامة التى حرموا منها وقتا ليس بالقصير ، كما يفتح أمامهم باب تولى المناصب فى بلادهم (ولكن بعونه تعالى — من الآن فصاعدا — لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السمية ، وعن اكتساب المراتب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧ .

العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور) (١) . وكان هذا المنشور باللغة العربية .

ولقد حاول المصريون فى الاسكندرية أن يدافعوا عن بلدهم رغم قصور أسلحتهم ونظمهم ورغم ادراكهم هذا القصور . ورأس البطل محمد كريم هذا الدفاع . فعرف الفرنسيون قدره فأكرموه . الا أنهم سرعان ما تبينوا خداعه فأعدموه . وكان هذا الرجل فى دفاعه عن وطنه ضد المغيرين بطلا وطنيا حقا لولا هنة بسيطة لارتفع قدره الى مرتبة الشهداء . وهى انه قال للأسطول البريطانى الذى وصل الاسكندرية قبل قدوم الفرنسيين بحثا عنهم « ان هذه البلاد ليست بلادكم ولا بلد الفرنسيين انما هى بلد السلطان » ولو قال انما هى بلادنا لاستحق تقدير الوطن حقا . ولكن للرجل عذره ، فقد تكلم بعقلية العصر وقد سيطرت على عقله القومية الاسلامية : فهى القومية التى اعتنقها المصريون منذ اعتنقوا الاسلام وخضعوا للخلافة الاسلامية .

ونجح الفرنسيون فى أن يتقدموا الى القاهرة ويستولوا عليها بعد أن حطموا قوة المماليك ودخلوا القاهرة فوجدوا المماليك قد نهبوها . وكانت بيوت الأقباط بل جميع المسيحيين أول هدف لهم ، نهبها العسكر العثمانى . وفر جميعهم الى الصعيد أو الى الشام وفر معهم بعض المصريين كالسيد عمر مكرم . كما طاف الرعاع بالمدينة ينهبون بيوت المسيحيين على اختلاف أجناسهم . ويقتلون منهم من يصادفونه دون تمييز بين الرجل والمرأة (٢) .

واذا استطعنا أن نفهم السبب الذى من أجله فر المماليك الى الصعيد أو الشام فالحملة لا تقصد الا القضاء عليهم كقوة محاربة أولا وكقوة متسلطة ثانيا ، كما أعلن قائد الحملة صراحة ، الا أننا لا نستطيع أن نفهم لماذا هرب هؤلاء المصريون وكلهم ذو مكانة تحتم عليهم أن يشاركوا قومهم ضراءهم تحت حكم الفرنسيين كما شاركوهم هذا الضر تحت حكم العثمانيين

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .

ولا ادرى ماذا دار بخلدهم ودفعهم الى هذا الفرار . أكانوا يتصورون أن ضرر هؤلاء الغزاة سوف يكون مريرا قاسيا ؟ أم كانوا يتصورون ان الدولة العثمانية قـــادرة على استرداد مصر ، وان واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا بجانب هذه القوات الزاحفة لاستردادها ؟ ولماذا فضلوا أن يكونوا تحت الحكم العثمانى الفاسد على أن يكونوا تحت حكم فرنسى لم يعـــرفوا أكان فاسدا فساد الحكم التركى أو دونه أو يفوقه . لا أجد تعليلا لهذا الهرب سوى ان هؤلاء الناس تصرفوا تحت تأثير ما اعتنقوه منقومية اسلاميةجعلتهم يفضلون ان يكونوا تحت حكم فاسد ظاهره اسلامى على أن يكونوا تحت حكم (كافر) وان كان صالحا .

ولذا لا أستطيع مطلقا أن أقف الى جانب هؤلاء الناس فى تصرفهم هذا . ولو بقوا ليقاسموا المصريين ما سوف يجدونه من ضر لــكان موقفهم أكرم وأفضـــل .

دخل الفرنسيون القاهرة دون مقاومة تذكر . ولم يكن المصريون يملكون ما يقاومونهم به بعـــد أن هرب هؤلاء المحاربون (الأبطال) . ولم يلبث قائدهم ان أذاع على القاهريين منشورا كمنشوره الاول الـــذى أذاعه فى الاسكندرية وهو منشور اتفق المؤرخون جميعـــا على أن ما جاء به يوقظ قوميتهم المصرية (١) التى نامت خلال عشرة قرون طويلة .

وكان فى استطاعة المصريين أو زعمائهم الـــذين وجدوا أنفسهم باعتراف المحتلين فى مكان الصدارة وقد حرموا القدرة على مقاومة المحتل الجديد أن يتمسكوا بما جاء فى هذا المنشور ويطالبوا به حتى يكتب الله لهم فرجا مما هم فيه ولكن مما يؤسف له أنهم لم يفعلوا .

واخذ الفرنسيون بعد احتلالهم القاهرة فى نشر نفوذهم فى كل أنحاء مصر ثم بدأوا استغلال البلاد لصالحهم .

ولأجل الامر الاول (نشر نفوذهم فى كل أنحاء البلاد) أرسلوا الحملات

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .

الحربية الى أنحاء البلاد المختلفة وكان اهمها حملة الجنرال دبزيه التى أرسلت لاخضاع الصعيد . ولمطاردة المماليك الذين هربوا الى الصعيد وأمعن بعضهم فى الهرب حتى وصل الى السودان .

ومن أجل الامر الثانى (استغلال البلاد لصالحهم) أخذوا فى اصدار جملة من التشريعات التى ترمى الى تنفيذ بعض الاصلاحات من أجل ادخال البلاد ضمن نطاق الدول الحديثة . ومجرد القاء نظرة سطحية على هذه الاصلاحات تدلنا على الحالة التى كان المصريون يعيشون فى نطاقها . ومن هذه الاصلاحات :

١ ـ تحريم دفن الموتى فى الجبانات القريبة من المساكن (١) .

٢ ـ دفع المصريين الى تنظيف حاراتهم ودروبهم بكنسها ورشها يوميا (٢) .

٣ ـ انارة الحارات والدروب بمصابيح تعلق أمام البيوت .

٤ ـ تسجيل المواليد بدفاتر أعدتها الحكومة وكذلك عقود الزواج وقسائم الطلاق (٣) مع دفع رسوم معينة على ذلك .

٥ ـ تحتيم التبليغ عن الوفيات لتسجيلها فى دفاتر خاصة بذلك .

٦ ـ هدم أبواب الحارات (٤) .

٧ ـ جباية بعض الضرائب العاجلة لسد مصاريف الاحتلال (٥) .

٨ ـ انشاء مكتب للتسجيل لتسجيل مستندات التمليك لوضع حد لكل نزاع قضائى .

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٠ .
(٣) محمد فؤاد شكرى ص ١٨٠ .
(٤) الجبرتى جـ ٣ ص ٢١ .
(٥) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
وذكر محمد فؤاد شكرى ان نابليون طلب مبلغا كبيرا من الريالات الاسبانية من التجار وأرغم الاقباط على دفع مبلغ آخر .

فهــذه الأوامر ترينــا أن المصريين كانوا متخــلفين عن اقرانهم من الشعوب الأخرى بأربعة قرون على الاقل ــ وهى المدة التى قضاها الاحتلال التركى فى البلاد . فلا دفاتر لتسجيل المواليد أو الوفيات . والقــاذورات تتراكم فى الشوارع والدروب والحارات . والمدينة تنام اذا غربت الشمس . والموتى يدفنون فى البيوت . مما يعرض الأحياء لفتك الأمراض ويسهل ارتكاب الجرائم . كما كان أمر صــيانة الأمن موكولا الى أبناء كل حارة يتولونه بأنفسهم والحكومة لا تجــد ذلك من واجبها فلا يجد الأهلون وسيلة تمكنهم من ذلك سوى جعل باب كل حارة يغلق اذا ما غربت الشمس . مما يدل على ان مستوى معيشة المصريين كان خلال القرن الثامن عشر أقل بكثير مما كان عليه خلال القرن الثامن أو التاسع حين كانوا تحت حكم الطولونيين أو الفاطميين .

واصدر الفرنسيون أيضا تشريعا بانشــاء مجلس يتكون من بعض مشايخ الأزهر وبعض الفرنسيين وهو المسمى بالديوان (١) لاجل أن يقدم المشورة الى الحاكم العام الفرنسى وهى خطــوة تدل على رغبة الفرنسيين فى اشراك المصريين فى الحكم ، وان كان هذا الاشراك فى نطاق ضيق وبطريقة معتلة ، اذ لم يكن هذا الديوان يملك حق المعارضة كما انه لم يكن ممثــلا لجميع طوائف السكان . فلم يكن لغير المسلمين ممثلون فيه .

وكان الديوان الصغير المكون من اثنى عشر عضوا نصفهم من المسيحيين برئاسة المعلم ملطى ليكون بمثــابة محكمة فى أمور التجــارة والمواريث والدعاوى وادارة للشهر العقارى من أجل مراجعة جميع حجج الملكية لتثبيتها وجباية رسوم الدمغــة عليها . ومن الطبيعى أن الفرنسيين لم يلجأوا الى المسيحيين من أجل انصافهم،ولا من أجل اتحادهم معهم فى الدين،فلم يكن ذلك من سياسة الفرنسيين فى شىء ، لا سيما وقد نبذوا الديانة المسيحية فىفرنسا قبل ذلك ببضع سنين ، بل لجأوا اليهم لما سمعوه عنهم وتبينوه من كفــاءة فيهم ومعرفة بعضهم للغة الفرنسية .

---

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٤١ .

ولا يملك الناقد مهما بلغت وطنيته الا أن يشكر الفرنسيين على مابدأوه من خطوات ، فالاصـــلاحات الأولى ضرورية للمصريين ضرورة الهواء الذى يستنشقونه . وهذا الديوان الأخير كان ولا شك من أجل الوقوف على رأى المصريين فى كل ما ينوى الفرنسيون اجراءه من تغيير فى نظم الحكم القديمة وهـــو يدل على رغبتهم فى المشاركة فى الحكم . ولم تكن تنتظر من محتل أجنبى متصرف أن يشرك الوطنيين فى أكثر من ذلك ، ولا أن يمالىء العنصر الغالب متجاهلا الأقلية بأفضل مما فعل .

وهناك حقيقة يجب التنبيه اليهـــا وهى ان هذه الحملة الفرنسية كانت موضع استنكار كثير من القواد الفرنسيين بل جاهر بهذا الاستنكار فريق منهم على راسه الجنرال كليبر . فقد كان يرى ان الميدان الأوروبى أولى بالتفات الحكومة . فهو الميدان الحاسم فى نتيجة الحرب بين فرنسا وأعدائها. كما ان القيام بحملة بعيدة يفصلها عن فرنسا بحر يتسوده الاعـــداء خطوة غير موفقة . هذا الى ان ابعاد صفوة الجنود والقواد الفرنسيين عن فرنسا يعرضها لخطر انتقاض هؤلاء الأعداء . وقد تم هذا فعـــلا . وكان سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ثم الحربية التى وجدها الفرنسيون فى مصر قد ساعد على زيادة عدد الناقمين من القواد . وعلت أصوات القـــــدامى منهم فى المعارضة والاستنكار ، بل ساعدت على سريان روح التذمر بين عامة الجند . الأمر الذى يهدد الروح المعنوية للفاتحين .

ولم يمض على قدوم الفرنسيين شهر حتى اصطدم الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط بالأسطول الفرنسى الذى ربض فى خليج أبى قير بعد أن انتهت مهمته بحمل الجنود الفرنسيين الى مصر ، ودارت الموقعة التى انتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وحصار الاسطول البريطانى للشواطىء المصرية ليمنع أى اتصال بين الفرنسيين فى مصر والحكومة الفرنسية فى باريس .

وكان أثر هذه الضربة على الفرنسيين عظيما فقد حوصروا فى مصر واصبح عليهم أن يدبروا أمرهم معتمـــــدين على الموارد المصرية ، وعلى اخلاص المصريين للحكم الجديد ، وأن يأخذوا حذرهم من كل من تركيـــــا وانجلترا اللذين سوف يتحدان لغرض اخراج الفرنسيين وانزال الهزيمة بهم واخراجهم من مصر :.

وقد عرف نابليون بونابرت كل هذه النتائج وتنبأ بها ، ولذا أخذت قبضته على مصر تزداد قوة ، واصلاحاته تتجه نحـو استغلال مصر بأقصى سرعة وبأقصى طاقة من أجل الدفاع عن الفرنسيين فيها ، فلا غرو ان قامت الثورة فى القاهرة . فى شهر أكتوبر ولما يمض على مجىء الفرنسيين ثلاثة اشهر ـــ وهى الثـــورة التى حرقت فيهـا كنيسة حارة الروم . فأمر البطريرك مرقص الثامن بنقل البطريركية مؤقتا الى حارة النصارى . ويجمع المؤرخون على ان سبب هذه الثورة هو ضيق القاهريين بهذه الاجراءات التى نفذها الفرنسيون وانهم بداوا يرضون عن الحكم الفرنسى لو لم يتخذ هـذه الاجراءات لتغيير طريقة معيشتهم عما الفوه من قبل . فليس لنا مطلقـا أن نعزو هذه الثورة الى أسباب قومية اى رغبة القاهريين فى التخلص من الحكم الفرنسى . بل ان الحق يقضينا أن نقول ان الذى دفعهم الى هذه الثورة مجرد الرغبة فى الغـــاء هذه التشريعات الجديدة . فهى ثورة تشبه ثورة الطفل الذى يرفض ان يأخذ الدواء المر فهو لم يثر ضد والدبه انما ثار من أجل اعطائه الدواء . وكان طبيعيا أن يلجأ الفرنسيون الى الشدة فى قمع هذه الثورة بعد أن رأوا الصعوبات تكتنفهم من جميع الجهات . فنصب نابليون المدافع على القلعـة وصبها على مراكز الثورة . وهو اجراء رأيناه فى جميع محاولات الفرنسيين حتى انرقت الحاضر فى سحق ثورات الشعوب ، مما يدل على سرعة فقد الفرنسيين لصوابهم . ويزيد الأستاذ محمد فؤاد شكرى على هذا الاستياء من التشريعات، استياء المصريين من نجاح قوات (المشركين) وانتصاراتهم وكذلك العداء الدينى الـكامن فى نفوسهم لغير المسلمين ثم اشتهار الفرنسيين بشرب الخمر وخروجهم مع البنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات (١) .

وكان من نتيجة هذه الثورة أمران همـا الغاء الديوان بنظامه القديم واعادة انشاءه على نحو جديد هو اشراك غير المسلمين فيه . وقد قصد بهذا الاجراء اشعارهم بالذلة عن طريق مساواتهم بغـير المسلين ـــ الامر الذى لم يحدث منذ الفتح الاسلامى ـــ بعد أن تنكروا لمـا عاملهم به من قبل

---

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٧٥ .

من تفوقهم على غيرهم . وهذا الاجراء وان قصد به المعنى القريب الا انه جعل الديوان أكثر ديموقراطية ، بعد ان أعطى جميع طوائف السكان ما كان للأغلبية من حقوق . وكان نابليون قد أسرع الى عزل قاضى القضاه العثمانى ، وطلب من العلماء ان ينتخبوا لهم مصريا بدلا منه وكتب الى المشايخ (ان قد انقضت وفرغت دولة العثمانلى من اقاليم مصر ، والعاقل يعرف ان علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية أهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم) فرفضوا هذا الاعتراف بكفائتهم بل تشفعوا لدى نابليون ليبقى على القاضى العثمانى فلم يلقوا من نابليون غير الرفض المطلق واخيرا انتخبوا مكرهين الشيخ أحمد العريشى (١) .

اما الأمر الثانى الذى تمخضت عنه الثورة فهو تفكير نابليون فى غزو سوريا من اجل الاستيلاء على شواطئها وموانيها التى تطل على البحر المتوسط ، والتى سوف يستطيع الاتصال بفرنسا عن طريقها وتلقى الأسلحة والملابس اللازمين لرجال حملته . فصناعات مصر لا تستطيع امداده بما يريده منها . وقد عرفنا من الباب السابق كيف ان هذه الصناعات كانت قاصرة على بعض المصنوعات السيئة الصنع التى لا تسد مطالب الفلاحين ليس غير .

ولكن دفاع حسن باشا الجزار عن عكا ، ثم أمداد البريطانيين المدافعين عنها بالسلاح فوتا عليه غرضه وعاد نابليون الى مصر وقد تحقق ان الارض زلزلت من تحته وأن هذه الحملة فقد فشلت نهائيا ، فعول على أن يرحل الى فرنسا كى لا يتحمل مسئولية فشلها ، واستطاع فعلا أن يرحل فى غفلة من الأسطول البريطانى .

والقى عبء الحملة على الجنرال كليبر وترك له أوامر بأن يظل الاقباط قائمين على الشئون المالية وتحصيل الضرائب ولم يلبث الجنرال أن أجرى مفاوضات الجلاء خصوصا وقد تأيدت المخاطر التى كان قد تنبأ بها قبل رحيل الحملة ، فقد انقلب الميزان فى الميدان الاوروبى وعادت النمسا

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧٧ ومحمد فؤاد شكرى ص ١٦٩ .

وحليفاتها الى شن الغارة على الأملاك الفرنسية واستردوا منهـــا أجزاء ليست باليسيرة ، وأصبح الميدان المصرى ميدانا ثانويا لا يستحق أن يحجز لأجله هذا العدد الكبير من خيرة الجند الفرنسى .

وتمكن كليبر بعد مفاوضات ليست باليسيرة أن يصل مع انجلترا الى شروط صالحة للجلاء ، فقد كانت انجلترا تواقة الى خروج الفرنسيين عن مصر بأى ثمن وان تحملت هى مصاريف رحيلهم . كما كان الفرنسيون انفسهم تواقين الى هذا الخروج ، وبصفة خاصة أصبح كليبر تواقا لأن يطـــير الى باريس ليلحق بنابليون كى يلبسه عار ومسئولية هذه الحملة الفاشلة .

وكان تقـــــدم المفاوضات السريع داعيا لأن يعطى كليبر الأوامر الى الفرنسيين المبعثرين فى مصر بالتجمع فى القاهرة ، أو فى مواضع قريبة من القاهرة ، من أجل الاسراع بالرحيل . كمـــا سمح لجيش تركى قادم من سوريا أن يجتاز الحدود الشرقية لتسلم المراكز التى يخليها الفرنسيون . وقد قدم مع هذا الجيش الاخير من سبق أن فر من المصريين الى سوريا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف .

ووصل هذا الجيش الى الصـــحراء الشرقية وعسكر فيهـــا ريثما تصل المفاوضات الى نهايتها ويتسلم قائدها الأمر بالتقـــدم ولكن المصريين الذين رافقوه أسرعوا وسبقوا الجيش ودخلوا القاهرة حيث استقبلهم أهلها كأبطال فاتحين . كما تسلل اليها بعض الجنود بقيادة مصطفى باشا (فبادر بفرض ثلاثة آلاف كيس على الأهالى من أجل ترحيـــل الفرنسيين ، فغلت الأسعار (١) واشتد الضيق بالنـــاس . كما أمر بقتل النصـــارى (٢) وأرسل ابراهيم بك الى الشيخ المحروقى يطلب كساوى وطرابيش لجنوده (٣) ونزل الجند الى المدينة ينهبون ما تصل اليه أيديهم ، حتى لقـــد تمنى النـــــاس عودة الفرنسيين) (٤) .

---

(١) جـ ٣ ص ٩٢ من الجبرتى .
(٢) نفس المصدر ص ٩٦ .
(٣) نفس المصدر ٩٣ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٧ .

« وذهبت طائفة منهم الى حارات النصارى وبين الصورين وباب الشعرية والموسكى نصاروا يكبسون البيوت ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وشكى الناس الى مصطفى باشا فلم يلتفت اليهم » (١)

وكان ذلك بناء على تحريض نصوح باشا مما اضطرهم الى الهرب والتحصن فى قصر الألفى فى الأزبكية وهو الذى كان مقر القيادة الفرنسية العامة (٢) .

ولكن سرعان ما تعقدت المفاوضات حين رفضت وزارة الخارجية البريطانية أن يرحل الفرنسيون الى فرنسا ، بل أصرت أن تحملهم المراكب البريطانية الى انجلترا كأسرى حرب . وكان من الطبيعى يرفض كليبر ذلك ، فانقطعت المفاوضات وأعطى الأوامر للفرنسيين أن يعودوا الى الأماكن التى كانوا يحتلونها من قبل ، كما أعطى الانذارات الى قائد الجيش التركى المتقدم من الشرق أن يعود أدراجه الى خارج الحدود المصرية . وعول على أن يظل فى مصر ويدافع جهده عن مواقعه فيها حتى تقتنع بريطانيا بوجهة نظره أو تحصل جيوش فرنسا فى القارة على نصر حاسم يرجح كفتها فى المفاوضات اذا عادت واستؤنفت .

وبدأت الادارة الفرنسية من جديد تعيد تنظيم الضرائب وتحصيلها ، وكذلك تدبير أمر الذخائر اللازمة للجيش ، وكذلك المؤونة والملابس . ولا بد أن لمثل هذه الاجراءات التى اتسمت بالسرعة والشدة أن تثير غضب القاهريين فانفجروا فى ثورتهم الثانية .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يصف هذه الثورة أيضا بالقومية ، فيقولون انهم ثاروا من أجل مقاومة المحتل . وأن ثورتهم هذه كانت دفاعا عن قوميتهم التى استيقظت فجأة ، وان السيد عمر مكرم أخذ يستحث الناس على الدفاع والمقاومة ، وانه صرف فى ذلك أموالا كثيرة ، وان أهل

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ .
(٢) محمد فؤاد شكرى ص ٣٣٣ .

الحسينية والجمالية لا سيما جزارو الحى الأول قد قاموا بدور فعال هو المسالة بعينها (١) ونم بماك كليبر ازاء عنف الثورة التى استمرت سبعة وتلاثين يوما الا أن يترك القاهرة ويحاصرها ويمنع المؤونة عنها حتى تستسلم . وان الأهالى قد قاوموا هذا الحصار وما تعرضوا له من الجوع مقاومة جبارة جديرة بأن تكتب لهم فى سجل التاريخ ، وقد تكفل غنيهم بفقيرهم فأرسلوا لهم ما يكفيهم طيلة مدة الحصار ، وأخيرا لم يستطع هذا الشعب الباسل أن يفعل أكثر من طاقته فاستسلم وأرسل المشايخ لذلك ودخل الفرنسيون القاهرة واستردوها .

أما استبسال أهل القاهرة فى الدفاع وتحملهم الشدائد طيلة هذه المدة من أجل الانتصار فجدير بالاعجاب حقا ، وبطولتهم هذه جديرة بالتسجيل . ولكن البعيد عن التصديق أن يكون سبب هذه الثورة قوميا . فليس هو أكثر من انتفاضة دفعهم اليها السيد عمر مكرم ومن تسرب الى القاهرة من المماليك كالأمير حسن الجداوى ومن تسرب اليها أيضا من الأتراك ، كى يبرهنوا لأسيادهم القادمين أنهم لهم نعم العون ، وأنهم لم يستسلموا للحكم الفرنسى . فمثل هذه التهمة كافية لان تدفع بهم الى الموت من يد حاكم تركى أو قائد تركى قادم لا يعرف الا لغة السيف دون أن يردعه وازع من ضمير أو قانون . وقد أحسن القاهريون بزعمائهم الظن ، كما هى عادتهم ، فاندفعوا فى ثورتهم وتحملوا جميع الضربات وحدهم حتى اذا انتهت الثورة بالفشل أسرع الزعماء بالهرب الى الصالحية (٢) وكان موقف القاهريين فى هذه المذبحة كموقف الجيش المصرى الباسل فى حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ حين ذهب ليحقق مثلا عليا تجول فى ذهنه وصورها له زعماؤه ومات واستشهد من استشهد ، بينما كان مشعلو الحرب فى القاهرة ينعمون باحصاء ما كسبوه من مال ثمنا لهذه الدماء المراقة الشهيدة .

وكان نجاح الفرنسيين فى سحق ثورة القاهرة ، ثم استرداد الأماكن التى كانوا قد أخلوها ، وفى اقامة بعض الصناعات فى مصر . كذلك جبن الأتراك عن أن يقابلوا الفرنسيين فى معركة شريفة ، ونجاح نابليون فى

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٨ . (٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٩ .

استرداد شمال ايطاليا أسبابا متعددة دفعت بالبريطانيين الى أن يعودوا الى عقلهم فيسلموا للفرنسيين بوجهة نظرهم ، فقبلوا فى المفاوضات الثانية التى دارت بينهم وبين الجنرال مينو أن يعود الفرنسيون الى فرنسا . وهكذا قدر لمينو أن يكسب شرفا لم يستحقه .

واخيرا رحل الفرنسيون واسـترد الأتراك مصر . وقد اعتقـدوا أن الحملة الفرنسية كانت فرصة اتاحتهـا لهم السماء كى يتخلصوا من المماليك بعد أن فشلوا فى الدفاع عن مصر وبعد أن خسروا أعدادا كبيرة منهم اثناء تعقب الفرنسيين لهم .

أما بالنسبة لمصر . فان هذه الثلاث سنوات التى قضاها الفرنسيون فى مصر لأثمن لدينا فى التاريخ من هذه القرون الاربعة الطويلة التى مكثهـا العثمانيون فى مصر ، فقـد علمتنا دروسا كانت نعم الزاد فيمـا خلف من أيامنا . فقد تعلمنا قيمة هؤلاء الاتراك والمماليك الذين يستأسدون علينا وهم أجبن من الأرانب ، وان قيمتهم الحربية لا تساوى جنديا واحدا من الجنـود الأوروبيين ، كما علمتنا حق الشعب أن يقف فى وجه الحاكم وان كان قويا وان فى استطاعته أن يزلزل الأرض من تحته حتى يحقق له ما يريد أو بعض ما يريد ، كمـا علمتنا ان بلدنا شىء تتكالب الدول على امتلاكه وانهـا شىء يستحق أن نثور لأجله وأن ندافع عنه ، كما علمتنا أن نرغم حاكما على أنيدفع الثمن اذا أراد حلب البقرة.ولكن الأثمن من هذا كله انها دفعت بأقباط مصرلان يظهروا قوميتهم الغافلة ، فيتقدموا الصفوف كى يصرخوا فى اخـوانهم ان الوقت قد حان لأن يفكوا هذا الطلسم عن عيونهم فيسعوا نحو الاستقلال التام بعيدين عن تركيا وغير تركيا ، وان ولاءهم للخليفة أو لأمير المؤمنين لن يغنى عن استقلالهم المفترد شيئا . وان رابطتهم الاسـلامية لا تعنى خضوعهم للأجانب وان كانوا مسلمين . كما لا تعنى عداءهم لاخوانهم فى الوطن وان كانوا مسيحيين فالدين لله والوطن للجميع . وكان الاقبـاط هم الذين حملوا مشعل هذا الرأى فأعلنوه وسعوا دونه رغم ما وجدوه من مواطنيهم من الجحود وسوء الظن ، ورغم ما نالوه من عنت واضطهاد دفـع بعضهم حياته ثمنا له . وما كان الأقبـاط يوما لينكصوا أو يعودوا فهم لم يعرفوا يوما غير التضحية والفداء فى سبيل وطنهم وقوميتهم .

فوطنية المصريين وقوميتهم كانت سببا من الأسباب الكثيرة التى دفعت بهم الى اعتنـــاق المسيحية كمظهر من مظـــــاهر الثورة على الأمبراطورية الرومانية التى سعت الى اهدار قوميتهم (١) واستقلال بلدهم لصالح الجزيرة الايطالية حين أرغموا على جعل بلدهم مزرعة قمح لروما ، واشتغلوا فى الأرض عبيدا لصالح أسيادهم ، اذ وجدوا فى معتقدات الديانة الجديدة وفلسفتها التى تعتقد بوجود مدبر خفى ذى قوة مجهولة قادر على كل شىء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويثوبهم عن عملهم الخـــير بحسن الثواب وينذرهم بالعقاب بنار لا تطفأ حين يخطئون ويأثمون — وجـــدوا فى هـــذه المعتقدات احياء لديانتهم القديمة ومعتقداتهم القديمة المصرية المنبت والمظهر، فجعلوا منها رمزا لمقاومة الحكم الرومانى الذى يمجد الامبراطور ويرفعـــه فوق مرتبة البشر . فكان فلاحو مصر من الوثنيين يخفون المسيحيين الذين يلجأون اليهم هربا من الاضطهاد الذى استشهد فيه الكثيرون (٢) .

ووطنية الاقباط وقوميتهم هى التى دفعت بهم لان يجهـــروا بهـــذه المعتقدات دون رهبة أو خوف أمام قوة الدولة الحاكمة ممثلة فى شـــخص دقلديانوس . وفضلوا أن يضـــحوا على أن ينكروا ديانتهم التى اتخذوها مظهرا لقوميتهم . ولم تكن الاضطهادات المتوالية التى وقعت بهم لتقلل من عنادهم ، بل زادته مقاومة وأحيت روح العنـــاد فيهم (٣) واخيرا انتصر المصريون ممثلين فى ديانتهم الجديدة على الحكم الأجنبى حينما اعترفت الدولة الرومانية بديانتهم ديانة رسمية للدولة .

ولكن هذا الاعتراف كان نذيرا باندماج قوميتهم فى الدولة الرومانية . الأمر الذى يستنكرونه بل يأبونه . ولذا أخـــذت القـــومية المصرية تعـــلن مقاومتها لهذا الحكم الاجنبى فى كل فرصة مكنتها من هذه المقاومة ، فكان عقد المجامع الدينية خير فرصـــة ليملى فيهـــا بطريرك الاسكندرية — يؤازره الشعب — مبادئه على غيره من البطاركة . ويقف بطريرك الاسكندرية ليعلن

---

(١) Copts and Muslims

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٧٤ .

(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٧٤ .

روح القومية المصرية وحوله أبناؤه المصريون ليذودوا عن هذه الروح الحية ممثلة في المبدأ الارثوذكسي ، ولعل ما حدث في جمع نيقية في سنة ٣٢٥ ومقاومة البابا اسكندر وتلميذه اثناسيوس لبدعة اريوس خير مثل لذلك . وحين نفى اثناسيوس الى روما رأى ما عليه هذه المدينة من انحطاط خلقي ومن انتشار للعادات الوثنية فيها فهاله الامر وقام يلقن أهلها درسا في الآداب المسيحية والفضائل المسيحية ويعرض عليهم صورا حية لتلك الفضائل (١) .
وعندما عين الامبراطور تيودوسيوس من يدعى أغريغوريوس الكبادوكي بطريركا على مصر لم يتردد شعب مصر في الثورة عليه وقتله (٢) اذ لم يكن الشعب ينظر الى محاولة تنصيب بطريرك أجنبي عليه الا سعيا نحو صبغ كنيستهم بالصبغة اليونانية (٣) أو البيزنطية الأمر الذي يرفضونه كل الرفض .
وعندما عاد أثناسيوس الى بطريركيته في عام ٣٦٢ سارع الى عقد مجمع مكاني في الاسكندرية ليؤكد قانون الايمان كما أعلنه في مجمع نيقيه بشأن (الابن المساوىء للأب في الجوهر) . كما كتب الى أسقف روما يطلب منه توقيع العقوبات الكنسية على أسقف ميلان نصير الاريوسية . الا نستطيع أن نقول أن هذه المحاولات من اثناسيوس ليست الا تعبيرا عما يجول في خاطره من أن مركز الاسكندرية المختار يؤهلها لأن تتولى رئاسة العالم المسيحي خيرا من كل من القسطنطينية وروما . وكذلك كان نظام الرهبنة في بعض الاوقات مظهرا من مظاهر الثورة على الحكم الروماني . فقد أرهق الرومان المصريين بمختلف الضرائب ومنها ضريبة الرءوس ، حتى ضاق المسيحيون ذرعا ، فلم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الفرار من القرى وترك الأرض الزراعية كوسيلة للامتناع عن الزراعة التي تستولي روما على محصولاتها والامتناع عن دفع الضريبة . فكان الرومان يحاولون انزال غضبهم على من بقى ليدلوهم على مكان الهاربين أو ليجبروهم على دفع ما كان مستحقا عليهم وعلى زملائهم .

وكان الرهبان المصريون خير مثل للروح الوطنية المصرية ، فقد كرس

---

(١) تاريخ البطاركة جـ ١ .
(٢) صور من تاريخ القبط ص ٨٠ .
(٣) Egypt and Egyptian Question p 34

انبا شنودة حياته لمكافحة الفساد الوثنى ممثــلا فى البيزنطيين والرومانيين فحرم على الاجانب جميعا الالتحاق بديره المعروف بالدير الابيض ، وعمــــل على تنقية اللغة القبطية من التأثيرات البيزنطية حتى صارت على يديه لغة وطنية صالحة للكتابة (١) .

وكانت وطنية الأقباط وقوميتهم هى التى دفعت بكيرلس الــكبير فى مجمع افسس سنة ٤٣١ ليدفع هجمات نسطور بطريرك القسطنطينية ليعلن الروح المصرية مرة أخرى ممثلة فى اتحاد الطبيعتين للمسيح (٢) ولعل أخشى ما كان يخشاه بطريرك القسطنطينية هو تغلب كيرلس بطريرك المستعمرة على بطريرك العاصمة خصوصا وقد لقب البطريرك الاول بعد مجمع افسس الثانى بالبطريرك العالمى ، بينما كان الثانى لا يتميز الا بقربه من الامبراطور . هذا فى الوقت الذى خضعت فيه لبطريرك الاسكندرية أجزاء لم تكن خاضعة للدولة الرومانية كاثيوبيا ونجران . علاوة على الخمس مدن الغربية .

وتظهر القومية المصرية والوطنية القبطية أظهر ما تكون فى تحــــدى البطريرك ديسقوروس للأمبراطور فى الشــــئون المدنية ، اذ كان يرفض تنفيذ أوامره وهو يقول : « ان صلتى ببلادى أقوى من صلة الامبراطور بها » ولم يكن يتردد مطلقا فى معارضة كل أمر يتعــارض مع صالح البلاد الدينى والسياسى (٣) .

ولم تلبث هذه الروح القومية التى حافظ عليها قبط مصر أن أثارت غضب الدولة الحاكمة فانضم الامبراطور الى صف بطريرك القسطنطينية ضد قائد روح الثورة ، فعزل البطريرك المصرى ونفاه ، فالتف الشعب حول رئيسه لأنه نظر اليه ممثلا للروح القومية . ولا يمكننا أن نقول ان جميع المصريين قد تعمقوا فى فهم الدين وعرفوا الفرق بين الطبيعة الواحــدة والطبيعتين المندمجتين قبل كل الدهور أو انفصال احداها عن الأخرى . ولكن الذى يمكننا أن نقــوله ان

---

(١) صور من تاريخ القبط (١١٢ — ١٥٠) .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٢ — ١٠٩ .
(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٨٨ .

المصريين نصروا بطريركهم لانه يمثل روح محاولة الدولة الرومانية التهـــام الشخصية المصرية (١) فاذا ما أسرع الامبراطـــور بنعيين بطـــريرك بدلا من البطريرك المنفى رفض الشعب الخضوع له ، وسماه البطـــريرك الملكانى اى الذى يعينه الملك لا الشعب .

ويحفظ لنا التاريخ خلال القرن السادس ـــ الذى سبق الفتح العربى ـــ أنواعا شتى من مقاومة الشعب لمحاولة الامبراطور تنصيب أسقف غريب ولعل المقوقس احد هؤلاء الغرباء الذين حاول الامبراطور فرضهم فرفضهم الشعب . ولم تكن مساعدة القبط للعـــرب فى فتحهم مصر خيانة لوطنهم ووطنيتهم . ولا هى مظهر من مظاهرها . بل فعل ذلك لعله يجـــد تحت الحكم الجـــديد اعترافا بقوميته ولغته . فنجـــده قد عمـــد بمجرد انتهاء الحكم البيزنطى الى الغاء الأســـماء اليونانية لبلادهم وكفورهم واستبدل بهـــا أسماءها القبطية القديمة . بل هجرت الكنيسة اللغة اليونانية فى طقوسها واستبدلت منهـــا لغتهـــا المصرية القديمة بعد أن كتبتها بحروف يونانية وهى ما نسميها حاليـــا باللغة القبطية خطأ على نحو ما ذكرنا . وجاء الحكم العـــربى فأعطى القبط حريتهم الدينية وترك للبطـــريرك المصرى امر تدبير رعاياه ومعاملتهم على الأسس التى تقتضيها ديانتهم . حين أعطى عمرو بن العـــاص البطـــريرك بنيامين مرسوم الامان . ولكنا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقـــول ان هذا الحكم العربى استمر صالحا خالصا أو انقلب الى شر خالص فـــذلك مخالف لطبيعة الأشياء فقد تناب الأمر بين الصلاح والفساد ولكن شيئا هاما لا بد أن نشير اليه ونؤكده وهو أن الفساد أو بمعنى اقرب الى موضوعنا ســـوء حال المسيحيين لم يجر بناء على سياسة عامة للدولة بل كان يصدر بناء على نزعات خاصة لبعض الولاة دون غيرهم . وليس أدل على ذلك من هذه العبارة التى قالها عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وهو المعروف بعد صلاحه وتقواه (الحجاج بالعراق . وأخوه محمد باليمن . وعثمان بن حيـــان بالحجاز . والوليد بالشام وقرة بن شريك فى مصر . امتلأت بلاد الله جورا) (٢) وحين

(١) صفحة من تاريخ القبط ص ١٤٦ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٢٣ .

تولى الخلافة وسأله احد الولاة ان يلزم من يسـلم بالجزية حتى لا ينقص الخـراج أجابه قائلا « لقد بعث الله محمـدا هاديا لا جابيا » ورفض النصيحة .

ولكن المصريين لم يكونوا يترددون فى ابداء سخطهم حين يجدون الفرصة المناسبة . فقد أسرعوا بالانضمام الى العباسيين حين قاموا ورفض أن يعطى الأمان لمروان الثانى حين فر الى مصر يستنجد بأهلهـا اذ وجد اهل الحوف الشرقى قد (سودوا) أى انضموا الى العباسيين (١) كما لم يتردد المصريون اقباطا ومسلمين فى القيـام بثورتهم الـكبرى أيام ابن عون ويزيد بن حاتم منتهزين فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون . وكانت الثورة عنيفة حتى عجـز عيسى بن منصور عن سحقها فاستعان بالأفشين وحضر المأمون بنفسه وأشرف على اجراءات القمع وقتل منهم مقتلة كبيرة (٢) واذا ما جاء الفاطميون أمل المصريون فيهم خيرا فأحسنوا استقبالهم بعد أن كاتبوهم فى فتح مصر وكان الفاطميون أعرف بالجميل من سابقيهم فاعترفوا بالقـومية المصرية بل نقلوا مركزهم الى مصر واتخذوا القـاهرة عاصمة لهم وعاد الى مصر استقلالها . ولم يلبث الفـاطميون أن تمصروا واصبحوا وليس لهم سيد أجنبى يدفعون له خراجا أو جزية أو يدينون له بالسيادة أو ينادون باسمه فى الخطبة أو ينقشون اسمه على السكة وزادوا بأن سمحوا للمسيحيين باقامة شعائرهم الدينية جهرا بل شاركوهم الاحتفال بأعيادهم وتكلم بعضهم القبطية (٣) بل الفوا بها الى جانب العربية (٤) ورغم قيام الحروب الصليبية واتسامها بسمة الدين مدة قرنين من الزمان فان مسيحيى مصر لم تأخذهم النعرة الدينية الكاذبة . بل وقفوا من المسيحيين الأوربيين موقف العداء الصريح . ولم يهبوا معونتهم لهم . فما دامت حكومتهم الوطنية لم تشترك فيها لأن الحرب لم تكن تعنى مصر فى قليل أو كثـير ، وهم لا ينفعلون بالعواطف الدينية الـكاذبة التى أدعاها الصليبيون والتى لم تكن تهدف الى غير الرغبـة فى الاستيلاء على الشرق

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣١٦ .

(٢) لعله يبدو غريبا أن تطلق الحكومة المصرية اسم هـذا الخليفة على شارع من أكبر شوارع القاهرة .

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ص ٨٩ .

(٤) صور من تاريخ القبط ص ١٨٦ — ٢٠٨ .

الغنى . ولم يتحول المسيحيون عن هذا الموقف الا حينما رأوا هذه الحروب وقد اصبحت خطرا مباشرا على بلادهم فهبـــوا للدفاع عنهـــا وتمكنوا مع جميع المصريين من صد هذا الأجنبى الدخيل . ورغم ما نال المسيحيين فى خـــلال العصر المملوكى من اضطهاد بالغ ورغم فساد الحكومة وسوء ادارتهـــا فانهم لم يثوروا لعلمهم ان الوطن سليم بخير لا يخضع لســلطة خارجية ولا يدين بالولاء لقوة اجنبية ، بل وجدوا هذه الدولة قد نقلت الخـلافة الاسلامية الى القاهرة فأصبحت بذلك مصر راسا بعد ان كانت ذيلا ودولة متبوعة بعـــد ان كانت تابعة،ونظروا الى المسألة من وجهها الصحيح فان هذا الاضطهاد كغيره من أوجه الادارة السياسية كان امرا فرديا يصدر عن سلطان بعينه ، فالفردية كانت اظهر ما ميز العصر المملوكى كله . هذا الى ان الاضطهاد كان فى بعض اوقاته حسدا من النجاح الاقتصادى الذى تمتع به المسيحيون (١) . كما أن بعض مراسيم الاضطهاد صدرت تحت تأثير وزير أجنبى دخيل بعيد عن نفهم الروح القومية المصرية (٢) ولذا نظر كثير من المسلمين الى مثل هذه المراسيم نظرة الاستنكار فساعد ذلك على تخلص المسيحيين منهـــا فى سرعة منقطعة النظير ، وتعاون المسيحيون والمسلمون فى استنكارها ونبذ العمل بها فى كثير من الفرص . وجاء الأتراك من الخارج غزاة ليقضوا على مصر المستقلة فلم يجدوا من أهل البلاد أو من الاقباط خاصة المعـــاونة التى لاقاها العرب عند فتحهم البلاد منذ تسعة قرون رغم ما لاقوه من القسوة تحت الحكم المملوكى . ولذا قاسى الأقباط من الحـــكم التركى كما قاسى غيرهم وان كان نصيبهم من مساوىء هذا العهد اكثر من نصيب غيرهم . وعلى ضوء هذا التفسير أخلص بعض الأقباط للحكم الفرنسى . بل أكثر من ذلك حين رأى المعلم يعقوب حنا ان زوال الحكم الفرنسى ضربة لازب تذكر بما سوف تعانيه البلاد ويعانونه هم تحت الحكم التركى القادم فاتجه نظره الى أن يؤمل فى شىء جديد ينحصر فى حياة مصر بعيدة عن كل من الفرنسيين والأتراك بل بعيدة عن كل قوة أخرى

(١) Egypt and The Egyptian Question p - 213

(٢) Ibid p 207

عير الفرنسيين والأتراك . مصر المستقلة الخارجة من كل نفـــوذ أجنبى .
واذا كان المعلم يعقوب حنا وأمثاله قد فكروا فى هذه الناحية التقدمية وتطلعت آمالهم الى هذا الحلم الذى لم يكن مواطنيهم ليتطلعوا اليه مما كان ذلكذنبهم. واذا كان مواطنوهم قد أساءوا بهم الظن وحاولوا التنكيل بهم فيجب انلايكون ذلك موقفنا منهم نحن الذين نفهم الاستقلال ونقدره ، فما كان المعلم يعقوب وزملائه خائنين لبلادهم كما يحلوا لبعض المؤرخين الحاليين أن ينعتوهم ، بل كانوا سابقين لعصرهم وعدلوا تحت ضـــغط الظروف التى وجهتهم هـــذا التوجيه . لقد كان أعظم الاقبـــاط الذين ساعدوا على سحق قوات المماليك والأتراك ، المعلم يعقوب هذا الذى سوف نفرد عنه جزءا مفصلا لمـــا كان من مجهوده العظيم من أثر نحو خلق مشروع يرمى الى استقلال مصر بعيدة عن كل نموذ أجنبى وسعيه المتواصل لأجل نجاح هذا المشروع رغم عدم تقدير مواطنيه له فنعتوه بأقبح النعوت بل حاولوا قتله ، بل قتل جميع الاقباط حين جمعهم فى قلعته التى كانت قائمة فى حارة النصارى بسوق القبيلة فهـــاجمهم حسن بك الجداوى احد كبار المماليك على رأس جند كثيف فلقيهم المعلم يعقوب عند وجه البركة وحاربه يوما كاملا حتى كلت عزيمته وسقط أغلب رجاله قتلى .

وعاودوا الهجوم فى اليوم التالى فلم يكن نصيبهم فيه خيرا من أمسه فكان ذلك سببا فى اثارة غضبه وعودته للمرة الثالثة وحاصر القلعـــة . ففتح المعلم يعقوب أبوابهـــا وأمر فرسانه أن يخترقوا ســـياج الاسلحة بجيادهم فاخترقوها وفشل الحصـــار الذى كاد يؤدى — لو نجح — الى فنـــاء أقباط القاهرة عن بكرة أبيهم (١) ولذا لا نستغرب اذا وجدنا الاقباط قد نظروا الى الحملة الفرنسية القادمة نظرة أمل يرجى ، يخلصهم من هذا الحكم التركى الفاسد ويخلصهم من القومية الاسلامية التى اصطنعتها الخلافة ثم الاتراك العثمانيون من بعدهم من أجل القضاء على القوميات الوطنية للبلاد التىدخلت فى نظامها . فأقبلوا يعينونها بمختلف الوسائل ، فكل مساعدة تقدم للفرنسيين انما هى مسمار فى نعش الاحتلال التركى .

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٢ ص ٤١ .

وعرف الفرنسيون ما كان عليه الاقبــاط من مهارة وكفاءة ، فولوهم المناصب الكبيرة ، فتفرد المعلم فلتاءوس حنا باقليم الغربية ، والمعلم واصف باقليم المنوفية ، والمعلم انطون أبو طاقية باقليم الشرقية ، كما تولى المعــلم جرجس الجوهرى ما يشبه وزارة الداخلية ، والمعــلم ملطى يوسف وزارة العدل ، أو رئيس محكمة القضايا ، والمعلم لطف الله المصرى عضوية مجلس التجــار (١) والمعلم شكر الله جرجس رئيسا لديوان المالية ، كما اشترك فى وضع نظام دقيق لجباية الضرائب لتجمع من الأهالى بالعدل ، فعــــاد ذلك بالخــير العميم على جميع المصريين حيث رفعت عن عاتقهم الضرائب الباهظة التى كانوا يرسفون فى أغلالها (٢) بل انضم الى القوة المحــــاربة الفرنسية كثير من الأقباط مثل المعــــــلم مكاريوس حنين ، والمعلم غبريال سيداروس ، والقس حنا راعى كنيسة منفلوط ، ووصل كل منهم الى رتبة كولونيل ، ثم عبد الله منصور الذى كان من أكبر أعوان ابراهيم بك فحصل على رتبة قومندان . وعين نابليون المعلم الياس بقطر الذى كان راسخ القدم فى الفرنسية سكرتيرا خاصا له ثم عضوا بالمجمع العلمى (٣) .

ولذا كان المعلم يعقوب حنــا أول من استيقظ من المصريين واستغل الفرنسيين أحسن استغلال كى يضمن بمساعدتهم استقلال بلده . وجــدير بمصر المعاصرة أن تعرف لهذا المصرى مكانته فتقيم له تمثالا من حجر بل من الذهب فى أوسع ميادين القاهرة لتكتب على قاعدته (أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث) وسوف نرى فى حياة هذا المعلم الذى نبع من بين صفوف الشعب وتثقف بثقافة الشعب سلسلة متواصلة من الامجاد التى تعلو مع الزمن . مما يحق للأقباط أن يفخروا به لمئات من السنين قادمة .

ولد المعلم يعقوب فى ملوى سنة ١٧٤٥ من اسرة قبطية متوســــطة الحال . وتلقى علومه فى أحد الكتاتيب القبطيــة التى كانت شائعة فى ذلك

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ١٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .
(٣) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٦ .

العصر ، ولكنه أكب على الدرس بنفسه حتى تعلم الفرنسية الى حد التبرير . واشتهر بالتفوق فى العلوم الحسابية ، حتى اذا دخل خدمة احد المماليك فى اقليم الفيوم — وهو سليمان بك — تعلم الفروسية واللعب بالسيف وساعده على ذلك ما حباه الله به من قوة فى الجسم . وكانت خبرته المالية وما أولاه اياه سيده سليمان بك من ثقة سببا فى حيازته ثروة مكنته من اقتناء الخدم والحشم ثم من بناء قلعة على راس حارة القبيلة عند حارة النصارى أقام على حراستها عددا من الجند شاكى السلاح .

ورأى المعلم يعقوب فى الفرنسيين فرصة لخدمة بلاده لم يتردد فى اقتناصها ، فانضم الى حملة ديزيه التى أرسلت لمطاردة فلول المماليك فى الصعيد . فساعد بشجاعته على القضاء على أوكارهم كما حدث فى بلدة العتامنة من اعمال محافظة أسيوط حين ظل ينازل المماليك مخاطرا بحياته حتى لحق به الجنرال ديزيه فلم يملك سوى أن يهنئه على ما بذله من جهد . وقدم له سيفا فخريا تذكاريا لبسالته وكان ذلك عند بلدة بنى سند بحضور كبار القواد والضباط وسائر الجنود ، ونقشت على السيف عبارة (معركة عين القوصية) ويقال ان هذا السيف لا يزال محفوظا لدى من تبقى من أفراد أسرته . وحبذا لو تكرموا فقدموه هدية الى المتحف القبطى خوفا من ضياعه. ان كان ذلك حقيقيا .

وفى خلال عمله نجح المعلم يعقوب فى منع استعمال العنف فى جباية الضرائب بل نجح فى حمل الفرنسيين على احترام المصريين وعدم أخذهم كرهائن من أجل المال . كما كان يفعل المماليك فى حروبهم ، وكما عمد الفرنسيون فى أول أمرهم . فقد حدث أن تولى الجنرال بليار الاشراف على جباية الضرائب فتأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن موعد تسديدها فقبض على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد . فاذا ما قدم المعلم يعقوب الى بنى سويف بصحبة الجنرال ديزيه وعلم بالأمر أظهر امتعاضه لذلك ، واحتج على تصرف بليار ونصح باستعمال الأناة فى الجباية والكف عن ارهاق الفلاحين واخلاء سبيل المشايخ فأقره الفرنسيون على رأيه وعملوا

بنصيحته (١) .

ولم يملك الجنرال ديزيه ازاء الخدمات الجليلة التى قدمها المعلم يعقوب الا الاشادة بخدماته حين جهز للحملة كل ما يلزمها وأمن طرق مواصلاتها ونظم حركاتها وجعل القائد على اتصال دائم بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل . واضطلع بمهام الشئون المالية والادارية فى جميع أرجاء الوجه القبلى من حيث توزيع الضرائب وتنظيم جبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة والانظمة القديمة التى كانت سائدة فى البلاد (٢) .

ويروى الجبرتى ان يعقوب كان يتمتع بسلطان مطلق فى عهد الجنرال كليبر ، وبالرغم مما خوله هذا السلطان من سلطات استعمل السياسة والحكمة فى جباية الغرامة التى فرضها كليبر على القاهرة عقب ثورة القاهرة الثانية (٣) .

وعندما قتل كليبر وتولى مينو قيادة الجيش الفرنسى أراد أن يمالىء اهل مصر فأعلن اسلامه وتزوج بمسلمة . بل أصدر امره بوقف الأقباط من دواوين الحكومة (٤) . ولكنه حينما أراد أن ينظم ايرادات الدولة عين لذلك المسيو استيف مديرا عاما للايرادات فوجد هذا الأخير نفسه فى حاجة ماسة الى خبرة المعلم يعقوب فعينه مستشارا للشئون المالية ، ولما تبين له ان ايرادات الدولة لا تكفى لسد حاجة الجيش والمشروعات العامة فاتح المعلم يعقوب فى ضرورة عقد قرض بمليون من الفرنكات . ورغم سوء حالة الفرنسيين فى مصر وظهور جميع الدلائل على سرعة رحيلهم فانه اتفق مع ثلاثة من زملائه وهم المعلم جرجس الجوهرى ، والمعلم انطون أبو طاقية والمعلم ملطى . على تقديمها متضامنين فقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة فى دائرة اختصاصاتهم الادارية وأعطاهم استيف بقيمتها سندات على الخزانة الفرنسية . ولم يسترد أحد

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٥ .
(٢) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٠٧ .
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ .

منهم ما دفعه بل ظل المعلم انطون يطالب بماله حتى أيام نابليون الثالث الذى لم يعترف بهذا الدين . وهذه الخدمات الجليلة التى قدمها المعلم يعقوب لمواطنيه لا تعد شيئا مذكورا بجانب ما قام به بعد ذلك . فقد اتصل بالجنرال كليبر ووقف منه على سوء حال الفرنسيين فى مصر وعرف رأيه فى وجوب جلائهم عنها . فصور له ان احسن قوة تستطيع فرنسا ان تستند اليها هى جيش وطنى مصرى تقوم فرنسا بتسليحه على أن يكون ذلك على نفقة المصريين أنفسهم .

فاقتنع كليبر بالفكرة واذن له فى تنفيذها (١) وقد فعل المعلم يعقوب ذلك لانه كان يعلم انه يوم يجد الجد ويخرج الفرنسيون ، لابد أن تكون هناك قوة مصرية تستطيع أن تملى ارادتها على كل من المماليك والأتراك . وأن مصر المحرومة من الجيش الوطنى لن تستطيع ان تؤثر فى مجريات الامور وانها سوف تكون كالشاة التى يتداولها الجزارون ليرى كل منهم نفسه أولى بذبحها ، فجمع اكثر من الفى شاب من أهل الصعيد ، أوكل كليبر أمر تدريبهم على الحركات الحربية والنظم العسكرية الى ضباط اختارهم من الفرنسيين ، فأظهر جنود هذه الفرقة من ضروب الشجاعة والبسالة ما يشرف المصريين ، وتولى المعلم يعقوب قيادتهم بعد أن جهزهم بالسلاح والذخيرة على نفقته الخاصة (٢) **فكان أول جيش مصرى خالص منذ أيام الاسكندر .**

وكان آخر مشروعاته هذا المشروع الذى كتب له الخلود فى سجل التاريخ وهو مشروع تأليف وفد مصرى سافر مع الحملة الى أوروبا **ليقنع حكومتى انجلترا وفرنسا بالموافقة على استقلال مصر** بعيدة عن كل نفوذ أجنبى . فقد رأى ان فرنسا قد ارغمت على ترك مصر ، وان الذى أرغمها على ذلك لم يكن تركيا صاحبة السيادة عليها بل انجلترا . فوق أنهما (انجلترا وفرنسا) صاحبتا أكبر قوة فى العالم . وان تركيا لا تعدو رجلا مريضا تعامله كل دولة وفق مصالحها . كما عرف ان انجلترا لو ارادت أن تحتل مصر لما وجدت من يعارضها . ويرغمها على الجلاء . فأيقن أن

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢١ .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٣٠٧ .

مصر المستقلة — بضمان كل من انجلترا وفرنسا — اقدر على خدمة العالم والسلام من مصر المحتلة الضعيفة . (ولمصر من مجدها وماضيها السالف ثم من مواردها الحالية وكذلك من نشاط ابنائها مسلمين واقباط ما يؤهلهــا لحمل هذه الأمانة) . ولذا لم يتردد فى القيام بهذه المهمة رغم الظـــلام الذى كان يحوطهـا والشك الذى يعتورها . فبارح مصر على رأس وفــد قبطى ليسعى لهذا الغــرض النبيل ولكن القــدر لم يمهله وكان أقسى على مصر من قسوته على المعلم يعقوب نفسه فمات الرجل فى اليوم الرابع عشر من رحيله . وفشل مشروعه . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن ندرس هذا المشروع وما قام به الرجل خلال رحلته القصيرة من جهـود فى سبيل اقناع من يراه مسئولا من أجل نجاح مشروعه .

وقبل أن يرحل الوفد أرسل قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتابا الى الجنرال بليار يرجوه فيه بالحاح أن يقنع يعقوب بالبقاء فى مصر للانتفاع بخدماته . ولكنه اعتذر قائلا عبارته الرائعة (ان مهمتى لم تنته بعد) .

قابل المعلم يعقوب قائد البارجة البريطانية التى رحل عليها واخــذ يحدثه عن مستقبل بلاده وكان حديثا سريا . ولكن القائد كتب عنه الى اللورد الأول للبحرية البريطانية يقول : ان المعلم يعقوب حدثه — بعد أن أخذ منه ميثاقا بأن لا يستعمل هو أو الحكومة البريطانية هذه المعلومات فيما يؤذى بلاده — عن رغبته فى قيـــام حكومة مستقلة فى مصر (١) ووسيلته فى ذلك السعى لدى الحكومات الاوربية وخصوصا انجلترا وفرنسا بعد أن تبين لهما استحالة استعمارهما لمصر . وليس من شك فى أن هذا الاستقلال سوف يعيــد لمصر رخاءها ، ولا بد أن انجلترا بحكم مركزها فى الهند سوف تهتم كثيرا بالمتاجرة مع مصر وما حولـا من المناطق فتستفيد بذلك اكبر فائدة لما اختصت بها مصر من المزايا .

أما عن شكل هذه الحكومة فهو لم يفكر فيها بشكل تفصيلى سوى انها

---

(١) مذكرة القائد جوزيف امنديس الى اميرال البحرية البريطانية فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٠١ (صور من تاريخ القبط ص ٣١٥) .

ستكون عادلة حازمة وطنية ترفـه عن عيش الناس وتزيد فى كسبهم فتحترم وتطاع وتحب .

اما عن دفاع هذه الحكومة عن استقلال البلاد اذا اعتدى عليها معتد ، فانه لم يكن يتصور وجود هذه الدولة المعتدية سوى تركيا والمماليك (١) وفى هـذه الحالة ستقف الدول الغربية فى سبيلها وتحظر عليهما مس هذا الاستقلال الذى سيكون فى ضمانتهما جميعا الى أن يحين الوقت الذى يتم فيه تنظيم الجيش الوطنى وجعله قادرا بحيث يستطيع رد الاعتداء مهما كان مصدره .

وخطة الوفد المصرى فى ذلك أن يسعى فى أوروبا كى تكون فرنسا هى البادئة بعرض المقترحات الأولى الخاصة بالاستقلال على انجلترا ، بينما يكون الوفد من ناحيته قد سعى ونجح فى اقناع انجلترا بمزايا هذا المشروع وبذلك لا ينعرض المشروع لرفض الحكومة البريطانية له تحت تأثير خوف الحكومة البريطانية من كل ما هو فرنسى .

ولم يحل موت المعلم يعقوب دون مواصلة الوفد لمساعيه . فما كاد يصل الى مرسيليا حتى بادر نمر افنـدى سكرتير الوفد فكتب الى نابليون (اذا تنازلت من أجل مجدك . ولفائدة الجمهورية السياسى . فمددت يد المساعدة الىالمصريين واحسنت استقبال وكلائهم فى باريس فاعلم ان مصر المستقلة سنعوض عليك خسارتك فى فقدها مائة مرة) .

وقد استند نمر افنـدى فى رسالته هذه الى نابليون فى حق مصر فى الاستقلال على ما كان لهـا فى سالف الأيام من عز تام (عندما كانت فرنسا لا يظهر منهـا للنـاظر الا جليد وغابات كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على مشرعى الاغريق) وكانت هذه الرسالة مؤرخة فى سبتمبر سنة ١٨٠١ .

---

(١) كانت هذه النظـرة صحيحة اذ لم تكن هناك دولة قوية بعد ذلك الا امبراطورية النمسا والمجر التى لم تفكر يوما فى توسيع رقعتها خارج أوروبا .

كما كتب نمر أفندى رسالة ثانية الى تاليران وزير الخارجية الفرنسية يقول (ان فرنسا قد خسرت خسارة عظيمة فى الشرق . فلم لا تتخذ من مهمة هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته . فانها تستطيع — مستندة الى صداقة مصر المستقلة — أن تمد نفوذها الأدبى نحو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول جلاؤكم عن مصر من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية) .

ومن ذلك تدرك ان القبط أثبتوا أنهم فى هذه الآونة من تاريخهم كما كانوا دائما جديرين بشرف الانتساب الى مصر . فقد كان فى وسع المعلم يعقوب ومن خرج معه من الاقباط أن يظلوا فى مصر ليتمتعوا بالنفوذ والجاه لا سيما وقد طلب القبطان حسن باشا (الاستفادة من خدماتهم) أو على الاقل كان المعلم يعقوب يستطيع أن يمكث معتمدا على الفيلق القبطى ليصبح قوة محركة فى مستقبل البلاد السياسى ولكنه لم يفعل لأنه عرف انه مهما كان الانجاه الذى سيتخذه بعد ذلك فهو لن يكون الا فى نطاق الخضوع للأتراك . وهو النظام الذى قال عنه قبل ذلك (ان أى نوع من انواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم نابليون بونابرت) (١) .

وقد آثر المعلم يعقوب أن يخرج وهو لا يعرف ماذا ينتظره فى الخارج ليسعى نحو هدف يراه اشرف من اى هدف آخر . فهو أشرف من أن يصبح صاحب جاه فى مصر وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة فى توجيه تاريخ بلاده فى ظل الحكم العثمانى وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة فى تحسين احوال مواطنيه من الأقباط .

ولم يشأ قائد السفينة أن يقذف بجثة المعلم يعقوب الى البحر كما جرت العادة بل احتفظ بها حتى وصلت الى مارسيليا وهناك احتفلت الحكومة الفرنسية بتشييعها احتفالا عسكريا مهيبا ، اشترك فيه جنود الحملة الفرنسية والفيلق القبطى ثم دفن فى مقبرة القديس بطرس بمارسيليا تحت

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣١١ .

ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب المقبرة ليعيد ذكرى شاطىء النيل .

وبذلك خسر الاقباط ، بل خسرت مصر كلهـا بطلا سبق عصره بقرن من الزمان على الأقل .

وقبل أن نختتم هذا الباب يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند المعلم يعقوب الذى لقى من بعض المؤرخين المصريين جزاء مغايرا ، لم يتورع بعضهم عن اتهامه بتهمة الخيانة لقاء مساعدته للفرنسيين فى حروبهم ضد المماليك .

لقد حارب المعلم يعقوب فى صف الفرنسيين وهو يعلم ان كل انتصار يحرزه هؤلاء انما هو مسمار يدق فى نفس السيادة التركية الذى أذاق المصريين عامة والأقباط خاصة كأس الذل وقطع الصلة ببلادهم عن العالم الخارجى فأصبحت مصر بذلك منذ القرن السادس عشر الميلادى — وكأنها قد تأخرت عن الركب العالمى عشرين قرنا أو يزيد .

هذا الى أنه يحارب الفرنسيين وهو يعلم أنه يحارب فى صف العلم — وقد رأى نظامهم الحربى وتقدمه — ضد الجهل والتأخر بينما كان غيره يحارب الفرنسيين مدافعا عن الاستعمار التركى أى أن كلا منهما كان يحارب فى صف الاستعمار الاجنبى لبلاده فلماذا ينعت المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لأنه يؤيد الاستعمار الفرنسى ولا ينعت الآخرون بنفس التهمة لانهم يؤيدون الاستعمار التركى . وهل الاستعمار التركى أفضل من الاستعمار الفرنسى ؟ ولماذا يعطف المؤرخ الحديث على موقف الأقباط حين ساعدوا الفتح العربى ويعلله بأن الأقباط قد ذاقوا الذل تحت الحكم البيزنطى وأرادوا الترحيب بالعرب منقذيهم ولا يعطف على هؤلاء الذين ساعدوا الفرنسيين لا سيما والأقباط قد ذاقوا تحت الحكم التركى ما هو أمر من الذل ؟ فهل مساعدة العرب الفاتحين محمدة ومساعدة الفرنسيين الفاتحين مذمة ؟ .

واذا كان المعلم يعقوب قد كون الفيلق القبطى وجعله تحت القيادة الفرنسية فهو لم يفعل ذلك الا فى أيام كليبر وكلنا يعلم ان كليبر كان معارضا

للحملة الفرنسية على مصر مرحبا بالجلاء عنهـا . فما كاد يتسلم القيادة بعد سفر نابليون حتى بادر بفتح المفاوضات مع البريطانيين (القوة الحقيقية المناهضة للفرنسيين) من اجل الجلاء عن مصر وكأن المعلم يعقوب لم يبدأ فى تكوين الفيلق القبطى الا حين علم ان جلاء الفرنسيين أمر لا شك فيه ، وأراد أن يجعل المصريين قوة تستطيع أن تلعب دورا على مسرح الحوادث المصرية ولا يترك الأمر بين يدى الأتراك والمماليك يدبرونه كيف يشاءون وهو موقف كله شجاعة وبعد نظر حتى اذا فكر فى الامر بعد ذلك وجد السعى فى سبيل استقلال مصر بعيدا عن كل من تركيـا وانجلترا وفرنسا غرضا أسمى من كل شىء . وفى نظرى ان رمى المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لا ينم الا عن قصر نظر وسوء نية .

الباب الثالث

عصر محمد على

جلا الفرنسيون عن مصر فظن المماليك أنها كانت سحابة صيف وانقشعت تعود بعدها الأحوال الى ما كانت عليه ويعودون الى سابق سلطانهم . كما ظنها الاتراك فرصة العمر قد أتاحها الفرنسيون للتخلص من المماليك الذين فشلوا فى الدفاع عن مصر وحمايتها ضد التدخل الأجنبى . ولذا كانت الأوامر التى حملها الوالى الاول حسن باشا قبطان صريحة فى وجوب التخلص من المماليك مهما كان الثمن ومهما كانت الوسائل التى يتبعها (١) .

ولذا ظهر منذ اللحظة الاولى أن هناك صراعا سوف ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة (٢) ، فمن من السيدين يركب هذه المطية الذلول .

وبدا أيضا منذ اللحظة الاولى ان تركيا لم تستفد من دروسها السابقة ، فقد وصل الوالى الجديد مفلسا يستند على شراذم من فرق ثائرة لم نتسلم مرتباتها لعدة شهور سابقة (٣) فامتلأت البلاد بالفرق المختلفة من أتراك وولاة الى مماليك الى أرناءود . ولكل منهم قائده الذى لا يخضع للوالى ، فعاثت كل هذه الطوائف فى البلاد فسادا ، وظلت البلاد أربع سنين مسرحا لنهب متواصل من طوائف الجند المختلفة ، كان الفلاحون والتجار ضحيته . ولم يراع هؤلاء الجند فى نهبهم أو صراعهم مع بعضهم قاعدة واحدة من قواعد الخلق أو الانسانية ، فكثرت ثوراتهم على الولاة من أجل المرتبات المتأخرة (٤) ، وكثر طلب الولاة للأموال مقدما لأكثر من سنة ، وكان

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٢ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٤١ .
(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥٨ و ٢٦١ .

نصيب الاقباط من هذه المظالم كثيرا من أجل ما كان يشاع عن ثرائهم (١) .

ومن الطبيعى أن لا يسلم المماليك البلاد لقمة سائغة للأتراك اذ كانوا يعتقدون أنها بلادهم التى أعطاها الله لهم ، والأتراك مغتصبون ، ولذا كان صراعهم من أجل الاحتفاظ بالسلطة مريرا قاسيا وقعت نتيجته على رؤوس المصريين . انظر الى الجبرتى وهو يصف كيفية صراع المماليك من أجـــل الاحتفاظ بسلطتهم فيقول :

فلم ينجاسروا على الاقدام عليهم (الأتراك) من الطريق . بل دخلوا البيوت التى فى صفهم ونقبوا من بيت الى آخر حتى انتهوا الى أول منزل من مساكنهم ، فنقبوا البيت الذى يسكن فيه الشيخ محمد سعد البكرى ونفذوا منه الى المنزل الذى يجاوره ثم الى بيت على اغا الشعراوى ثم الى بيت سيدى محمد واخيه سيدى محمود المعروف بأبى دفية الملاصق لسكن طائفة من الأرنؤود وعبثوا فى الدور وأزعجوا أهلها بقبيح أفعالهم فانهم عنـــدما يدخلون أول بيت يصعدون الى الحريم بصورة منكرة من غير دستور ولا استئذان وينقبون من مساكن الحريم العليا فيهدمون الحائط ويدخلون الى محل حريم الدار الاخرى وتصعد طائفة منهم الى السطح وهم يرمون بالبنادق فى الهواء فى حال مشيهم وسيرهم . وهكذا طفقت العساكر تنهب الامتعة والثياب ويأسرون الصناديق ويأخذون ما فيها ويأكلون ما فى القدور من الاطعمة فى نهار رمضان من غير احتشام (٢) .

ومن وراء هاتين القوتين ظهرت شخصية محمد على وقد رأى بوادر هذا الصراع فعول على أن يستفيد منه وكانت وسيلته فى ذلك المشـــــايخ الذين وقعوا ضحية خداعه لهم ، فى وسط هـــذه التيارات المتضاربة وقف الشعب المصرى الأعزل لا يملك من نفسه نفعا ولا ضرا ينتظر الرابح منها ليكون له طعاما شهيا .

وبدأت الحرب مريرة قاسية قاسى منهـــا الشعب ما ليس بالقليل من

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٣١٤ و ٣٢٠ و ٣٢٧ .
(٢) الجبرتى جـ ٤ ص ٧٦ .

المصائب والمحن وانتهت بفوز محمد على فى سنة ١٨٠٦ بين رضاء المشايخ الذين اقتنعوا انفسهم بأنهم هم الذين نصبوه وبين سخط الباب العالى الذى افلت منه هذا الوالى دون أن يدفع الثمن وترقبت انجلترا اللحظة الحاسمة لتنقض .

وبدأ محمد على سلسلة مشروعاته الضخمة التى ترمى الى خلق دولة مصرية ، ذات كيان سياسى مستقل . وكان أساس مشروعاته هو الاصلاح الزراعى الذى نستطيع أن نقول فى نقده شيئا كبيرا ، ولكننا لا ننكر فى النهاية أنه أفاد مصر فائدة اقتصادية هائلة .

وجائت مع هذا سلسلة مشروعاته الحربية سواء كانت مدافعة أو مهاجمة . وتعتمد فى نفس الوقت على طاقة انتاجية كافية .

وقد اشترك جميع أبناء الأمة فى جميع الميادين ، سواء ميدان العمل فى الحقل أو المصنع أو الادارة ، وبذلك وضع مبدأ المساواة وضعا عمليا للمرة الأولى ، فلم تفرض ضرائب خاصة على الأقباط ، ولا حرم الاقباط من شرف الخدمة فى ميدان من الميادين ، وبذلك ثبت للعالم كله ان الأمة المصرية لا تكون من عناصر ممتزجة بل تتكون من كل واحد كما يتكون الهواء . ان حرم أحد عناصره لم يعد هواء يحمل الاسم الذى خلقه الله ليفى أغراضه المختلفة .

وقد ربحت مصر فى هذا العهد ان استيقظت فى أبنائها الروح الحربية التى حرص الحكام المتوالون طوال القرون المختلفة على اعدامها ، فقد عمل الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك على عدم بعث هذا المارد مخافة أن يسبب لهم من المشاكل ما هم فى غنى عنه ، وحرصوا على أن يعطوا هذا العمل أسماء مختلفة مثل توفير الطاقة للانتاج ، أو عدم حرمان الأرض من اليد العاملة ، وهى حيلة ان جازت على المصريين فى بعض العصور فآمنوا بها واستكانوا اليها ، الا أن هذه الفترة من التاريخ اثبتت فسادها بطريقة عملية بعد أن امتد نشاط المصريين الى الحرب والى الانتاج الزراعى والصناعى دون أن يتأثر احداها بالآخر ، بل ساعد كل منهما الآخر وعملت كلها متعاونة كعجلات آلة واحدة . وفى خلال هذه الفترة من بداية القرن التاسع عشر فتحت نوافذ

مصر الى العالم الخارجي فلم تعد تعاني العزلة التى فرضها عليها حكامها السابقون . بدافع من مصالحهم الخاصة ، بل أصبحت مصلحتها تقتضى منها أن تتصل بهذا العالم وتستفيد منه وكان مظهر هذا الاتصال هذه البعثات العديدة التى أرسلت الى الخارج لتتعلم فى مدارسه وتستفيد من خبرته . حتى اذا عادوا أصبحوا مصدر الانتاج الضخم المتعدد النواحى . وكان مظهر هذا الإتصال أيضا هذا العدد الوافر من الأجانب الذى قدم مصر ليساهم فى نهضتها ، وليقدم نتاج خبرته ليدعم بها هذه النهضة الحديثة .

وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذه الحركة القومية التى أدت الى ترجمة عدد كبير من الكتب الفنية وغير الفنية الى العربية ليستفيد من نشرها أكبر عدد ممكن ، وبذلك رخصت المعرفة وسهل العلم على كل راغب .

وفى هذه الفترة من التاريخ ربحت مصر ثقة الأجانب بالمصريين كشعب قوى منتج قادر ، وكانت نتيجة هذه الثقة هذه العقود التجارية الطويلة الأجل التى ابرمها التجار الأجانب مع حكومة البلاد لأجل استيراد منتجاتها ومبادلتها بمصنوعاتها . وكانت نتيجة هذه الثقة أيضا هذه المشروعات التى عرضتها الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية من أجل القيام بأعمال مشتركة ، كما فعلت فرنسا حين عرضت مشروع القيام بحملة على الجزائر من اجل القضاء على القرصنة فى البحر المتوسط ، واقامة حكومة ثابتة وطيدة فى هذه البلاد على غرار الحكومة التى قامت فى مصر . وذهبت الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل الى حد اغراء الحكومة المصرية بالتنازل عن جزء من الأسطول الفرنسى نظير القيام بهذه الحملة المصرية . وكان مظهر الثقة هذه الكتب التى أرسلتها الغرفة التجارية الهندية الى الحكومة المصرية نشكرها من أجل الجهود التى بذلتها لصيانة طريق التجارة الهندية ، وهذه المشروعات التى عرض على الحكومة المصرية القيام بها من أجل شق قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط . ثم رفض الحكومة لهذه المشروعات تجنبا لما تجره على البلاد من مضار لا سبيل الى دفعها .

وربحت مصر ما هو أثمن من هذا كله . ربحت ارتفاع الروح المعنوية للمصريين ، فقد عرفوا أنهم أمة لا تقل عن غيرها من الأمم اذا أرادت فعلت ، وأنهم قادرون على أن يفعلوا وأن يفعلوا كثيرا اذا أتيحت لهم الفرصة ،

ووجدوا القيادة الرشيدة التى تقودهم نحو الانتاج ونحو المجد ، ولم تعــد روح الاستكانة التى تفشت فيهم منذ بداية عهــد المماليك تجد مكانها فى نفوسهم ، ولم يعد الأجنبى يستطيع التسلط عليهم . وقد أثبتت الحوادث القادمة فى كثير من الفرص دبيب هذه الروح وقوتهــا وروح الثقة التى وقفت فى وجه المماليك تحول دون تسلطهم على البلاد كمــا وقفت فى وجه خسرو وخورشيد تحول دون استبدادهما ، كما وقفت فى وجه السلطان تطالب بحقها فى تعيين واليها الذى يختاره الشعب بارادته الحرة . لا الذى يختاره لها السلطان . وروح الثقة هذه التى دفعت الشعب المصرى الى مقاومة نزول البريطانيين فى سنة ١٨٠٧ رغم قصور اسلحته ، بل التى اجلت البريطانيين عن رشيد واعادت الثقــة الى واليهــا فبادر بالمقاومة بعد أن فكر فى الاستسلام .

وربحت مصر أيضــا ان أثبت المصريون قــدرتهم واستعدادهم على التعلم وأهليتهم للعلم والمعرفة ، فلم يعد الشعب المصرى هذه الجمهرة من الفلاحين التى تزاول حرفتها عن تقاليد ورثتها لا تستطيع تغييرها ، ولا هذه الفئة الجاهلة التى تمارس علمها الموروث عن تعصب للقديم . بل هو هذا الشعب الواعى الذى يحتفظ بقديمه ولكنه يتطلع الى كل حديث فيتعلمه ويستفيد منه . واذا كانت روح الجمود قد تفشت حتى أصبحت لازمة من لوازمه فلم يكن ذلك الا عملا خبيثا أراد الاحتلال الأجنبى أن يفرضه ليستفيد منه . واذا ما وجد الفرصة السانحة نفضها عنه وأسرع ليأخذ مكانه فى موكب العلم والعرفان .

فلا نستطيع اذن أن نسمى ما تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تطورا بل كان فى الحقيقة ثورة قام بها الشعب المصرى ليعوض ما فاته من نوم طويل عميق .

حقيقة ان مصر لم تنل نتيجة لهذه الجهــود استقلالها أو شــخصيتها السياسية الكاملة ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة قصور من أهلهــا أو عــدم كفاية مواردها لاكتمال هذه الشخصية ، بل كان نتيجة للتدخل الاجنبى الذى وجد مصلحته فى عدم تمكين المصريين من القيام بهذه الخطوة . فقد شاءت انجلترا ان تجد صالحها فى بقاء مصر ضمن الامبراطورية العثمانية ما دامت متسلطة على هذا الرجل المريض ، الذى يمكنهــا من تنفيذ جميع مآربهــا .

وكانت فرنسا تشايع مصر بعض الشيء ، الا أنها اضطرت تحت ضغط ظروفها الداخلية وخضوع الحكومة الفرنسية للحكومة البريطانية فى أن تزيد ضغطها على مصر . أما روسيا فقد كانت سياستها تتجه خلال هذه الفترة الى محاولة تحطيم تركيا لوراثتها . وان لم تتح لها هذه الوراثة الكاملة ، فلا أقل من أن تقتسم أملاكها مع من يعنيهم الامر ، ولكنها كانت تفضل دائما أن تكون هى المحطمة لها فيكون لها وحدها حق وراثتها . أما اذا جاء هذا التحطيم على يد غير يدها فلن يكون لها فى الأمر ناقة ولا جمل ، ولذا رأت من الأفضل لها بقاء السلطان الضعيف الذى قد يمكنها الزمن من اغتيال أملاكه من أن يستبد به آخر قوى يفوت عليها أغراضها .

وكانت وسيلة الروسيا فى هذا التحطيم ادعاء حماية غير المسلمين من رعايا تركيا وعلى الأخص الأرثوذكس منهم وهم سكان شبه جزيرة البلقان وتحرضهم على الثورة وطلب الاستقلال . فكان ان عقد مؤتمر لندن ، ووجد السلطان العثمانى فى قراراته البعيدة عن العدل ما يوافق أغراضه .
فكان ان أرغمت مصر على الرضى بموضع التابع لتركيا تبعية ضمنتها الدول الأوربية التى اشتركت فى هذا المؤتمر (١) ومنذ هذا الوقت أصبحت تبعية مصر للسلطان . او بمعنى اصح سيادة السلطان على مصر . أو سعى مصر لتغيير هذه السيادة الى اى شكل آخر مسألة دولية تدعو الى تدخل الدول .

وهنا نستطيع أن نسأل ماذا كان موقف الأقباط من هذا كله وما هو دورهم الايجابى أو السلبى فيما حدث من الحوادث وما ترتب عليها من نتائج .

أراد الأتراك أن يجمعوا القلوب حولهم استعدادا لمعركتهم القادمة مع المماليك ، فأصدروا أمرهم أن لا يتعرض أحد لأعيان القبط (٢) ولما كانوا فى حاجة الى المال قربوا اليهم المعلم جرجس الجوهرى فعاد اليه احترامه وشيء كثير من نفوذه وفى ذلك يقول الجبرتى « وكذلك عند مجيء الوزير

---

(١) وفاق لندن المبرم بين السلطان من جهة وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا من جهة أخرى فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ .
(٢) السنكسار ١٢ بشنس والجبرتى جـ ٣ ص ٢٠٠ .

والعثمانيين قدموه واجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندى ورايته يجلس بجانب محمد خسرو باشا وبجانب شريف افندى الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان ويراعون جانبه ويشاورونه فى الأمور » .

وكان المعلم جرجس وطنيا صحيحا لا يفرق بين أبناء الأمة فى معاملة لانهم جميعا أبناء وطن واحد وفى ذلك يقول الجبرتى « كان عظيم النفس . يعطى العطايا . ويفرق على الأعيان ، عند قدوم شهر رمضان ، الشموع والعسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب وكان يقف بأبوابه الحجاب والخدم » (١) .

ولكن كثيرين رفعوا شكاياتهم الى الأتراك عن ظلم وقع عليهم أيام الاحتلال الفرنسى وعزوا هذا الظلم الى المعلم يعقوب ، فسرعان ما حقق فى الأمر وأثبت التحقيق عكس ما ظنوا وفى ذلك يقول الجبرتى أيضا « انه ظهر لمحمد مرق الذى تولى مصر بعد خروج الفرنسيين ان الظالم الحقيقى فى الجباية لم يكن المعلم يعقوب بل كان مصطفى الطاراتى مقدم القائد المذكور فقطع رأسه بين المفارق فى باب الشعرية » . ولكن لم تلبث الأحوال ان اضطربت أيام طاهر باشا وعجز عن حفظ الامن وعاثت جنوده فى الارض فسادا فقبضوا على المعلم ملطى وقطعوا رأسه . ولم يكن المعلم ملطى وحده الذى فعل به ذلك بل شاركه كثير من المواطنين مسلمين واقباطا ما داموا لا يملكون ا يطمع فيه ..

وفى سنة ١٨٠٦ تمكن محمد على من أن يقبض على السلطة وكان فى حاجة الى المال فقرب اليه المعلم جرجس فعاونه هذا أحسن معاونة ، وعول الرجل على أن يستفيد من جميع عناصر الأمة فقد كان الرجل بعيد النظر وعرف ما للأقباط من مهارة لا يستغنى عنها ، وكفاءة لا تنكر ووطنية تدعوهم الى الاخلاص فى العمل فأحلهم من نظامه مكانا مرموقا وأول من يشير اليه هو المعلم رزق أغا الذى كان اليد اليمنى لعلى بك الكبير وتولى ادارة الجمارك

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ١٣١ .

، سنة ١٧٦٨ حين جاء الى مصر المستكشف الاسكتلندى جيمس بروس يبغى البحث عن منابع النيل فأصدر المعلم رزق امرا بعدم التعــرض له وجهــزه بكتاب من البطريرك الى ملك اتيوبيا واذا ما استهل على بك الأمر عينــــه ناظرا لدار الضرب .

وعرف محمد على قدره فجعله مديرا وحاكما للاقليم الواقع وراء فرع دمياط واعتمدت عليه الحكومة فى جبــــاية الضرائب، وقطع دابر اللصوص والعربان الذين اتخذوا هــذا الاقليم مرتعا لهم يغيرون فيه على قوافل الحج وينهبونها ويقتلون كثيرين من الحجاج سواء القادمين أو الراحلين ويبدو أن نجاحه فى ذلك كان ساحقا الى حد ان جعله محمد على كبيرا للمباشرين ولكن ابراهيم بن محمــد على غضب عليه وقتله وجعــــل مكانه المعلم ابراهيم الجوهرى الذى أصبح ذا مكانة عالية بعد وفاة أخيه جرجس (٢) هذا فى الوقت الذى كان المعلم غالى ـــ الذى كان كاتب الألفى فى الصعيد ـــ يقــوم بمسح عموم أراضى مصر ثم تقسيمها حياضا واليه يعزى فضل قيام النظــام الادارى الذى بداه محمد على وظل معمولا به فى الوقت الحاضر وهـــــو تقسيم القطر الى مديريات ولكل مديرية بندر يقيم فيه حاكما . كما أنه هــو الذى أوصى بالغاء نظام الالتزام ووضع نظام الضريبة الثــابتة على الأرض الزراعية بعد تقسيمها الى مراتب حسب جودتهــا . وقد عرف محمد على للمعلم غالى قدره اذ لم يكد يعينه كبيرا للمباشرين حتى (نزلت طبلخانة الباشا الى بيته واستمرت تضرب النوبة التركية ثلاثة أيام وكــذلك الطبل الشامى وباقى الملاعيب ثم يطلع المعلم الى القلعة فيخلع عليه الباشا خلع الرضــا ويلبسه فروة سمور ويعود الى داره وأمامه الجاويشية والأتبــــاع بالعصى المفضضة فيقبلُ عليهِ الاعيانَ مِنَ المسلمين والنصارىَ للسلام عليه والتهنئة

---

(١) مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٦ .

(٢) ينتسب الاخوان الجوهرى الى قرية الجوهرية القريبة من طنطا بجوار محلة مرحوم وقد وجــد له فيهــا ٥٨ فدانا وفى القاهرة شارع يسمى شارع الجوهرى عند العتبة الخضراء وحارة شارع القبلة (مشاهير الاقبــــاط ص ٢٢٧) .

له (١) ولا غرو فقد كانت كفاءة المعلم غالى لا تقف عند حد ، فقد كان جبار الذهن متوقد الذكاء واسع الحيلة فقد كان الباشا يطلب المال من المعلمجرجس فيقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمر ويفتح له ابواب التحصيل (٢) .

ورغم ما هو معروف من أن محمد على لم يرسل ضمن بعثاته الى أوروبا قبطيا واحدا (٣) لانه كان يختار طلبته من بين خريجى الأزهر ، فان ذلك لم يشغل منهم بالا ما دامت أمتهم تسير فى طريق صحيح فاكتفوا بأن اشتركوا فى تنظم الأحوال . والسير بها نحو الاستقرار بما عرف عنهم من كفاءة (٤) فقد عين بطرس اغا الذى كان حاكما لجرجا أمام الفرنسيين ناظرا لشونات الغلال . ثم نقل حاكما لبرديس فظهرت كفاءته أينما ذهب . كما عين فرج اغا فى دير مواس . وتكلا سيداروس فى بهجورة . وانطون أبو طاقية فى الشرقية وعبود كاتبا للخزينة وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول عنه (لولا الملامة لقلدتك الدفتردارية) (٥) وهو المنصب الذى يتولاه ابنه ابراهيم .

ولم يقتصر الأقباط على المعاونة فى الأمور الادارية بل تعدتها الى كل ما فى طاقتهم فقد اشتط محمد على فى جمع المال حين كانت الحرب الوهابية تلح فى استنزاف موارده فكتب الى المديرين فى جمع المال بأقصى سرعة . فكان نصيب مديرية أسيوط ٢٥ الف جنيه فتقدم المعلم غبريال شنودة فدفعها وحده عن أهل مديريته فقدر له محمد على هذه اليد الكريمة وخلع عليه خلعة سنية (٦) كما كان معظم مهندسيه من الاقباط الذين كانوا قد عملوا مع الفرنسيين واستفادوا من خبرتهم ولم تمنعه ثقته الاولى فيهم من أن ينكل بهم اذا تبين له خطأهم بشىء .

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٣٠ .
(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٣٠ .
(٤) الجبرتى ج ٤ ص ١٣٠ .
(٥) الجبرتى ج ٤ ص ٣٢٤ .
(٦) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٧٢ .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى ارساء قواعد المساواة على أساس وطيد والى أقصى حد(١)ولذا لم تتحرج الحكومة عن استعمال الشدة ضد قصيرى النظر ممن يتآمرون بالقومية الصحيحة وبمستقبل الوطن. فقد ثار الرعاع بدمياط يوما وقبضوا على كاتب بديوان الثغر هو المعلم سيدهم بشاى وادعو عليه زورا انه سب الدين الاسلامى وشهد عليه أمام القاضى بعض الناس بذلك ، فخيروه بين الاسلام والقتل وارسل الى محافظ الثغر فأيد الحكم ففضل المتهم الثانية فجلد وجر على وجهه من فوق سلم المحافظة الى اسفل ثم طاف به العسكر بعد أن اركبوه جاموسة (بالمقلوب) فى شوارع المدينة فخاف جميع النصارى واغلقوا منازلهم ومات المعلم سيدهم بعد خمسة أيام من شدة التعـذيب . فاهتم الوالى بالأمر وأرسل مندوبين لفحص القضية ، فأعادوا التحقيق وتبين منه عدم صحة التهمة وتحيز القاضى والمحافظ فى الحـكم عليه ، فعزلا من وظيفتهما ونفيا . وقد أراد محمد على أن تكون هـذه الحادثة عبرة لكل من تحدثه نفسه بالعبث بالوحدة المصرية ، فأراد قتل أحدهما . ولكن توسـط بعض القناصل وطلبوا تهدئة الحالة فسامحهما ولكن بعد أن اذن للمسيحيين برفع الصليب جهارا أمام جنازاتهم فتم لهم ذلك فى دمياط ثم عمت بعد ذلك فى جميع مدن القطر أيام الانبا كيرلس الرابع (٢) .

وأرادت الحكومة أن تؤكد للأقباط حرية ادارتهم لأحوالهم وأملاكهم دون تدخل من الدولة فى ذلك . وقد كان هـذا الحق معترفا به من قبل الا أن الأقباط لم يكونوا يتمتعون به بشكل جـدى لكثرة ما تدخلت الحكومة قبـل الاحتلال الفرنسى فى مصالحهم ولكثرة ما نالهم من الأذى ، فأرادت الحكومة أن تؤكده لهم كتابة **وفى ذلك اطلاق لحريتهم فى أن يبنو ما يشاءون من الكنائس الجديدة ويرمموا القديمة منها بكل حرية دون ما حرج أو تدخل أو اذن أو شبه ذلك** ، فكان أن صـدر قرار أن يديروا بأنفسهم وبالاشتراك مـع رجال الاكليروس أموال اديرتهم وكنائسهم ومدارسهم (٣) .

وإذا ما فتح السودان فى سنة ١٨٢١ احتاج الى كثـير من الموظفين

---

(١) الجبرتى حـ ٤ ص ٣٠٠ .
(٢) السنكسار ١٧ برمهات .
(٣) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ٢٧ .

للعمل فى مجال الحضارة ، وكان العمل يجرى هناك فى ظروف قاسية سواء من ناحية عداء الأهالى لهم و عدم توفر وسائل العيش . فلم تكن هذه الظروف بمانعة عددا من الاقباط من أن يتقدموا لشغل هذه الوظائف ولم تتردد الحكومة فى استخدامهم فذهبوا الى هناك وعملوا فى الادارة وحملوا العبء فى شجاعة . وبذلك عادت المسيحية الى الظهور فى السودان بعد أن غابت عنه قرابة خمسة قرون . وكان هذا الظهور بواسطة مصريين لا سودانيين واذا ما استقروا هناك وأرسلوا الى البطريرك بطرس السابع يسألونه أن يرسل لهم راعيا يقوم بالخدمة الدينية لهم فرسم لهم أسقفا هو الأنبا داميانوس .

ولقد حمل الموظفون الاقباط الذين قبلوا العمل فى السودان الى هذا القطر الحضارة التى أرادت مصر ادخالها فيه ، فقد كان موظفو الحكومة المصرية نوعين عسكريين ومدنيين . أما العسكريون فمنهم المأمورين والضباط وافراد الحامية فكان أغلبهم مترفعا عن الاختلاط بالأهالى يرهبونهم لما لاقوه منهم من الشدة والغطرسة خصوصا وقد وكل اليهم أمر جمع الضرائب. أما المدنيون واغلبهم من الأقباط فقد اختلط الشعب بهم ولم يجد فى هذا الاختلاط حرجا . كما انهم لم يكونوا يعيشون فى ثكناتهم بمعزل عن الأهالى بل سكنوا المنازل التى بنتها لهم الحكومة فى الخرطوم الجديدة وام درمان ، واخذ الأهالى يبنون منازلهم الى جوارهم وعلى مثالهم . واخذوا يقلدونهم فى طرق معيشتهم ومعاملتهم ، فكانوا بذلك الممثلين الحقيقيين لمصر المتمدينة فى هذه الاقاليم فكان أثر الأقباط فى حمل رسالة الحضارة لم يكن محصورا فى مصر وحدها بل تعداه الى السودان وغير السودان من اقطار الشرق العربى . وان هذا الاثر ليذكرنا بما فعله المصريون فى اثيوبيا أيضا ، فكثيرا ما كانت الحكومة تلجأ الى مصر فى طلب الصناع المهرة لاتمام أعمال تنوى الحكومة القيام بها ، فلم تكن مصر تتردد فى ارسالهم ، فكان هؤلاء الصناع كما كان اخوانهم التجار رسل الحضارة المصرية الى هذه الأنحاء . وقد يعترض معترض ان الحضارة المصرية التى حملها هؤلاء الصناع والموظفون لم تكن على درجة من التقدم تتيح لها أن تؤثر فى هؤلاء الناس . وانى وان كنت أوافقهم على ضعف مستوى الحضارة المصرية . آنذاك الا انى أعود فأقول انها وان لم تكن متقدمة الا انها تعد كذلك بالقياس الى

ما كان عليه السودان وما كانت عليه اتيوبيا من التأخر النسبى . وهى لذلك ادعى لأن يقلدها هؤلاء السكان . فلو كانت على درجة كبيرة من التقدم لما حاول السكان تقليدها أو أن يقربوها . فمدنية الانجليز فى السودان حينما ذهبوا اليه كانت اكثر تقدما من مدنية المصريين ولذلك لم يحاول السودانيون تقليدهم . بل كانت مدنية المصريين اقرب الى السودانيين وادعى الى تقليدهم لها عن مدنية البريطانيين المرتفعة ولذا كان المصريون أشد أثرا من غيرهم فى كل من السودان واتيوبيا .

وامتد النفوذ المصرى الى السودان فى خلال النصف الأول من القرن الماضى ولكنه لم يذهب الى أبعد من فاشودة (١) ولكن الحكومة كانت تؤجر الاقاليم العليا لتجار من المصريين والسودانيين ليتوموا بحرية الاتجار هناك نظير جزية سنوية بمثل هذه الطريقة عمل السيد احمد العقاد وشريكه موسى العقاد ومحجوب البوصيلى وعبد الحميد أبو عمورى وغيرهم ، فاستخدموا العدد الهائل من الأعوان المدججين بالسلاح وأنشأوا الزرائب التى كانت بمثابة نقط عسكرية لقواتهم وفى نفس الوقت بمثابة مخازن لما يجمعونه من العاج .

وقد ساهم الأقباط فى هذا النشاط أيضا فقد عمل هناك شنودة وغطاس وبقطر ، وباسيلى ، (٢) واتخذوا من الخرز والدروع والقصدير مادة تجارتهم يبادلونها بسن الفيل وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس (٣) .

واذا كان هناك من اللوم ما يوجه الى هؤلاء التجار من أنهم سرعان ما تحولوا الى تجارة الرقيق وهى تجارة شائنة ، الا أننا لا نستطيع أن نحكم على مثل هذه الأعمال بعقلية القرن العشرين . فقد كانت هذه التجارة مشروعة فى ذلك الوقت فكان والى مصر يشجعها . وقد حاول أن يتخذ من هؤلاء العبيد مادة لجنده . وكان الأوروبيون جميعا سواء من الفرنسيين أو الانجليز أو البرتغاليين يشتغلون فى هذه التجارة ويقومون بشراء العبيد من

---

(١) مصر والسودان ص ٨٥ .
(٢) مصر والسودان ص ٩٥ .
(٣) الزبير باشا رجل السودان ص ٤٧ .

ساحل غانة وحوض الكونغو ليحملوهم الى امريكا الشمالية والبرازيل طيلة خمسة قرون سابقة لبداية القرن التاسع عشر ولم يكونوا يجدون فى هـــذه التجارة جرما ولا الما (١) فيمكننا أن نقول اذن ان هؤلاء التجار الاقبـــاط قد ساهموا كما ساهم غيرهم فى تقدم البلاد التجارى وانعاشها اقتصاديا . وكانت هذه التجارة ناجحة الى حد ان امرت الحكومة باحتكارها لنفسها بعد ذلك وكسبت منها اموالا كثيرة .

وقـــد ادهشت سرعة تقبل المصريين جميعـــا لسياسة التسامح الدينى كثيرا من الكتاب الاجانب الذين ارخوا لهـــذه الفترة وعزوها الى ان عامل الوطنية لدى المصريين اقوى من عامل الدين (٢) وهو عامل وان كان حقيقيا الا انه لا يعدو أن يكون احد هذه العوامل .

فقد عاش المصريون منذ أقدم الأزمنة على ضـــفاف وادى النيل وكونوا المجتمعات المتفرقة وعبدوا المعبودات المختلفة ، ولكنهم شعروا جميعا رغم اختلاف هذه المعبودات ـــ بما يربطهم بعضهم من عوامل اللغة والعـــادات والأخلاق والاحساس ـــ فاتحدوا وكونوا دولتين احداهما فى الشمال والاخرى فى الجنوب ، ولم يحل اختلاف ديانة شعوب هاتين الدولتين من قيام الاتحـــاد بينهما حتى كونوا المملكة المتحدة ، وذلك لأن عوامل الوحدة كانت أقوى من عوامل الاختلاف ، فهذا النيل الذى يربطهم ويوحد مصالحهم لو انقطع لجفت تربته واصبح المصريون جميعا لا يجدون ما يقتاتون به ، واذا ما ارتفع ماؤه أشرقت وجوههم جميعا بالبشر وامتدت أيديهم جميعـــــا الى هذه الأرض السوداء ينشئون فيهـــا مجارى مياههم لتصل الى حقولهم فتبعث فيهـــا الحياة . ولو زاد هذا الفيضان ولو بضع بوصات لهددهم جميعا بالاكتساح وهو حينئذ لن يغمر ارضا ويترك اخرى ولا يبعث الخراب الى ركن ليترك آخر . ولكن هذا الفيضان لا يجرى الا اشـــهر قليلة ، ولذا أسرع المصريون جميعا الى ارضهم يستثمرونها ، ففى شهور الربيع لن تسمع الا هذه الانات ذات الوقع الموسيقى للسواقى وهى تدور لترفع المـــاء من الآبار العميقة الى

---

(١) صحوة افريقيا ٦٥ ـــ ٦٧ .

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 35 —40

جوف الأرض (١) ولذا لم تحدث فتنة واحدة منذ قيام الاتحاد الثانى بواسطة ملك نارمر من اجل العودة الى إستقلال كل جزء على حدة وقبض أتباع رع على السلطة فخضع له أتباع آمون وهاتور وغيرهما . ولم يشعر أحدهم أن اختلاف الديانة يؤدى الى العداوة بينهما وأتى المحتل الأجنبى ليقضى على استقلال الوطن فعاداه المصريون جميعا سواء كانوا من أتباع هذا المعبود أو ذاك .

حتى اذا هب الوطن لطرد المحتـــل الدخيل (الهكسوس) الذى أذل المصريين لم يقم أتباع ديانة ما بعون المحتلين ضد اخوانهم بل عاداه المصريون على اختلاف دياناتهم من أجل خلاص الوطن . وذلك لأن القـــومية فى دم المصرى اقوى من أى عامل آخر . ولا غرابة فى ذلك فمصر أول من عرفت القومية فى العالم وكونت الوطن ذا الحدود السياسية الواضحة وأخذت تزود عن حياض الوطن جميع الطامعين فتبعد اللوبيين أو غيرهم من قبائل البدو القادمين من الشرق لأنها رأت هؤلاء جميعا أجانب عنه لا ينوون به الا شرا .

واذا ما أتى الاسلام اعتنقه بعض المصريين فلم يكن ذلك سببا لعدائهم لمن بقى على مسيحيته أو عداء البـــاقين على مسيحيتهم لمن دخل فى الدين الجديد فعاشوا اخوانا متحابين كعهدهم فى جميع ادوار حياتهم يفلحون أرضهم متعاونين على الخير والشر فمجىء الفيضان المنخفض لم يكن نكبة على المسلم دون القبطى ولا على القبطى دون المسلم وكـــذلك جميع النـــكبات توحـــد الشعور بالخطر . وكذلك وحدة الشعور بالنعمة . وكذلك وحـــدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة الحرفة . كلهـــا عوامل مجتمعة جعلت شعب مصر وحدة متماسكة ، فلم ينظر المصرى الى اختلاف الدين سوى أنه مظهر من مظاهر اختلاف الرأى الأمر الطبيعى فى أبناء الوطن الواحد .

واذا كان بعض الولاة أو الحكام قد فكر فى احياء بعض مظاهر التعصب الدينى ، فلم يكن ذلك الا لغرض دنىء هو غرض التفرقة بين أبناء الوطن كى يستفيد هـــو من ذلك ، فلم يكن الاقبـــاط يعنون كثيرا بالخضـــوع

---

(١) الحضارة المصرية ص ٣٥ — ٤٠ .

لهذه الأوامر والنواهى (١) كما لم يعن المسلمون بمراعاتها من جانب الاقباط ، ولذا لم تكن هذه الأوامر والنواهى تظهر الا لتختفى . وكان احتفاؤها فى أغلب الأحيان سريعا تحت دافع الوطنية والأخوة والحب الذى يكنه المصريون جميعا لبعضهم البعض . ولهذا السبب عينـــه حرص المماليك والأتراك ثم الانجليز كما سنرى على بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لصالح هذا الأجنبى ورغم طول الحكم المملوكى الذى استمر قرابة ثلاثة قرون . وطول العهد التركى الذى استمر أيضا قرابة ثلاثة قرون والذى حرص الحكام أثنائها على بـــذر بذور العداوة بين المصريين لم يفلح هذان الحاكمان فى جعل هذه التفرقة أو هذا الاختلاف ذا جذور عميقة . ولذا ظل طول هذين العهدين سطحيا . فاذا ما جاء القرن التاسع عشر وساد التسامح لم يجد المصريون صعوبة فى العودة الى حياتهم الطبيعية التى ألفوها . وتقبل المصريون جميعا أقباطا ومسلمين هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعية التى يجب أن يعيش المصريون جميعا فى ظلهـــا . والتى يجب أن تسود مجتمعاتهم سواء كانت ريفية أو حضرية وما سياسة التفرقة بين عنـــاصر الأمة الا سياسة مقصودة من الحاكم حتى وان كان مصريا لا يقصد بها الا فائدته الشخصية . ومما يزيد فى فخر المصريين بأنفسهم أنهم طوال تاريخهم — لم يحاول مصرى قط اتباع هذه السياسة الجديد على أنها السياسة الطبيعية التى يجب أن يعيش المصريون المصريين الا رعاعهم وسفلتهم الذين يريدون الصيد فى الماء العكر من أجل السرقة أو النهب ولا يزيدنا تتبع هذه السياسة فى العصور الحديثة الا ايمانا بهذه الفكرة مما سوف تظهره فى الفصول القادمة .

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٨٢ .

الباب الرابع

عصر اسماعيل

يبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومصر تحت حكم عباس الأول المكروه من بقية عائلته لأنه حجب العرش عن (اصحابه الشرعيين) وهى تمارس حياتها السياسية تحت قيود فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ كما كان العهد خلال العشر سنوات الماضية . وكان هذا الفرمان — وان ربطها بعجلة الامبراطورية العثمانية الواهنة بخيوط ثقيلة — يمنع تركيا من التدخل فى أمورها الداخلية الا فى حالة سفر الوالى الى استنبول عند توليته لاستلام مرسوم التولية . وفيما عدا ذلك تستطيع اذا احسنت التصرف أن تجعل علاقتها بتركيا أو هى من خيوط العنكبوت .

ولكن مما يؤسف له أن أفراد (العائلة المالكة) أعمتهم أطماعهم الشخصية عن ان يتبينوا مصالحهم ومصالح مصر ، فقد تكررت شكاياتهم ضد عباس (المستبد) مما دعا السلطان الى التدخل فيما بينهم وهو تدخل راى كل واحد منهم فيه مصلحته ، فراى عباس أن يستعين بمن هو أقوى من السلطان ، فكان التدخل البريطانى هو الذى أوقف بقية أفراد العائلة عند حدهم ، فكان ثمن هذا العون خط سكة حديد اسكندرية الذى وافق عباس على انشائه بواسطة شركة بريطانية لخدمة التجارة البريطانية . فشخصية مصر الكاملة وسيادتها كادا أن يتحققا الى حد ما فى ظل فرمان سنة ١٨٤١ — لولا هذه الأطماع الشخصية لأفراد تلائل لم يستطيعوا أن يتبينوا أكثر من مواطىء أقدامهم .

وكانت هذه الخلافات محصورة بين أفراد العائلة فلم يكن للمصريين أن يتدخلوا فيها ولا فى استطاعتهم ان يتدخلوا ؛ ولذا انصرف المصريون الى أعمالهم يزاولونها فى هدوء وسكينة .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى اكمال التصفية التى بدأت أيام محمد على بعد سنة ١٨٤٢ لما كان بها من منشئات تقانية وصناعية أقيمت لأجل خدمة الجيش على أساس غير اقتصادى . ولما طلق محمد على سياسته الحربية بعد صدور فرمان سنة ١٨٤١ انتهت الدوافع اليها فأخذت طريقها الى التصفية . ومهما قيل عن فرمان سنة ١٨٤١ من أنه لم يغير حالة التبعية التى كانت تدين بها مصر نحو الباب العالى ، فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه رفع قيمة مصر عما قبل الحملة الفرنسية من ولاية عادية تتمتع بجميع مساوىء الحكم التركى الفاسد الى ولاية ذات مركز خاص يستطيع صاحب الشأن فيها كما يستطيع أهلها أن يدبروا أمرهم بأنفسهم وفق ما يشتهون وان كان ذلك فى حيز محدود .

وجاء عصر سعيد فكان خاليا بعض الشىء من هذه المشاحنات التى أدت الى التدخل التركى والتى انتقصت السيادة المصرية المحدودة . ولكنه لم يكد يعتلى (العرش) حتى رأى أن يتطلع الى عون تركيا فى الحرب التى كانت قائمة ضد الروسيا وهى الحرب المعروفة بحرب القرم . وقد كانت تركيا فى هذه الحرب تقف مستندة على ذراع انجلترا وفرنسا بل على اسطولهما فى البحر الأسود . وكان من الواضح أن هاتين الدولتين لن تتخليا عن (الرجل المريض) لما يعود عليهما من ضرر فلن تكون لهذه الحرب من نتيجة اذا انتصرت الروسيا سوى تقسيم تركيا واستيلاء هذه الدولة (الروسيا) على المضايق وجزء كبير من آسيا الصغرى . ورغم المساعدات المتوالية لم تكن الجيوش التركية تلقى غير الهزيمة سواء فى الميدان الغربى (البلقان) أو الشرقى فى أرمينية . وكانت مصر ترقب هذا الصراع الذى استمر ثلاث سنوات .

وان أقل فهم فى السياسة الدولية آنذاك ليقودنا الى الاعتقاد ان انتصار الروسيا لو تم ــ لكان فالا حسنا لمصر . فالروسيا لم تكن طامعة فيها ، فالاستيلاء على المضايق وشبه جزيرة البلقان وشواطىء آسيا الصغرى الشمالية وجعل البحر الأسود بحيرة روسية كانت كل أمانيها ، ومصر تتمتع بشخصية مستقلة أباحت لها عدم تقديم مساعدة لتركيا حتى سنة ١٨٥٥ وضعف جيشها البادى والمقيد بفرمان سنة ١٨٤١ . كانت كلها

عوامل تتيح لها أن تستكمل هذا الاستقلال ، ومما كانت فرنسا أو انجلترا تسمح أيهما للأخرى باحتلال مصر . اذ أن فرنسا كانت تجدها منطقة نفوذها الطبيعى منذ أيام محمد على . وبينما كانت انجلترا تجدها شريانها الرئيسى نحو مستعمراتها فى الشرق الاقصى وكانت هذه المنافسة هى التى سوف تؤدى بهاتين الدولتين الى الاعتراف باستقلال مصر الضعيفة على ان تحاول كل منهما الاستفادة من هذا الضعف لصالحها . فكأن موقف مصر الطبيعى كان يجب أن يكون الى جانب الروسيا . ولكن هذا الموقف قد يكون سببا فى بلاء جديد لو انتصرت تركيا وحليفاتها . ولن يكون جزاء هذا الموقف اقل من ضياع هده الشخصية المستقلة التى تتمتع بها ، فلا أقل اذن من أن تقف موقف الحياد المشوب بالعطف على الروسيا . ولكن قصر نظر سعيد هو الذى أملى عليه أن يرسل جيشا مصريا ليقف الى جانب تركيا ، وليشترك فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، فكأن جهل سعيد وقصر نظره هما اللذان دفعا به الى ارتكاب هذه الحماقة التى جعلت قيود فرمان ١٨٤١ أمتن وأقوى مما كانت .

وكان عصر سعيد أيضا العصر الذهبى للقناصل ، فقد تدخلوا فى جميع نواحى الادارة المصرية من أجل مصالح رعاياها ، وكان جزء كبير من هؤلاء الرعايا (الأجانب) من أصل عثمانى ولكنهم اشتروا هذه الحمايات من أجل مصالحهم الشخصية ومنافعهم التى كثيرا ما كانت مخالفة للقانون . وضعف سعيد عن مقاومة هذا التدخل وبلغ الحال بهؤلاء القناصل أن تدخلوا لحماية تجارة الرقيق (١) .

ومضت بانتهاء عهد سعيد ثلاث عشرة سنة كاد فيها هذا القدر من السيادة المصرية ان يختفى . ولكن اتت ثلاث عشرة سنة أخرى لاقت فيها السيادة المصرية طريقها الى الظهور بل سمت فيها القومية المصرية الى ما يشبه الاستقلال التام لولا خيط ضئيل . فقد صدر فرمان سنة ١٨٦٤ الذى أعطى مصر حق وراثة العرش ، فقطع طريق المؤامرات وتدخل السلطان ، كما ضمت الى مصر سواكن ومصوع فى السنة الثانية بشرط عدم سريان نظام

(١) مصر والسودان ص ٩٣ .

الوراثة اليهمـــــا (١) . ولكن لم تمض سنة أخـــرى حتى سرى على هاتين المأموريتين ما سرى على بقية الولاية . ولسنا بصدد تعداد الفرمانات المتوالية التى اكسبت مصر حقوقا فوق حقوق . ولكن يكفى أن نذكر الفرمان الشامل فى سنة ١٨٧٣ الذى جعل مصر مستقلة تماما عن الباب العالى ، لولا خيط أوهى من خيوط العنكبوت . وبفضل هذه السلسلة المتتابعة من الفرمانات استطاعت مصر أن تصل بحدودها الى خط الاستواء ، بل أطلت على المحيط الهندى مترة من الزمان وبفضل هذه الفرمانات راست مصر حفلات افتتاح قناة السويس بصفتهـــا صاحبة القناة وصاحبة الدعوة ، وحضر الحفـــلة مندوب من السلطان ، ولم يكن يزيد عن غيره من الضيوف بل تقدمه غيره من الضيوف الذين ارتفعت منزلتهم عن منزلته . واذا ما فتحت هرر سنة ١٨٧٢ كتب أميرها محمد بن على بن عبد الشكور أنه يقبل طائعا مختارا التسليم هو وأهل طاعته ومملكته الى الخديوية المصرية (٢) لا الى السلطان . وبفضل هذه السلسلة من الفرمانات وقعت مصر سلسلة من المعـــاهدات مع الدول الأجنبية من أجل مصالحها الخاصة فوقعت معـــاهدة صلح مع الامبراطور يوحنا فى ١٨ مارس ســــــنة ١٨٧٦ انتهت حالة الحـــرب بين الجانبين الافريقيين (٣) .

وفى شهر أغسطس وقعت معــــــاهدة مع انجلترا بشأن الغاء تجارة الرقيق (٤) ، وبفضل هــــذه الفرمانات رأست مصر مؤتمرا دوليا عقـــد فى القسطنطينية من أجل الغاء الامتيازات حين استبدل بهـــا نظام المحـــاكم المختلطة . وهو ان كان نظاما فاسدا الا أنه وضع حدا لتدخل القناصل ، وبدا لكل ذى عينين ان مصر سوف تأخـــذ مكانها تحت الشمس . ولم يكن ذلك بفضل مساعدة أحد غير جهود أبنائها . ولم يكن ذلك مما ترتاح اليه انجلترا وفرنسا وهما الطامعتان فيهـــا منذ بداية القرن ، ولذا لا نستغرب اذا حاولت كلتاهما انتهاز فرصة الازمة المالية وديون اسماعيل كى تعيدا قصة التدخل وكى تحرما مصر من التمتع بثمرة جهودها .

---

(١) مصر والسودان ص ١٠٤ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٣) مصر السودان ص ١٤٢ .
(٤) مصر والسودان ص ١٠٣ .

وبفضل جهود أبنائها تمتعت مصر بنوع من التمثيل النيابى لو ترك مع الزمن لتطور وأصبح أداة من أدوات اظهار ارادة الشعب بل نجح فعلا فى أن يحد من سلطة المراقبـــة الثنائية وأن يحد من التدخل الأجنبى : فقد اتجهت جهود مجلس شورى النواب الى ابعاد النفوذ الأجنبى أكثر مما اتجهت الى الحد من سلطة الخديوى (١) الامر الذى لم يرتاح اليه أعداء مصر المتربصون بها فكان عزل اسماعيل .

ولم يكن عزل اسماعيل فى حد ذاته نكبة اصابت مصر ، فما كان أول والى يعزل ولا آخرهم . ولكن وجه النكبة فيه أنه تم بناء على تدخل اجنبى لقى ترحيبا من السلطان وكان هذا التدخل هو بداية انهيـــــار السيادة المصرية التى كادت أن تستكمل . وكأنما تآمرت على مصر الذئاب اذ أراد السلطان الضعيف أن يسترد ما حصلت عليه مصر من امتيازات سابقة .

وجاء توفيق الضعيف لا ليرد لمصر كرامتها ، بل ليمرغها فى الطين ، فقد مزق السيادة المصرية يوم شـــــعر بجميل انجلترا عليه ، فجعل القنصـــل البريطانى مستشاره المفضل فى كل أموره مهما صغرت ومزق القـــــومية المصرية يوم أعطى الجراكسة مكان السيادة من هذه الامة ، ومزق القـــومية المصرية يوم الغى مجلس الشورى وصمم على أن يحكم البلاد بالحديد والنار، ومزق القومية المصرية يوم قابل العـــــــرابيين فى ميدان عابدين محـــوطا بالبريطانيين ، ومزق القـــــومية المصرية يوم انسحب الى قصره ليترك أمر مفاوضة قواد جيشه لعمال بريطانيا ليرضى هو بما يبرمونه وما يتركونه ، ومزق القومية المصرية يوم قبل مطالب الجيش مدفوعا بعامل الخوف لا عامل الايمان بهذه المطالب وهذه الحقوق .

وأخيرا جاءت الثورة العرابية لتنبيه هذا الغافل الى حقوق شعبه . وما كانت فى بادىء أمرها ثورة . بل لم تعد أن تكون مطالب جيش مستندا الى أمة ليحققها له من بيده الأمر . ولكن جبن الخديوى وقصر نظره هما اللذان حولا هذه الحركة البريئة الى ثورة يقوم بها شعب ليسترد كرامته وقوميته

Egypt and Egyptian Question p. 79

بعد أن أضاعهما هذا الضعيف . وقام الشعب وأعطاه المجلس النيابى الذى يستطيع أن يستند اليه فى مغالبة المتدخلين . حين قرر مسئولية الوزارة أمامه وكان يرمى فى ذلك الى تحدى سلطة بريطانيا أكثر من أى شىء آخر (١) ولكنه ابى الا أن يعصف بهـذا المجلس . واذا ما تولت الأمر وزارة وطنية تمثـل هذا الشعب المكون من جمهور الفلاحين أبى الا أن يستعدى السلطان عليها ويطالبه بالتدخل . وقد كادت حقوق السلطان تصبح نسيا منسيا حتى اذا لم يسعفه هذا السلطان الضعيف ذهب يستعدى البريطانيين الذين وجدوا الفرصة المواتية لتحقيق أغراضهم القديمة خصوصا وقد ازدادت أهميـة مصر منذ افتتحت قناة السويس للملاحة سنة ١٨٦٩ وصار الاستيلاء على هذا الطريق المائى من أغراض السياسة البريطانية (٢) فأرسلوا جيشهم وقاومه المصريون ما وسعتهم قوتهم ولكن الخيانة والغدر كانتا أعظم من هذه القوة وسقطت البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولم يكن هذا الاحتلال سوى بداية للطريق الذى سوف يقودهم الى اختراق قارة أفريقيا من الشمال الى الجنوب وكانوا قد بدأوا يرسمون الخطوط الاولى لهذه السياسة البعيـدة فى سنة ١٨٦٩ حين قدموا السيد صموئيل بيكر الى اسماعيل ليكون حاكم مديرية خط الاستواء فكان نجاحه فريدا فى بذر بذور العداوة بين المصريين والسودانيين.

انصرف قبط مصر خلال الجزء الأول من هذه الفترة الى أعمالهم الخاصة يصرفونها فى هدوء وسكينة ، ومكنهم جدهم ودأبهم على العمل من أن ينجحوا فيها ، واتجه كثيرون منهم الى التجارة فجنوا من ذلك أرباحا مكنتهم من التمتع بشىء من الثروة (٣) (بالرغم من سياسة عباس العدائية نحوهم حتى لقـد فكر فى طردهم من البلاد) . ويبدو أن التصفية التى اتبعتها الحكومة ازاء المنشآت الحكومة كانت ذات أثر قاس عليهم . فقد كان كثيرون من صغارهم يعملون فى هذه المنشآت لاتقانهم القراءة والكتابة والاعمال الحسابية ، فقد كانت مدارسهم القبطية الملحقة بالكنائس تمكنهم من هذا الاتقان ولكنهم اذا ما شعروا بالضيق من جراء هذه السياسة الجـديدة عادوا الى قراهم .

---

(١) مصر والسودان ص ١٦٢ .

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 81

(٣) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٣٠ .

ولكنهم لم يجدوا ما يمكنهم من العيش الرغد الذى تعودوه ، فهاجر كثير منهم الى السودان وهناك شغلوا الوظائف الصغرى فى المديريات ، فان المستر ستانلى يروى (حين وجه لانقاذ أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء) أنه كان معه واحد وعشرون كاتبا يعملون فى هذه المديرية كلهم من الاقباط (١) ولم يبالوا بالاحوال الصحية السيئة حين كان كثيرون من المصريين يخشون هذه الهجرة . بل اقبل كثيرون من المهاجرين يشتغلون بالتجارة مع من بقى من اخوانهم فى مصر ، وشجعهم على ذلك عاملان : استتباب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لتأسيس الحكومة الموطدة فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض للملاحة . وقد عنيت حكومة القاهرة دائما باختيار الاكفاء من الحكمداريين الذين امتازوا بالجد وحسن تصريف الأمور والاستماع لشكايات الاهالى واشتهر أكثرهم بالأمانة والاستقامة ولم تضطر حكومة القاهرة الى استدعاء أحد منهم (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وهم أربعة سوى جركس لطيف الذى احتكر التجارة فى النيل الأبيض لحسابه ولنفعه الخاص (٢) وكان أكبر مايغريهم هناك تجارة العاج والصمغ والسنامكى ومنتجات سنار فقد الغت الحكومة احتكارها للصمغ ، فكان ذلك مشجعا لهم أن يأخذوا بنصيب من هذه الموارد (٣) وبلغ عدد الاقباط وثروتهم فى السودان مبلغا أن أصبح لهم حتى نهاية الحكم المصرى ثلاث كنائس فى الخرطوم وأخرى فى الأبيض وثالثة فى دنقلة (٤) ولكن لم تلبث كميات العاج أن تدهورت وقل الربح من تجارته ، فاتجهوا الى تجارة الرقيق (٥) وهى تجارة رائجة آنذاك . وان كان يشوبها كثير من المخاطر . وتمكن بعضهم من أن يكون هذه الزرائب والمحطات المسلحة حتى لقد اغتصبوا السلطة تدريجيا من حكومة الخرطوم (٦) بل بلغ من نفوذ بعضهم أن كون شنودة وخورشيد أغا وديبونو دكتاتورية ثلاثية بسطت سلطاتها حول غندكرو فى بحر الجبل (٧) .

---

(١) in the Darkest Africa p. 55

(٢) مصر والسودان ٧٣ .

(٣) مصر والسودان ٨٤ .

(٤) الدليل العام للأقباط ص ١٩٦ .

(٥) مصر والسودان ص ٢٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٧) نفس المصدر ص ٩٥ .

وقد كان ضعف عباس وانصرافه عن الأخذ بناصر شعبه وانصرافه عن تثبيت القومية المصرية وكذلك كرهه للمسيحيين ومحاولة اجلائهم عن البلاد ان حاول الأجانب أن يتسللوا الى الاقباط ليتخذوا منهم أداة لتنفيذ اغراضهم ..

ولكن هذا لم يكن ليغريهم عن قوميتهم ، فالقومية من القبطى كالروح من الجسد . ولذا كان اتجاههم نحو الكاثوليكية والبروتستانتية دينيا بحتا غير مشوب بالسياسة، فقد أبوا الا أن يظلوا محتفظين بقوميتهم فأطلقوا على أنفسهم لفظ (أقباط) وهو الاسم التقليدى الذى يميز مسيحيى مصر عن مسيحيى العالم أجمع . بل لقد حاولت الكنيسة الروسية أن تلج هذا السبيل حين أوفد القيصر الى البابا بطرس السابع المعروف بالجاولى أحد أفراد أسرته المالكة ليعرض عليه وضع الكنيسة القبطية تحت حمايته وكانت الروسيا قد حصلت على حماية الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية فى معاهدة كتشك كيناوجى سنة ١٧٧١ فرفض العرض بلباقة قائلا **أنه يفضل أن يكون حامى الكنيسة هو راعيها الحقيقى الملك الذى لا يموت** (١) وهى كلمات لو ترجمت الى اللغة المدنية لكانت (لا يا سيدى . لن نكون أبدا خائنين لقوميتنا) .

والحقيقة ان هذا الاتجاه من الدول والكنائس الأجنبية لم يحدث الا لأن الخراف كانت ضالة لا تجد الرعاية الدينية الصالحة . ويكاد كل واحد من أفراد الرعية ينصرف فقط الى مصلحته الخاصة دون قائد . ولكن شاء الله لنا رشدا . فوجدنا القائد الحازم والراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ذلك هو الأنبا كيرلس الرابع الذى استطاع أن يبرهن خلال قيادته القصيرة (١٨٥٣ — ١٨٦٢) ان رجل الدين اذا كانت له الشخصية القومية والماضى الناصع البياض والمستقبل المنزه عن الأغراض الشخصية يستطيع أن يؤدى لأمته أجل الخدمات فى ميادين كثيرة متفرقة ، قد يتصل بعضها بالدين وقد لا يرتبط بعضها بالدين بسبب . فقد أتيح له أن يغرو ميادين الاصلاح فى

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٧ .

أكثر من جهة (١) فلا عجب أن أطلق عليه المؤرخون ذلك اللقب الذى أصبح علما وهو (ابو الاصلاح) وما زال الاقباط حتى العصر الحـــالى يستعيدوه كعصر المعجزات . فقد أثر عنه التقوى منذ نعومة أظفاره فهجر أهله وعزف عن المدينة بمباهجها وولى وجهه شطر الصحراء يقطع فيافيها ويصعد كثبانها حتى يصل الى دير القديس انطونيوس لينخرط فى عداد الرهبـــان ولم يتعد الثانية والعشرين من عمره .

وقـــد عرف منذ شبابه قسوة الشهوة نعرف كيف يتغلب عليهـــا بالابتعاد عما يثيرها ، فعرف عنه كراهيته للنساء كى لا يثرن فيه ما كمن من شهواته ، وكان يقول (تغلب على الشهوة قبل أن تتمكن منك لأنها ان غلبتك لا يمكنك الا أن تقع فى شر الخطية) فكان اذا أحس ببوادرها عمل على انهاك جسده ليريح نفسه ، فقـــد حدثوا عنه انه نزل ليلا الى الناحية الغربية من المدرسة القبطية وأخذ يدير ساقيتها بيده وينقل المياه بنفسه ليغسل دورات المياه فيهـــا . فأحس به الحارس فأسرع اليه طالبا أن يقوم عنه بهـــذا العمل . فأبى قائلا (انك لست مسئولا عنى . ولا تقل لأحـــد ما دمت حيا .

---

(١) دير القديس انطونيوس كما مر بنا أحد اديرة الاقبـــاط الارثوذكس فى مصر وهو فى سفح جبل القلالى بصحراء العرب وتبلغ مساحته ١٨ فـــدانا ويعتبر أكبر الاديرة ويرجع عهد تجديده الى الملك المؤيد (١٤١٢ ـــ ١٤١٤) وبه ايقونة قديمة تمثل السيد المسيح تحيط به الملائكة . وبه أربع كنائس ، أحدثها واحدة بناها الانبا كيرلس الرابع . وبه مكتبة بها ١٥٦٣ كتابا منها ١٤٣٨ مخطوطة . وبه عين ماء كبيرة . ويصل اليه المسافر عن الطريقين ، احدهما من بلدة العلاقمة المقابلة لبوش ، والآخر عن طريق البحر الاحمر الى نقطة فنار الزعفران ، ثم الى الدير . ويقطع كل من الطـــريقين فى ثلاثة أيام بالجمال وثمان ساعات بالسيارة . وبه مرصد صغير لمصلحة الطبيعيات وفى الجهة الشرقية من الدير جبل عال به مغارة القديس انطونيوس التى عاش فيها أربعين سنة . وكان له الى ما قبل صـــدور قانون الاصـــلاح الزراعى وتطبيقه على الأوقاف الخـــيرية سنة ١٩٥٧ ـــ ١٠٧٨ فدانا عـــدا بعض العمارات التى تدر ما يقرب من خمسمائة جنيها شهريا تقريبا ويقيم به حاليا ثلاثة وستون راهبـــا وادارته فى بوش حيث معظم أطيـــانه . (الوسائل العملية) لحبيب جرجس .

انى خفت أن تغلبنى الميول الفـــــاسدة فأردت أن أتعب جســـدى لأريح روحى) .

وكأنما كان يعرف ان الأقدار تهيئه لقيادة شعبه ، فما انخرط ضمن رهبان الدير حتى اقبل على مكتبة الدير يقرأها كتابا كتابا مستوعبا ما يقرأ فى تمعن وروية ، بل شرع يبث فى زملائه الرهبان حب القراءة والاطلاع . ولم يكتف بذلك بل كان يجمعهم فى أوقات الفراغ من العبادة ليعلمهم ويثقفهم بما حصل عليه من قراءاته العديدة فكأنما كان فى نفسه كليـــــة أكليريكية تثقف الرهبان بما يؤهلهم لرعاية شعبهم وينبههم الى ما يجب أن يعملوه لا من اجل أنفسهم ولكن من اجل الشعب الذى ينتظر منهم الرعاية الحقيقية .

وما كاد يرقى الى منصب (مطران بلا أبرشية) فى ابريل سنة ١٨٥٣ حتى سارع الى انشاء مدرسة كبـــيرة فى الدرب الواسع بجوار الكنيسة الكبرى وفى ذلك يقول الايغومانوس فيلتاءوس فيمـــا كتبه الى على باشا مبارك . (وفى سنة ١٥٦٩ شهداء الموافقة لسنة ١٨٥٣) شرع فى عمارة كبرى تجاه الكنيسة من الجهة البحرية ، فأخذ المنازل اللازمة لاستيفاء المدرسة والقلاية والكنيسة بعضها استبدالا بأماكن أخــرى والبعض اشتراه بالثمن حتى حاز المنازل التى كانت مجاورة للقلاية والكنيسة المقابلة لها من مدخل العطفة المذكورة الى انتهائها . وفى أثناء عمارة المدرسة سد الطريق الذى كان موصلا الى حوش القطرى اذ لم يبق فى العطفة سوى أملاك الوقف وتمم عمارة المدرسة وبدل نظامها الأول وحوله الى الوضع الذى هو عليه الآن . وجلب اليهـــا المعلمين وأباح لأبناء الامة جميعـــــا من المسيحيين والمسلمين والاسرائيليين ادخال أبنائهم ليتعلموا ما يريدون من العلوم العربية واللغات المعتبرة والآداب مجانا وكان أول افتتاحها سنة ١٥٧١ سنة « ١٨٥٥ » (١) وعين للصرف عليها ايراد جملة أماكن من وقف الدار البطـــريركية ولم تزل للآن تصرف فى شئونها مع باقى المكاتب التى افتتحها فى القـــاهرة . وقــد نجحت هذه المدرسة منذ أوائلها وشاهد نجاحها مؤسسها وكثير من طلبتهـــا الأول مشرفون الآن بالرتب والخدم الاميرية . هـــذا وقد صير موقع العطفة

(١) التعليم فى مصر لامين باشا سامى ص ١٦ .

المذكورة دائرة واحدة تشتمل على الكنيسة . والبطريركية والمدرسة وجعل على هذه الدائرة بابا كبيرا من الجهة الغربية وهو الباقى للآن بحالته بالدرب الواسع (١) .

وكان اذا ما زاره أحد ذو شأن صحبه الى المدرسة لزيارتها وسأله عما يراه من أوجه النقص فيهـا فيسارع باصلاحه . كما كان كثيرا ما يدخـل الفصول ويجلس مع التلاميذ وينصت الى ما يقـوله المدرسون . حتى اذا انتهى الدرس التفت الى التلاميذ قائلا : « لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن اعرفها من قبل » (٢) فكان بذلك يضرب المثل لغيره ان طلب العلم لا ينتهى عند الحصول على المنصب بل يجب على الفرد أن يثقف نفسه ما دام حيا .

ولما رأى ان بعض الطلبة يقيمون فى جهات بعيدة . اشفق عليهم وأنشأ لهم مدرسة وكنيسة بحارة السقايين وكان يتفقد حالتها مرة كل أسبوعين . وكان للغتين الايطالية والانجليزية مكان ممتاز فى خطـة الدراسة بالمدرستين ولذلك عين كثير من خريجى هاتين المدرستين فى المصارف المالية وعند التجار لمعرفتهم اللغة الايطالية واستأذن البطريرك من سعيد باشا فى ادخال تلاميذ المدارس القبطيـة فى مدرسة الطب وغيرها من المدارس (٣) الأميرية وهـو ما نسميه فى الوقت الحاضر اعتراف الوزارة بشهادتها .

ولعل اكثر ما يكتب لهذا الرجل بأسطر من ذهب أنه عرف ان النساء نصف الأمة . وهن القوامات على تربية أبنائهـا . ولا فلاح لامة نساؤها جاهلات . فأسرع بانشاء أول مدرسة للبنات فى مصر (٤) فى الوقت الذى لم تكن هناك مدرسة أخرى لهن لا فى مصر ولا فى تركيا بل الشرق العربى كله . فكانه بذلك سبق اسماعيل كمـا سبق قاسم أمين الى الدعوة الى تعليم المرأة وتحريرها كى تأخذ مكانها فى المجتمع المصرى كشريكة للرجل وعلى قـدم المساواة معه . فكان بذلك رائد النهضة النسائية . ولعل هذه — لو كانت

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٣١ .
(٢) نوابغ الاقباط مشاهيرهم فى القرن التاسع عشر جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٣) تاريخ التعليم فى مصر ص ٨٣٥ .
(٤) Ceorci Sobhi, Education in Egypt, Balletindela Sr. A. C. IX. p - 117.

وحدها – لدليل على القومية الصحيحة التى تبعى قياده صحيحة . لا تهريجا فارغا يرمى الى الصيت الزائف . وكما قال أحد معاصرينا (كان الوحيد الذى يبنى وغيره يهدمون) وبلغ عدد المدارس التى انشأها كيرلس الرابع ست مدارس (١) وفتحها لجميع أبناء الأمة فى الوقت الذى كانت فيه سياسة الحكومة متجهة الى اكمال سياسة التصفية واغلاق ما بقى من مدارسها .

وكأنه عرف أيضا ما لموقع مصر من الأهمية كنقطة ارتكاز العالم أجمع . وما على أهلها من واجب جمع الشرق والغرب ، فحض على تعليم اللغات الأجنبية وكان أكثر اهتمامه موجها الى اللغتين الإيطالية والانجليزية ، أما الأولى فكانت لغة التجارة فى ذلك الوقت ، أما الثانية فكانت لغة أجنبية أخرى لموازنتها كى لا تكون هناك افضلية للغة على أخرى . وحض على احياء اللغة القبطية وجعل فى المدرسة فصولا لتعليمها كما اهتم بأمر الكتب القبطية ونشرها . فكان بذلك منبها للمصريين الى لغتهم القومية الاصيلة (٢) .

ولم تكن هناك وسيلة لهذا النشاط الثقافي سوى الطباعة فاهتم

---

(١) مازالت ثلاث من هذه المدارس باقية تعمل منذ انشائها حتى الآن وقد اكملت عام ١٩٦٤ عامها العاشر بعد المائة فتكون بذلك أقدم مدارس مصر القبطية .

(٢) واللغة القبطية هى اللغة الديموطيقية بعد ان كتبت أصواتها بحروف يونانية لتبسيط قواعد كتابتها . وكان ذلك فى القرن الثانى الميلادى . وسميت بالقبطية لأن الاقباط أو المصريين تمسكوا بهـا كلغة قومية أولا وكمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى ثانيا . وهى لا تمت الى المسيحية بصلة . فأولى بنا نسميها باسمها الصحيح وهو اللغة المصرية . ولها أربع لهجات . الصعيدية وهى لهجة سكان الصعيد الأعلى . والفيومية . وهى لهجة سكان مديريتى الفيوم وبنى سويف والمنفية أو البشمورية . وهى لهجة سكان مديرية الجيزة وجنوب الوجه البحرى . والبحيرية ، وهى لهجة الوجه البحرى والأخيرة المستعملة حاليا فى الكنائس . وقد ظلت هذه اللغة لغة التخاطب والكتابة بين المصريين حتى القرن السابع الميلادى . حين جعلت العربية لغة رسمية لمصر أيام عبد الملك بن مروان . ولكن اللغة المصرية ظلت مع ذلك حية بين المصريين وان أخذت فى الضعف . وتتغلب عليها العربية شيئا فشيئا حتى بدا للكتاب القبط فى القرن الثالث عشر أن لابد لهم أن يؤلفوا بالعربية . كى تجد كتبهم رواجا . وكان أول من فعل ذلك صفى الدين بن العسال .

بانشاء مطبعة عربية خاصة للدار البطريركية . فكانت أولى المطابع العربية فى مصر . اذا استثنينا المطبعة الأميرية . واستصدر من سعيد أمرا بقبول اربعة من الاقباط للتمرن على العمل فى المطبعة الاميرية .

ومن طريف ما يروى انه لما وصلت المطبعة الى الاسكندرية — وكان مقيما آنئذ فى الدير أمر باستقبال أدواتها من مدخل الدرب الواسع بموكب يسير فيه الأكليروس بملابسهم الرســمية وقد أعرب البطريرك عن سروره بوصول المطبعة . بقوله : « لو كنت حاضرا لرقصت أمامها . كما رقص داود النبى أمام تابوت الرب » .

وساءت العلاقات بين مصر واتيوبيا بسبب اختلافهما على الحدود . فسكان المنطقة التى تصــل بين اتيوبيا والسودان رعاة لا يعترفون بالحدود السياسية المصطنعة ولم تستطع كل من الحكومتين المصرية أو الاتيوبية أن توقف نشاط هجراتها المستمرة بين المنطقتين لانهم ما زالوا يسعون نحـــو الكلأ أينما كان . فأدى ذلك الى اضطراب العلاقات بين الدولتين . هذا الى نشاط عصابات الشفتا وعلى رأسهم الرأس كاسا الذى أصبح فيمــا بعد تيودوروس الثــــانى . وفرضهم الأتاوات على الاموال ووصل نفوذهم الى القلابات ومديرية فازوغلى الداخلة فى حدود السودان .

وكانت انجلترا تسعى من جانبها الى زيادة الجفاء بين الدولتين . بسبب سياسة سعيد الفرنسية . وسيره فى اجراءات حفر قنــــاه السويس رغم معارضة انجلترا ورغم تدخلها لدى السلطان أكثر من مرة من أجل ذلك. وكان مما يتفق ومصالحها أن يشغل سعيد فى حرب توقف حفر القناة . لأنهـــا كانت تخشى سيطرة فرنسا عليها فقد أخذت الأحوال تضطرب فى الهنـــد وظهرت أهمية مصر كطريق للمواصلات السريعة بين انجلترا وممتلكاتهـا فى الشرق الأقصى (١) فعزم سعيد على أن يرسل حملة تؤدب قبائل الحدود وتعيد الى المنطقة هدوءها . ولكن الباب العالى لم يلبث أن أرسل اليه يثنيه عن عزمه

---

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

لانه لم يصدر من جانب الاثيوبيين ما يستدعى اتخاذ هذا الاجراء (١) فلم يجد سعيد بدا من اللجوء الى السياسة فالتجـأ الى الأنبا كيرلس الذى يتيح له مركزه كبطريرك الاسكندرية فى النوبة واتيوبيا والخمس مدن الغـربية ان يتدخل فى الأمر . فلم يتردد الانبا كيرلس فى أن يسافر الى اتيوبيا من أجـل ازالة سوء التفاهم رغم ما عرف عن وعورة الطريق . وأمر سعيد فجهزت للبطريرك ولمن معه باخرة نيلية وحمله الهدايا النفيسة وخرج من القـاهرة فى الرابع من سبتمبر سنة ١٨٥٦ (٣٠ مسرى سنة ١٥٧٢) وأمر سعيد أن يستقبل الركب استقبالا رسميا على طول البلاد التى يمر بها فكانت المدافع تطلق اجلالا وتعظيما وأمر أن يرسل الى الباخرة يوميا كل ما يطلبه ركابها من مؤونة .

وكانت سنة ١٨٥٦ السنة الثانية من حكم الامبراطور تيودوروس الثانى الذى عرف بعدائه للانجليز فما ان علم الامبراطور بمقدمه حتى سارع لمقابلته فى موكب حافل على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود الحبشية لانه وجد فى هذه الزيارة فرصة طيبة تمكنه من توطيد مركزه الى درجة سوف يقضى بها على أعدائه . القضاء الاخير كما يقضى على كل محاولة تبذل من اجل الثورة عليه أو اقصائه عن العرش . رغم تتويج الأنبا سلامة له فى فبراير سنة ١٨٥٦ .

ولكن صادف غياب البطريرك فى اتيوبيا زيارة سعيد باشا للسودان (٢) وهى الزيارة المشهورة التى أعلن فيها سـعيد مراسيمه الاربعة باصلاح الأحوال هناك . قد وصل اليه مصطحبا جيشه على عادته . فانتهز الدساسون الفرصة فأوعزوا الى الامبراطور بأن زيارة البطريرك ليست الا ذرا للرماد فى العيون كى يتقدم سعيد باشا بجيشه الى اتيوبيا .

فقد كانت فرنسا ترى فى تتويج البطريرك للامبراطور القضاء الاخير على محاولتها التدخل من أجل استبداله اذ انها لم تكن قد اعترفت به وتؤمل تغلب أنصار رجلها الرأس عالى عليه فقد أرسل نابليون الثالث بعثة رسمية من

(١) رسالة من الصدر الاعظم الى سعيد باشا فى ٢٢ مايو سنة ١٨٥٩ .
(٢) مصر والسودان ص ٨٤ .

أجل الاعتراف بهذا الاخير امبراطورا لقاء منح فرنسا امتيازات فى بلاد اتيوبيا. فلم تكد تصل الى مصوع لتخترق الهضبة الى العاصمة حتى كان كاسا قد اودى معه بأحلام فرنسا فى اتيوبيا (١) وجلس على العرش باسم تيودوروس. وكان وصول البطـــريرك الى اتيوبيا وقت زيارة سعيد باشا للسودان أكبر دليل على اتفاقه معه خصـــوصا وقد صور له انه يحمل برنسا مسموما اذا لبسه الامبراطور سرى السم فى جسده فيموت .

فخدع الامبراطور بهذه الأقوال وصمم على قتل البطريرك ، الا أن والدته تدخلت وأمرت ان يجرد البطريرك من ملابسه ويلبس هذا البرنس المسموم فوضع البطريرك فى خيمة منفردا بعد أن لبس هذا البرنس وظل اربعة أيام تحمل فى اثنائها كثيرا من الاهانات . وأرسل فى اثنائها رسولا الى ســـعيد يرجوه سحب الجنود المصرية من الحدود الاتيوبية . فلم تلبث براءة البطريرك أن ظهرت وتأكدت هذه البراءة عندما سمع الامبراطـــور بانسحاب الجيش المصرى . فتقدم الامبراطور اليه رافعا حجرا كبيرا على راسه ثم انحنى أمامه وقبل قدمه فقبل البطريرك رأسه وسامحه .

ونجح البطريرك فى مهمته وعاد الى وطنه مثقلا بالهدايا مصطحبا وفدا اتيوبيا يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين موقعا عليها من الامبراطور وما ان جاءت الاخبار بوصوله من الخرطوم حتى أمر سعيدباستقبالهرسميا.واذا ما وصل الى القاهرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ بعد ان غاب سنة حتى استقبله الشعب والحكومة فى موكب دينى ســـار فيه القسس والشمامسة متشحين بملابسهم المذهبة رافعين الصلبان من شاطىء النيل حتى حارة السقايين ، ومنذ هذا الوقت أصبح للأقبـــاط ان يجهروا بشعائرهم الدينية ومواكبهم فى الشوارع بعد ان كان ذلك محرما عليهم . فكانه بذلك وضع الحجر الأخير فى بناء سياسة المساواة التـــامة بين المصريين جميعا وهى الركن الركين فى

---

(١) المقتطف يوليو سنة ١٩٥٢ .

القومية المصرية . كما أنزل الوفد الاتيوبى فى دار الضيافة ولم يلبث سعيد ان استقبله وتقبل ما معه من الهدايا ورد عليها ردا جميلا .

ومن العجيب أن البابا حينما رأى أن الاقباط الذين دخلوا فى الكاثوليكية لم يحاولوا استغلال هذا التحول من الناحية السياسية أراد أن يتجه الى البطريرك مغريا اياه بحماية البابا لأقباط مصر تحت ستار اتحاد الكنيستين ، فأرسل اليه رسولا يصحبه الخواجا حنا مسرة وكان وقتئذ جالسا أمام عمارة المدرسة بملابسه العادية . فما ان كاشفاه بالأمر حتى استهولوه ولكنه ملك أعصابه وأمر لهما بالقهوة . واذا ما شرباها . أمسك بالانجيل يقلبه بين يديه منشغلا عن ضيفيه فاذا سألاه عن سبب انشغاله قال لهما ان العمارة قد استنفدت كل ما كان لديه من مال . وانه طلب من أبنـاء الطائفة مالا فلم يسعفوه ففكر فى بيع صكوك الغفران كما فعل بابا روما . وها هو يقلب صفحات الانجيل لعله يجد فى ذلك سندا يسوغ له ذلك . وطال بحثه ولكنه لم يجد هذا المسوغ ولذا فهو يرجوهما أن يدلاه على ذلك . فكان ذلك نهاية النقاش (١) .

ولم تكن محاولة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية هذه بأول محاولة من نوعهـا فقد سبقتها أكثر من ثلاثين محاولة . ولكن مما يؤسف له ان هذه المحاولات لم تقصد لذاتهـا بل كانت دائما تخفى وراءها أغراضا سياسية . فاذا ما دنت هذه الأغراض الحقيقية بالزوال . صرفت النية عن مجهـودات الاتحاد . فالدفاع عن الدولة كان الغـرض الحقيقى الذى اثيرت من أجله محاولات الاتحاد بين سنتى ١٠٥٥ ، ١٠٧١ حينما أراد الامبراطور قسطنطين التاسع أن يتخذ من البابا وسيلة للدفاع عن بلده ضد غزوات النورمانديين .

وفيمـا بين سنتى ١٠٧٣ ، ١٠٩٩ كان ميشيل السـابع والكسيس كومنينوس يبغيان الدفاع عن دولتهما ضد الاتراك السلاجقة .

وفى القرن الثالث عشر بذل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية محاولات

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٦ .

الاتحاد مرة اخرى بنية القضاء على الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية .
وفى سنة ١٢٦١ عمل ميشيل باليوجوس على استعمال هـذا السلاح ضد شارل انجو .

وكانت مجهودات القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشتد وتتراخى تبعا لهجوم الاتراك العثمانيين .

وعندما اشتد هجوم محمد الثانى دعا جون الثـامن الى عقد مؤتمر فى فلورنسا سنة ١٤٤١ لغرض اتحاد الكنيستين . وقـد اشترك فى هذا المؤتمر مندوب مصر هو الأب أندراوس رئيس دير القديس أنطونيوس وقد قبـل المفاوضون الشرقيون أن يعترفوا بسلطة البابا مقابل أن يدعو هذا الاخير ملوك اوربا الى حملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر الوقوع فى يد الاتراك . ولكن قرارات المؤتمر لم تكن عملية ولم تؤد الى نتيجة فقد وعد البابا بما لم يستطيع أن يفعله فلم تحقق المعونة الاوربية للدولة الرومانية الا جيشا هزيلا لقى حتفه عند أول لقـاء مع الاتراك (١) ولو خلصت النيات يوما واجتمع الساعون للاتحاد اتحادا دينيا بحتـا وتنزهت نياتهم عن الاغراض الذاتية لتوصلوا سريعا الى الاتفاق لأن نقط الخلاف سطحية بحتة .

ولم يقف الانبا كيرلس عند حد بناء الكنيسة أو المدارس أو المطبعة ، بل امتدت يده الى الأديرة فوضع للرهبـان انظمة صارمة لا يخلون بهـا ، فحرم على الرهبان الخروج من الأديرة والطواف بالقرى لجمع المـال . ولم يتردد عن اظهار حزمه عند كل مخالفة حتى أطلق عليه الرهبـان اسم (أبو نبوت) هذا الى اهتمامه أيضـا بمكتبات الأديرة فعين لكل منها أمينا وحتم عليه أن يمسك سجلا بمحتوياتها كما جعل اهتمامه باللغة القبطية عمليا فألف لجنـة من عريان جرجس مفتاح والقس تـكلا والمعلم قزمان وبرسوم ابراهيم الراهب لتضع لها كتبا لتدريسها وأمر بادخالها فى منهج المدارس القبطية (٢) .

---

(١) Lembridgs Gnedieval Hvrtory Vol· iI.

(٢) الدليل العام للأقباط والمسيحيين فى الامة ص ١٨١ .

ومات الانبا كيرلس الرابع فى ظروف غامضة فى ٢٣ طوبة سنة ١٥٧٧، الموافق الاحد والثلاثين من يناير سنة ١٨٦٢ ولم يتسن للأقباط أن ينتخبوا بطريركا جديدا خلال مدة قصيرة فاختـــير الانبا مرقس مطران البحـــيرة والاسكندرية قائمقاما بطريركيا . واراد سعيد أن يتدخل فى انتخاب البطريرك ليصير ذلك تقليدا تتدخل الحكومة بمقتضاه فى اختيار كل من يعتلى هـــذا المنصب الرفيع :٥،

وما أن شاع الخبر حتى وقف الاقباط كلهم معارضين هذا الامر الذى سوف :

أ ــ يسلبهم حق انتخاب البطريرك بملء حريتهم الامر الذى جروا عليه منذ القرن الخامس .

ب ــ يخالف تقاليدهم فى انتخاب البطريرك من طائفة الرهبان .

جـ ــ يخالف قوانينهم الصريحة فى عدم انتقال أسقف الى منصب آخر مهما كان رفيعا (١) ووقف المسيحيون فى وجهه واجتمع المجمع المقدس واصدر قرارا

---

(١) (ايما أسقف ترك كرسيه وعمله وابروشيته وما يعنيه من تدبير شعبه ومضى الى غير بلده ولو كان محتاجا مضطرا أو مضرورا فلينف . ويلق من درجته) .
المادة ١٣ من قوانين الرسل .
ب ــ (أمرنا ان لا يتعدى الاسقف من نفسه ولا القس ولا الشماس أن ينتقل من موضعه الذى سيم عليه ورسمه باسمه. فمن خالف لما رسمناه وتجول من موضع الى موضع وجبنا عن رايه ويعود الى موضعه راجعا . ولا يتجرأ على مقاومة الكنيسة والتعدى على سنتها وحرمنا . فانه لا بأس من سوء العاقبة من الله . وقد جعلناه تحت السنودس المقدس . وحرمه وسيأتى عليه سخط الله عاجلا) القرار الخامس عشر من قرارات مجمع نيقية سنة ٣٣٥م.
جـ ــ (لا يجوز لأحد من الاساقفة أن ينتقل من ابرشيته الى أخرى) .
د ــ (السيف أو النار أو الرمى الى الاسود أو النفى أو السبى لايغلبنى فلست ادخل تحت مالا يجب ولا ادخل تحت حرمى . الذى كتبته وبدات به ان لا يصير اسقف بطريركا) .
(قرار الانبـــا ميخائيل بطريرك الاسكندرية السادس والاربعين . تاريخ البطاركة جـ ١) .

بحرمان الاسقف الذى يتطلع الى منصب البطريركية أو يسعى اليه (١) ولما مات البطريرك ديمتريوس سنة ١٨٧٠ أراد اسماعيل باشا ان يعيد الكرة وبنجح فيها فشل فيه سابقيه فاختير الانبا مرقس مرةأخرى قائمقاما بطريركيا والبس اسماعيل المحاولة الثانية ثوب القانون . واوعز الى وهبة بك رزق باشكاتب ديوان المالية أن يجمع من الاقباط تزكية بذلك ونجح وهبة بك فى التأثير على بعض الناس الذين كانوا يخافون نوة اسماعيل . وكاد الأمر أن يتم وفق ما يشتهى . ولكن الاقباط وقفوا هذه المرة أيضا كما وقفوا فى المرة الاولى واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا بحرمان كل من يتولى المنصب من الاساقفة (٢) .

واحتاجت مشروعات اسماعيل الى عدد كبير من الموظفين ليشغلوا الوظائف فى الجهاز الحكومى الواسع الذى أنشىء فى مصر فاشتغل فى هذه الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . وكانت بعض الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . حتى رأينا عزمى باشا يشغل وظيفة رئيس الديوان الخديوى وجرجس بك الفيشاوى يشغل سكرتيريته .

كما شهد السودان خلال هذه الفترة نشاطا ليس أقل مما شهدته مصر . فان الجهود التى بذلت فى السودان خلال هذه الفترة (١٨٦٣ — ١٨٧٨) جعلتها من أهم الادوار فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر (٣) واستوعبت هذه الوظائف كثيرين من الاقباط الذين بلغوا فيها مبلغا كبيرا من الرقى .

---

(١) كل من يطلب رتبة البطريركية من الاساقفة أو المطارنة . أو أصحاب الكراسى أو سعى فيهما أو رضى بها . أو أحد سعى له فى شأن يطلبوه لها . كاهن أو رئيس كهنة أو علمانى يكون محروما) .

قرار المجمع المقدس للكنيسة القبطية فى ١٥٨٥ ش .

(٢) قد تحقق ان المنتخب للبطريركية الا يكون الا بكرا . وان كان له بعض مراتب المذبح لا يكون أكثر من كاهن . وان بطاركتنا المائة والحادى عشر ليس منهم من كان أسقفا على ابروشية وتركها وان القانون منع انتقال الأسقف من كرسيه) .

(٣) مصر والسودان ص ٩٨ .

وكان السودان يتبع ادارة خاصة فى القاهرة حملت اسم (ادارة السودان) عين لها ابراهيم روفائيل الطوخى رئيسا فى سنة ١٨٧٣ وظل بها حتى سنة ١٨٨٢ حين منيت مصر بالاحتلال البريطانى ولم يتركها حتى عمها الاضطراب فلم تمض بضعة أشهر حتى استدعى اليها مرة ثانية ليبقى بها الى سنة ١٨٨٤ واذا ما انشئت المحاكم الاهلية عين قاضيا بمحكمة الاستئناف الاهلية وله فوق ذلك مؤلفات دينية عديدة .

وعلى شاكلة ابراهيم الطوخى رأينا كثيرين يتولون مناصب هى موضع الحسد من كثيرين كما فعل ميخائيل بك شاروبيم الذى كان سكرتيرا خاصا لاسماعيل باشا صدقى حتى سنة ١٨٧٦ حين نقل وكيلا لمصلحة الجمارك ثم مديرا لجمرك دمياط والى نسيم بك شحاتة كبير كتاب مصلحة السكك الحديدية يعزى فضل تنظيم أعمالها الكتابية والحسابية على قواعد علمية عالية . واليه أيضا يعزى فضل انشاء نظام ادارى دقيق للترقية يقضى على كل اثر للمحسوبية ويجعل الترقية على أساس الكفاءة ليس غير . فكان ذلك موضع اعجاب الوزير الذى اثنى عليه لدى اسماعيل وطلب له الرتبة الثانية فأنعم عليه بها . ونقل الى ادارة الخزانة العامة بوزارة المالية (١) .

ووصل بعض الاقباط الى مناصب مديرى المديريات وهو منصب يعتبر نيابة عن الخديوى ومن أمثال هؤلاء جرجس بك وصفى الذى كان مديرا للمنوفية وعوض بك سرور الذى كان مدير القليوبية (٢) .

وقد ساهم الاقباط فى النشاط الكبير الذى شمل نواحى الزراعة والصناعة . ولم تكن هذه المساهمة يسيرة بل كبيرة الأثر حتى اقتنى كثير منهم ثروات يحسدون عليها وقد شهد كثير من السياح الأجانب الذين زاروا

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٤ ص ٧٥ .
(٢) محاضر المؤتمر المصرى فى القاهرة سنة ١٩١١ .

مصر فى السنة الاولى من الاحتلال البريطانى ثراء كثير من الاقباط فى أسيوط وقالوا ان هذا الثراء يبدو فى عمائمهم البيضاء النظيفة وملابسهم الغـــالية وسلوكم الراقى وتعبيرهم المؤدب مما أعطاهم مكانا اجتماعيا مرموقا (١) كما شهدنا كثيرين من الأعيان الذين تولوا مكان الزعامة فى قراهم أمثال بشارة عبيد بقنا ومقار تادرس ومشرقى عبد النـــور بجرجا (٢) بل رأينا عائلات استطاعت بفضل تعاون أفرادها ان تمتلك مئات الافدنة بل الآلاف تستغلهـــا فيما يعود بالمنفعة عليهم وعلى من حولهم من الفلاحين وعلى بلادهم مثـــل عائلتى ويصا وشنودة وحنا ميخائيل بأسيوط (٣) والبطارسة جرجا (٤) وتكلا ى بهجورة (٥) وطلب اسماعيل من هذا الأخير أن يشغل وظيفة ناظر تقـــلم قضايا مديرية جرجا فنزل عند ارادته .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذا العهد على الميدان الحكومى أو الزراعى فحسب بل اتجهوا الى الناحية الثقافية أيضا وساهموا فيها بنصيب لا ينكر ففى سنة ١٨٧٨ أنشئت مدرسة الاقباط الصناعية لتنيح للبلاد ما تحتاجه من مهرة الصناع المثقفين وذلك بفضل عالم كبير هو وهبى بك الذى اتجه الى فائدة مواطنيه عن طريق التأليف فوضع عدة كتب للدارسين مثل العقـــد الانفس فى ملخص التاريخ المقدس) (والتحفة الذهبية فى تقريب اللغـــة الفرنسية) و (ارتشاف الراوى فى صرف النحـــو الفرنساوى) ويبدو أن الكتابين الاخيرين وضعا لمساعدة دارسى اللغة الفرنسية .

ولما كان متبحرا فى اللغة العربية الى جانب تبحره فى اللغة الفرنسية فقد طلب العلم فى الأزهر (٦) فوضع « الخلاصة الذهبية فى علم العربية » فكان أول كتاب فى النحو كما وضع « مرآة الظرفى فن الصرف » كمـــا اقبل على

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٧٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٨١ .
(٤) نفس المصدر ٨٦ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٤ جـ ٣ .
(٦) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٤ .

نظم الشعر فأجاده حتى لقد ترجم شعر لرواية تمثيلية هى رواية « تليماك » بل يعزى اليه فضل أول رواية تمثيلية عربية « التوفيق فى قصة يوسف الصديق » وقد مثلت على مسرح الاوبرا وحضرها الخديوى توفيق واثنى على مؤلفها . وكان هذا التشجيع داعيا له لأن يندفع فى تيار التأليف فوضع « الأثر النفيس فى تاريخ بطرس الاكبر ومحاكمة الكسيس » التى مثلت كذلك فى نفس الدار فى عهد توفيق كذلك (١) .

وتولى منصب البطريركية هذه الاثناء الانبا ديمتريوس (١٨٦٢ — ١٨٧٠) ثم كيرلس الخامس (١٨٧٤ — ١٩٢٧) وقد كان الاول شديد الاهتمام بالناحية الثقافية فتابع اثر سلفه فى الاهتمام بمدارس الاقباط حتى بلغ عددها فى نهاية حكم اسماعيل اثنتى عشرة مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر القديمة وواحدة فى الجيزة ومدرستين بالاسكندرية يتعلم فيها الطلبة القبطية والعربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والحساب ومبادىء الهندسة والتاريخ والجغرافية وبعض المنطق وأناشيد الكنيسة وذلك خلاف مدرسة أكليركية (٢) يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبى الكهنوت اللغة القبطية والعربية والالحان الكنسية . وكانت أهم هذه المدارس المدرسة البطريركية وقد بلغ عدد طلبتها فى سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وتسعة وسبعين طالبا منهم ثلاثمائة واثنين من الاقباط . كان عدد تلاميذ حارة السقايين والاخرى بجانب الازبكية وكان فى الاولى خمس وأربعون بنتا وفى الثانية ما فوق ذلك (٣) وقد عرفت الحكومة فضل هذه المدارس فكان رفاعة بك يحضر سنويا لامتحان طلبتها وتقرر اعفاؤهم من الخدمه العسكرية (٤) ووهب لهم اسماعيل ألفا وخمسمائة فدان هى تفتيش رأس الوادى لينتفعوا بريعها وظل هذا التفتيش وقفا عليها حتى أواخر أيامه حينما رأت لجنة التصفية

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٣٤ .
(٢) لم تعش هذه المدرسة طويلا بسبب ضعف مواردها المالية .
(٣) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل جـ ١ ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٤) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٣٤ .

الاستيلاء على أملاك اسماعيل علاجا لمسألة الديون والحق ان الاقباط اقبلوا على التعليم فى نهم غريب خلال هذه الفتـرة من تاريخهم حتى لقد وصلت نسبتهم الى مجموع عدد الطلبة فى المدارس الاميرية الى ٦٦ ٪ .

ولكن يبدو ان المؤرخ نسى مدرسة أخرى للأقباط وهى مدرسة الخياط الواصفية بأسيوط وهى التى انشأها فى سنة ١٨٦٧ واصف خياط فكانت بذلك المدرسة الرابعة للبنات فى مصر ثلاث منها للأقباط ورابعة حكومية وقد تولى الانفاق على هذه المدرسة بسطوروس خياط ومن بعده ابنه أمين خياط ثم أنجاله واصف وشكرى خيـاط وجدد بناء هذه المدرسة امينة خياط وهده المدرسة وان كانت تعلم البنات نظير مصروفات الا انها كانت منخفضة وكان ربع عدد الطالبات ينعلمن بالمجان وتقوم احدى سيدات عائلة خياط بسد العجز سنويا دون أن نلجأ الى جهة حكومية أو أهلية (١) .

واذا ما أراد للبطـــريرك ديمتريوس أن يزور المسيحيين فى الصعيد ليتفقدهم (٢) كما يتفقد الراعى رعيته وضعت الحكومة تحت تصرفه باخرة نيلية وامرته أن يستقبل فى كل البلاد التى ينزل بها استقبالا رسميا .

وفى ظل سياسة المساواة التامة بين المصريين اقبل الاقباط على بنـاء الكنائس حينمـــا أرادوا دون أن يتطـلب الامر اذنا أو تصريحـــا بل لم يجد بعض الاقباط حرجا فى بناء المساجد ووقف الاوقاف عليهـا كما فعل مرقس بك يوسف الذى انشأ فى طنطا كنيسة سنة ١٨٦٥ ومسجدا فى بلدة جنـاح .

وقد ساهم الاقباط أيضا فى هذه اليقظة الفكرية التى شملت مصر فى نهاية عصر اسماعيل وكان اسهامهم فعالا فقد اسس ميخائيل عبدالسيدجريدة الوطن سنة ١٨٧٨ وعمل جرجس ميلاد مديرا لهـا وكان الاخير متضلعا فى

---

(١) أهرام ١٩٥٧/١١/٨ .
(٢) السنكسار ١٠ بؤونة .

اللغة الانجليزية داعيا الى انتشارها وقد أثر عن هذه الجريدة فهمها للتطورات السياسية الخارجية وعمق بحثها لما تتناوله من موضوعات . فقد انتهزت فرصة الحرب البلقانية الاولى (١٨٧٥ ــ ١٨٧٨) لنشرح تاريخ الروس وجغرافية بلادهم وأسباب الحرب مشيرة الى موقف الروس من الدويلات العثمانية فى أوربا الشرقية وأحقية هذه الشعوب فى الحرية التى تسعدها والدستور الذى تلح فى طلبه والمذاهب السياسية الجديدة التى تقف تركيا دون تحقيقها ووالت الجريدة تتبع هذه الحرب وقرنت أخبارها ببحوثها العميقة حتى أضحت اعدادها سجلا لأطوار الحرب (١) واذا ما طلبت الحكومة التركية من الحكومة المصرية مناصرتها بارسال الجيوش المصرية ورفضت الحكومة المصرية هذا الطلب بحجة قصور الميزانية وقفت الوطن تؤيدها دفاعا عن الاستقلال المصرى الذى حصل عليه اسماعيل بفرماناته المتعددة . واذا ما اقترحت الصحف البريطانية على حكومتها احتلال مصر لتمنع انتشار النفوذ الروسى اليها قصدت لها جريدة الوطن تندد بهذا الموقف الاستعمارى وتنبه الأذهان الى ما يحاك من الدسائس من أجل الانقاص من الاستقلال المصرى (٢) .

ولم تقف جريدة الوطن هذا الموقف لعدائها ولا لصداقتها لروسيا بل وكانت تنظر الى مصلحة مصر وحدها فما أن انتهت الحرب ووقفت روسيا فى مؤتمر برلين تحاول أن تنقض على تركيا فتقترح مساهمة مصر فى تسديد الغرامة الحربية التى فرضت على تركيا بسبب هزيمتها حتى تصدت جريدة الوطن لتدافع مرة أخرى عن مصر المستقلة وبعدها عن الشئون التركية بعد فرمان سنة ١٨٧٣ (٣) .

واذا كانت جريدة الوطن قد وقفت هذه المواقف المشرقة وكانت كلها فى صف اسماعيل خديو مصر الشرعى فانها لم تتردد فى التعريض به وبحكمه

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٧٥ .
(٢) الوطن مارس سنة ١٨٧٨ .
(٣) تطور الصحافة المصرية ص ٧٨ .

الاستبدادى وانتهزت فرصة تعيين الوزارة النوباريه لتشرح مساوىء العهد القديم فى تفـــريره ضرائب (غير مقررة ولا جائزة ولا مبررة) وحملت على الموظفين الذين (اثروا من فقر الفلاح حتى اصبحوا من اهل اليسار والثروة وصارت فى حيازتهم أخصب الأطيان) ورجعت بالوزارة النوبارية كمظهر من مظاهر تقييد سلطة الخديوى (١) .

ولم تكن جريدة الوطن كما لم يكن الاقباط مرحبين بالنفوذ الاجنبى الا على أنه واسطة لاصــــلاح الخلل الذى إنتشر فى ظل حكومة اســـماعيل الاستبدادية ولكنها لم تتردد فى الوقوف فى وجه هؤلاء الأجانب اذا ما رأتهم يحاولون فرض سلطتهم واستغلالها لنشر نفوذهم فحملت الجريدة على كل من المستر ولسن المراقب البريطـــانى والمسيو دوللنيار المراقب الفرنسى حينما أراد شغل بعض المناصب الكبرى بالبريطانيين والفرنسيين وذكرت ان ذلك سيحرم أبناء الوطن المتعلمين من حقهم فى مناصب بلادهم (٢) .

واذا كان الوطن قــد رحب بوزارة نوبار التى سوف تتحمل المسئولية فى حكم البلاد فانها لم ترحب بالمسئولية الوزارية لذاتها بل رحبت بها لتكون مقدمة لمـــا هو اجل واعظم (ليست هناك نائدة مطلقا من هذه المسئولية ما لم يكن هناك مجلس نواب الذى هو الزم لمصر من لزومه للدول الأوربية) لأن الوزارة المصرية مختلطة.وهؤلاء الوزراء الاوربيون سوف يقدمون مصالح بلادهم على المصالح المصرية فمجلس النواب هو القـــوة التى توقف هؤلاء الأجانب عند حدهم وتلزمهم انتهاج سبيل خدمة مصر وتقديمها على مصـــالح دولهم (٣) .

فاذا كانت جريدة الوطن ومن ورائها الاقباط قد أيدوا اسماعيل فانهم لم يفعلوا الا حين رأوا مصلحة وطنهم تقتضى هذا التأييد واذا ما عادوا بعد ذلك فنقدوا اسماعيل مؤيدين التـــدخل الاجنبى ثم انتقدوا هـــذا التـــدخل

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ .
(٢) الوطن ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ .
(٣) تطور الصحافة المصرية ص ٨٦ .

آخذين يضحى بمصالح مصر فانهم لم يكونوا فى ذلك الامصريين قوميين يبحثون عن مصلحة مصر وحدها فيقفون لهـا مدافعين عنها واذا كان التاريخ قـد سجل لاسماعيل فخر انشاء أول مجلس نيابى فى مصر الحديثة فان الاقبـاط كانوا من ورائه يطلبون هذا الطلب ويلحون فيه ويبتهجون لتحقيقه وأذا كتب لمصر يوما أن تؤرخ تاريخها الدستورى وتسجل للأبطال الذين سـاهموا فى الثورة على استبداد اسماعيل والمطالبة بالحكومة الديمقراطية الدستورية فان اسماء ميخائيل عبد السيد وجرجس ميلاد يجب أن تكون فى مقدمة هذه الأسماء ، فقد كانت جريدتهم هى التى عالجت شئون مصر من وجهـة نظر مصرية بحتة متخطية جميع الصـعاب الرسـمية من انذار وتعطيل فتحدثت عن مساوىء الحاشية والوزارة النوبارية معـا وهاجمت الأجانب ووزيريهم وشجعت مجلس النواب وأتاحت فرصة الظهـور وأمدت رجاله بالرأى السديد وناقشت أموره الفقهية كواجب انتخاب رئيسه لا تعيينه وحق المجلس فى فرض الضرائب ومسئولية الوزارة أمامه كما بحثت فى وجوب فرض الضرائب على الاجانب وخاصة (الوزيرين اللذين يتقاضيان آلاف الجنيهات من شعب مفلس) (١) واذا ما عزل اسماعيل رحب الوطن بهذا العزل وذكرت أن الله جلى عن الأمة الظلم والغمة (٢) .

ولأجل حسن ادارة ما بيد الاقباط من أملاك عرض الانبا مرقص مطران البحيرة على اسماعيل تشكيل مجلس ملى من أبناء الأمة يتحد مع البطريرك ورجال الاكليروس فى نظـر ادارة الأوقاف فأجيب الى طلبـه وصدر الأمر بانتخاب اثنى عشر عضوا أصليا واثنى عشر نائبا فكان أول مجلس ملى فى مصر . ولكن لم يلبث الخـلاف أن أودى به وصدرت اللائحة به فى العشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ عمله بتوليه اصـلاح المدارس والبت فى قضايا الاحوال الشخصية واصلاح الكنائس والاوقاف .

وجاءت الثورة العرابية فاشترك الاقباط فيها جنبا الى جنب مع بقية الأمة فقد رأوا فى عرابى البطل الذى يحاول ابعاد النفوذ الاجنبى (٣) ودفع الطغيان

---

(١) الوطن ٥ يوليو سنة ١٨٧٩ .
(٢) جريدة مصر عدد ١٨٨١٩ فى ١٩٦٤/١١/١٣ .
(٣) Egypt and Egyptian Question p - 106

الخديوى (١) .

ومن الطبيعى أن يكون الجيش جنودا وضباطا مكونا من أبناء الأمة دون تفرقة فى دين أو مذهب فقامت الجرائد المصرية وبينها جريدة الوطن تذكر علو همة الضباط الثائرين وعدالة مطالبهم ثم تلح فى وجـوب اتفاق الحـكومة والشعب على انشاء برلمان مسئول يجعـــل غايته أن تكون مصر للمصريين وحدهم بعد أن رات المناصب العالية مغلقة فى وجوه المصريين مع أن مصر مهما بلغت بها الحال ملك للمصريين فأشادت بموقف المويلحى عضو مجلس شورى النواب حين وقف ليعترض على مرسوم رياض باشا بحل المجلس ويؤكد أن النواب مصممون على دوام انعقاد المجلس ورات الجريدة أن من واجبها أن تذيع على الناس ذلك الموقف ليشهدوا المعـــركة بين الاستبداد والحرية كما ألحت فى اطلاق حرية الصحافة وسن قانون لها ينظم امورها (٢) واذا ما اقيلت وزارة الثورة عقب المذكرة المشتركة اشترك بطريرك الاقباط الانبا كيرلس الخامس مع غيره من رؤساء الدين فى التوجه الى الخديوى برجاء الابقاء على عرابى لانه الوحيـد القـادر على حفظ الامن واذا ما ادلهمت الأمور اشترك الفلاحون والاقباط فى تزويد الجيش بمـا يحتاجه من مختلف المؤن فكان تادرس بك شنوده المنقبادى يعمل معاونا لوابورات النيل فى أسيوط فعمل على تشغيل جميع الوابورات لنقل العساكر والمهمات الحربية من الوجه القبلى الى أسيوط التى كانت نهاية الخط الحديدى وكان عرابى يتصل به راسا لثقته به (٣) .

كما انهالت التبرعات على عرابى من أعيان البلاد وكان بينهم عدد كبير من اقباط الصعيد (٤) فقد كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينجح عرابى فى طرح سلطة كل من السلطان والخديوى لأنهم كانوا يرون أن اشتراك أكثر من طباخ لابد أن يؤدى الى حرق الطعام (٥) .

---

(١) انجلترا والجلاء عن مصر (يوسف خليل) ص ٢٠ .

(٢) تطور الصحافة المصرية ص ٨٩ .

(٣) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٥ .

(٤) Egypt and Egyptian Question p - 106

(٥) Egypt and Egyptian Question p - 107

وكأنما أراد أعداء الحركة ان يشوهوا من جلالها فأشاعوا ان الغرض الحقيقى لعرابى انما هو دفع المسلمين الى الاستيلاء على أموال النصارى . فكان من أثر ذلك ان اندفع بعض الغوغاء يحاولون الاستفادة من هذه الفرصة الا أن عرابى بادر بمقاومة هذه الحــركة التى تعارض القومية وتؤدى الى انهيارها فأرسل الاوامر المشددة الى المديرين بالمحافظة على أموال الاقباط وحياتهم ولم تكن هذه الازمة اليسيرة بصارفة الاقباط عن بذل العون لهذه الحركة المباركة فاستمروا فى مدها بما يملكون (١) .

وليس أدل على التعاون والتآزر والحب بين أبناء الوطن من أن يؤلف بطرس غالى الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ فيقــوم بالخطابة فى حفل افتتاحها الشيخ محمد عبده واشيخ محمد النجار وعبد الله النديم (٢) .

الباب الخامس

عهد الاحتلال البريطانى

وجاء الاحتلال البريطانى فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ فخسرت مصر استقلالها المجدد . وضاعت على مصر جهود ثمانين سنة بذلت فيها ما فوق طاقتها من الدم والمال . وخسرت امبراطوريتها الواسعة . فقد كانت مؤامرات الانجليز هى التى أضاعت السودان بعد ان أصبحت أمور مصر تدار من لندن (١) . وتقاطر الناس هناك على المهدى يبايعونه بالزعامة بعد أن أيقنوا ان زمام الأمور فى مصر أصبح فى يد جماعة من (الكفرة) يديرونه كيف يشاءون (٢) لا لغرض اسعاد الأهالى بل لغرض سحق الاسلام .

وبذلك أصبحت مصر ذات مركز دولى شاذ فهى تحت السيادة العثمانية اسما بمقتضى فرمانى سنة ١٨٤١ وما تلاهما من فرمانات امتدت حتى سنة ١٨٧٣ بينما لا تملك هذه الدولة من أمر مصر شيئا . والسلطة فيها فى يد أصحاب احتلال غير شرعى . ينادى أصحابه بعدم شرعيته (٣) ويعدون بالجلاء فى أسرع فرصة لما تستتب الأمور ولكن تقدير هذا الاستتباب راجع اليهم وحدهم بينما المصريون تواقون الى التخلص من هاتين السيادتين سواء الاسمية أو الفعلية كى يتمتعوا باستقلالهم وقوميتهم كاملتين .

ومنذ اللحظة الأولى اتجهت سياسة المحتلين الى تضييع القومية المصرية وهدمها وكانت خطواتهم فى ذلك سريعة ولكنها وطيدة . فالغى

---

(١) تلغراف جرانفل الى بارنج رقم ٦ سرى فى يناير ١٨٨٤ .
(٢) مصر والسودان ص ١٥٣ .
(٣) انجلترا والجلاء عن مصر ص ٢٩ و ٣٠ .

الجيش الوطنى وسرح أفراده فعادوا الى قراهم يملأ نفوسهم السخط على هؤلاء المحتلين ، كمــا بدء فى انشــــــاء جيش جديد لا يزيد عن أن يكون قوة بوليسية لا يصلح أفرادها للعمل خارج الحـــدود المصرية (١) يسيطر عليــه ضباط بريطانيون . وليس أذل للقومية من تسلط أجانب على جيش وطنى . ولكن أدهى من ذلك هو محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد حين تحببوا الى الاغلبية ليظهروا أنفسهم بمظهر الآخذين بيدهم الناصرين اياهم ضد الأقلية (المتطفلة) .

ولعل أقرب طريق الى سحق القومية المصرية هو محاولة جانزة البلاد أى صبغها بالصبغة الانجليزية وقد ظهر ذلك واضحا فى الغــــاء المدارس الوطنية بحجة الاقتصاد فى النفقات من أجل اصـــــلاح المالية فوجهوا أولى ضرباتهم الى المدارس التى تحيى الشخصية وتنبه القـــومية وهى المدارس العالية كما الغيت المدارس الثانوية الحكومية أيضا واذا كان قد بقى بعد ذلك التعليم الابتدائى فقد أصبحت الانجليزية لغة التعليم فيه ، ثم ملئت الوظائف العالية بالانجليزية ليوجهوا سياسة البــلاد وفق مصالحهم . فكان أن عين المستشارون البريطانيون فى الوزارات المختلفة خصوصا وزارة المالية بعد ان الغيت المراقبة الثنائية ووزارة المعارف لتوجيه الشباب والتحكم فى نزعاته . فلم يعد المصريون الا مجرد آلات تنفذ أوامر الاسياد الجدد . ولا بد ان يحتاج هؤلاء المستشارون الى من يعاونهم ويهيىء لهم العمل .

فانبث البريطانيون فى جميع أجزاء الجهاز الحكومى.وكان أظهرها جهاز الامن الداخلى . فجعل منهم المفتشون فى المديريات . مع بقاء المديرين من المصريين وعلى عاتق هؤلاء تقع التبعة أمام الشعب ، بينما المفتش هو الذى يوجهه كما أصبح رؤساء هذه الادارة (رؤســـاء البوليس) من البريطانيين أيضا .

---

(١) Britirh Policy In Sudan p - 89.

وفرضت الرسوم العالية على التعليم وأصبح على الطالب الذى يرغب فى الانتظام فى سلك التعليم أن يدفع مصروفات اخذت تزداد مع سنوات الاحتلال فقد بلغت فى سنة ١٨٩٠ ما يقرب من ١٧ الف جنيه ووصلت عام ١٩٠٤ الى ٧٦ الف جنيه وكان معنى ذلك ان لا يستمر فى التعليم سوى أبناء القادرين الذين يمثل كبار الملاك عمودهم الفقرى وكانت نسبة الطلبة المجانيين فى سنة ١٩٠٢ فى المدارس العليا ٦٣ ٪ نقصت الى ١٨ فى المائة فى سنة ١٩٠٣ والى ١ ٪ فى سنة ١٩٠٤ واختفت تماما فى العام التالى (١) .

ولم تكن بريطانيا بالدولة الغريرة التى تتهاون فى فرصة اتاحتها لهـــا الاقدار وأتاحها لها سعيها المتواصل طوال السنين الماضية فمضت فى تثبيت اقدام الاحتلال فى مصر فأقنعت المصريين ان تركهم لمصر سوف ينيح للمهديين فرصة غزو مصر من الجنوب تنفيـــــذا لبرنامجهم الذى رسمه المهـــدى لأنصاره (٢) خصوصا بعد أن فقدت مصر جيشها القديم فى موقعـــة شيكان وأصبح جيشها الجديد لا يزيد عن قوة بوليسية . ولم يكن ملأ الحـــــكومة بالبريطانيين الا وسيلة أخرى من وسائل تثبيت الاحتلال . الى جانب تحببها وتقربها الى الشعب وذلك بأن تركت للموظفين المصريين يدبرون الامور وفق ما يشتهون على أن يتقدم البريطانيون لاصلاح ما يقعون فيه من أخطاء فكان مفتش الرى ومفتش الداخلية البريطانى هما صماما الامن فى نظر الفلاحين المصريين كما أعلن السير افلين بارنج ان بابه مفتوح لكل شكوى وكانت وسيلتهم فى ذلك دعايات ضخمة بواسطة الجرائد التى أخذوا فى انشائها كالمقطم الذى اغروا أصحابه ورئيس تحريره بأن ينقله من الســـــودان الى مصر على أن يدبروا له أمر الاشتراكات . كما لم يكن اصلاحهم نظام الرى فى مصر وتحويلهم رى الحياض الى رى دائم سوى احدى هذه الوسائل أيضا . ولم يكن موقفهم من الخديوى توفيق حين نصحوه بأن يؤلف مجلس شورى القـــوانين سوى محاولة أيضا للتحبب الى الشعب رغم ان هذا المجلس لم يكن الا صورة باهتة للحكم النيابى وكما نجح البريطانيون فى سياستهم هذه نجحوا أيضا فى التقرب

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٦ .
(٢) مذكرة شريف باشا الى بارنج فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ .

الى الاجانب بالعمل على تنظيم دفع الديون وكانت هذه مشكلة المشاكل أمام الدائنين كما عملت على تشجيعهم على القدوم الى مصر والعمل بها .

وكان موقف المصريين من هذا كله موقفا سلبيا بعد أن وجدوا جيشهم يسرح وزعمائهم ينفون . والخديوى يسلم لهم بكل شىء فى ذلة وخضوع . فكانوا مأخوذين بهذه القوة الجبارة التىاستطاعت أن تكتسح كل شىء أمامها. فاستكانوا الى الواقع . ولم تبدأ هذه الغمة بأن تنزاح من عقولهم الا بعد سنين من الاحتلال حين نمت طبقة المثقفين فقام مصطفى كامل يحاول بحركته أن ينبه أذهان المصريين الى ما كانوا عليه والى ما هم سائرون اليه . ونجح مصطفى كامل فى هذا التنبيه بعض الشىء وان لم يلق التأييد من جميع الطبقات لما شاب حركته من نقائص . وحين التف حوله بعض الاجانب الذين اضروه أكثر مما افادوه .

وفى سنة ١٨٩٦ أتاح لانجلترا مركزها فى مصر أن تمد نفوذها الى السودان . واخذت تشق طريقها نحو جنوب افريقيا ولم تقف فى وجهها محاولة فرنسا الهزيلة التى وقفتها فى فاشودة . وفى هذا القطر الجديد وجدت انجلترا مجالا جديدا لعدد من الموظفينالبريطانيين بثتهم أيضا فى جميع المراكز الرئيسية حيث استطاعت أن تدعى انها هى التى نشرت الحضارة الجديدة فى ربوع السودان . بعد أن قضت على الحكم الوطنى الفاسد هناك واخذتتقود السودانيين نحو المدنية الأوربية . وتقضى على تجارة الرقيق وتفتح أنحاء السودان للاستغلال الاقتصادى الحديث . كسبت انجلترا كل هذه المكاسب رغم مركزها غير الشرعى فى مصر وان حاولت ان تسبغ عليه بعضالشرعية. حينما عقدت الاتفاق الفرنسى البريطانى فى سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق كانت بريطانيا نفسها أول من اقتنعت بعدم جدواه فى تصحيح مركزها فى مصر .

واذا ما قامت الحرب العالمية الاولى . ارادت انجلترا أن تحاول هذا التصحيح مرة أخرى ولكنه كان تصحيحا كمن يحاول ستر جريمته بارتكاب جريمة أخرى . فأعلنت عزل الخديوى واعلان الحماية البريطانية على مصر وكان عزلا لم يقره الشعب وكانت حماية من جانب واحد فلم تكن عدم شرعية هذين الاجرائين الجديدين بأقل من عدم شرعية الاحتلال .

واستغلت انجلترا فرصة وجودها فى مصر فجندت الامكانيات المصرية فى سبيل قضيتها واستولت على المحصولات المصرية بالاثمان التى تروقها ودفعت المصريين الى (التطوع) فى جيشها المحارب كما استغلت أرض مصر ومياهها لاجل مصالحها [illegible] وهيأ لها مركزها فى مصر أيضا أن تدخل الشام وأن تتفق مع الملك حسين بن على فى الحجـاز . وأن تسيطر على شرقى البحر المتوسط ونتيجة الحرب [illegible] التى دفعت [illegible] ثمنه [illegible]

فكان هذا العصر نكسة أصابت القومية المصرية فى الصميم وعادت بالبلاد الى الحالة التى تركتها فى بداية القرن التاسع عشر وهى حالة التبعية الى دولة قوية دون أن يملك أهلها من أمرها الا الخضوع والاستسلام ولا غرابة اذا نظر المصريون الى هذا العصر كأحلك فترة من تاريخهم الحديث .

واذا كانت هذه الفتـرة سوداء حالكة على المصريين فهى على الاقبـاط [illegible] وكان عددهم فى سنة [illegible] جميع بلاد القطر [illegible] فى الوجه القبلى [illegible] الوجه البحرى [illegible] هناك بعض المدن التى تميزت بوجود نسبة كبيرة [illegible] نقادة (١) [illegible] أبنائهم فى المدن الكبرى [illegible] الخيوط والاشغال الدقيقة والساعات (٢) [illegible]

وحين احتل الانجليز مصر كانت هناك نسبة كبيرة من الوظائف فى يد الأقباط (٣) خصوصا ما كان يحتاج منها الى كفاءة فنية خاصة (٤) [illegible]

واذا كان الانجليز قد عمدوا بعد ذلك الى طرد الموظفين المصريين بحجة [illegible]

(١) بلغ عددهم فى هذه المدينة وحدها فى سنة [illegible] شخصا من مجموع السكان البالغ عددهم ٦٨٠٠ .

(٢) Baedeker's Egypt p XXXIX

(٣) Modern Egypt Vol II p - 207

Ibid p - 143

Egypt and Egyptian Question p 141

(٤) Ten Years In Mahdio 's Captivity p - 60

الاقتصاد أولا ثم لاحلال قلة من الموظفين البريطانيين الكبار مكانهم ثانيا . فقد كان الطرد من نصيب الاقباط أكثر من نصيب غيرهم . واذا كان البريطانيون الجدد قد احتاجوا الى عدد من الموظفين الذين يجيـــدون اللغات الاجنبية لمعاونتهم فى العمل . فقد وجدوا ما فوق كفايتهم فى اللبنانيين والسوريين (١) .

واذا عمد البريطانيون الى تسريح الجيش المصرى القديم فقد أصاب الاقباط جزء من هذا التشريد وعاد الاقباط الى قراهم فلم يجدوا أمامهم الا الجوع والشقاء الا اذا قلنا ان هذا الجيش كان اسلاميا خالصا . وهذا أمر يخالف الواقع جد المخالفة . فقـــد كان شرف الخدمة العسكرية من نصيب المصريين جميعا دون تمييز منذ أيام ســعيد حين أجاب ملتمس البابا كيرلس الرابع فى هذا الشأن كما حرمت المدارس القبطية تفتيش الوادى الذى أوقف عليها فحرمت المورد الذى تعتمد عليه كما سحبت الاعانة السنوية وتدرها مائتان وخمسون جنيها .

ولعل أبلغ الضرر الذى حاق بالاقباط هو ما وقـــع عليهم فى السودان الذى ضاع — كما قلنا — نتيجة للسياسة البريطانية الخاطئة ولم يكن قـــد مضى على الاحتلال أكثر من سنتين ونصف سنة . فقد استولى المهديون على الخرطوم فى يناير سنة ١٨٨٥ ولم يعد للحكومة المصرية نفــوذ هناك . وترك المصريون وكثرتهم من الاقباط لنصيبهم المحتــوم حيث نهبت أملاكهم وسلبت أموالهم بل أن بنـــاتهم وزعن على زعمـــــاء المهدية ومن رفضت قتلت أو انتحرت دون أن تجد من يدافع عنها بل هدمت كنائسهم وأرغمــوا على ترك دينهم (٢) أو التظاهر بذلك واذا كان المهدى قد استخدم بعض المصريين فى الاعمال العامة فقد ترك الاقباط يدبرون أمر أنفسهم ومع كل ما وقـــع على الاقلية من غبن وظلم سواء فى مصر أو السودان قيل عنهم بعد ذلك أنهم كانوا عمد الاحتلال البريطانى فى مصر . وكانت غاية البريطـــانيين من كل ذلك أن يتقربوا الى الاغلبية على حساب الاقلية وهى سياسة يختطها المحتلون فى كل بلد ينزلون به على أمل أن يلجأ هؤلاء المظلومون الى الشكوى فيقوم المحتلون

---

(١) Ibid p - 143

(٢) Ten Years In Mahdio 's Captivity p - 66

بانصافهم ولكن الاقباط كانوا أكثر وطنية من أن يشكو (١) ولذا كان غيظ الانجليز منهم كبيرا فتقدموا الى الاغلبية بمظهر من يرد اليهم بعض ما كان مسلوبا منهم فأعطوهم الحق فى اغلبية وظائف الحكومة بحكم ماكانوا عليه من اغلبية عددية بل عمدوا — عامدين — الى ابعـــاد المســـيحيين عن بعض الوظائف العليا مثل مديرى المديريات ونظـــار المدارس ورؤساء المحـــاكم وباشمهندسى الرى وحكمدارى البوليس وحكيمباشى الصحةبالمديريات ومنتشى الداخلية والمالية ولجنة المراقبة القضائية (٢) بدعوى ان هذه الوظائف تمثل حاكم البلاد المسلم فكان الاحتلال هو الذى بث جرثومة التمييز الدينى للمرة الاولى منذ القرن التاسع عشر ، فكانت نتيجة هــذه الســياسة البريطانية الداخلية ان شعر بعض المسلمين ان المسيحيين لا يستوون فى الحقوق كما يستوون فى الواجبات . الامر الذى يعصف بالقومية ويذهب بهـــا الى غـــير رجعة فأخذوا فى مقاومة هذه الفكرة وكذلك فى مقاومة الاحتلال ولكن بطرقهم الخاصة وكان أهم هذه الطرق أبلغهـــا أثرا هو التعليم .

ففى الوقت الذى أغلقت فيه المدارس الحكومية بحجة الاقتصاد ظلت المدارس القبطية المنهل الوحيد للمصريين يرشفون من مواردها وكانت تنادى بالمساواة على أوضح صورها حين فتحت ابوابهـــا أمام جميع المصريين على اختلاف دياناتهم .

وفى الوقت الذى جعل فيه التعليم الابتدائى الحكومى مقابل مصاريف باهظة ظلت المدارس القبطية تمنح تعليمها المجــــانى لمن يطلبه ولم تقف مدارسها عند حد القاهرة أو الاسكندرية كما كان الحال فى المدارس الحكومية بل انتشرت فى جميع قرى مصر وتألفت الجمعيات القبطية التى تمنح معونتها للفقير والمحتاج لتمنع عنهم ذل السؤال والفاقة . وحفظ ماء الوجه والكرامة من أن تمتهن أولى خطوات القـــومية الصحيحة فتألفت الجمعية الخـــيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ ووسعت نشــــاطها بعد ذلك فأنشأت مشغلها سنة

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

[illegible] تقوم برعايتهن حتى يتزوجن [illegible]

كما أنشئت جمعية التوفيق القبطية فى سنة ١٨٩١ لتنبيه الأمة الى ما يراد بمصر والاقباط وتدعو الى الاصلاح العلمى ولم تلبث ان وجدت فى افتتاح المدارس خير توجيه وأداء لرسالتها فأقدمت عليه وجعلت نسبة كبيرة مجانية من طلبتها . ثم جمعية النشأة القبطية التى كان نشاطها منصرفا الى الوعظ والارشاد . ثم جمعية الايمان التى أنشئت فى سنة ١٩٠٠ والتى ساهمت بقسط وافر فى افتتاح مدارس البنين والبنات ومستشفى الايمان ومستوصف بجزيرة بدران ثم جامعة أشعة حب يسوع التى صارت فيما بعد جامعه المحبة وقد أنشئت فى سنة ١٩٠٥ وكان غرضها تعليم طلبة المدارس الأميرية الدين المسيحى ثم اتجهت الى تعليم البنات الفقيرات مجانا . وفى سنة ١٩٠٨ أنشئت جمعية أصدقاء الكتاب المقدس (١) .

واتجهت جهود هذه الجمعيات أيضا الى التعليم الصناعى بتلقف أبناء [illegible] من خدماته ليقيم ما نزل بآبائهم من عوز [illegible] الصناعية فى سنة ١٩٠٣ وبهـا قسمان [illegible] البطريركية فى سنة ١٩٠٤ وبهـا أقسام الخياطة والاحذية والتجارة والبرادة والخراطة وسبك المعادن والسروجية والسمكرة كما أنشئت مدرسة البنات الصناعية فى سنة [illegible] (٢)

[illegible]

[illegible] من هذا الا بالمال ولا سبيل اليه من الحكومة [illegible] الأيدى الاجنبية فلم ير الاقباط بدا من أن يديروا [illegible] أوقافهم مبعثرة ولاتستغل بطريقة اقتصادية ناجحة [illegible] فى ادارتها فكان انشاء المجلس الملى الأول فى سنة [illegible] مادته السابعة على أن يكون اختصاصه النظر فى

---

(١) المدرسة الأكليريكية ص ١٢٠ .

(٢) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٥٤ .

الأمور الدينية المحضة والفصل فى الدعاوى التى تقام على الاكليروس بحسب قانون الكنيسة كما نصت مادته التاسعة والعشرون على أن يكون للمجلس حق ادارة الاديرة الكائنة بمدينة القاهرة وضواحيها . أما أديرة الرهبان خارج القاهرة وضواحيها فيكون النظر فى أمر أوقافها وكذلك ترقية رجال الأكليروس وانشاء المدارس اللازمة لهم من اختصاص البطريرك وأربعة ينتخبهم من رؤساء الاديرة . فيقوم بضبط أوقافها وتحسين ايراداتها وصرفها فيما يعود بالمنفعة حسب شروط الواقفين وحتم القانون على رؤساء الاديرة تقديم حساباتها سنويا الى البطريرك .

وتم انتخاب المجلس الاول فى أول مارس سنة ١٨٨٣ وتألفت من أعضائه أربع لجان هى لجنة الادارة ولجنة المدارس ولجنة الفقراء والكنائس . ولجنة لقضايا الأحوال الشخصية (١) .

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ ص ٩ — ١٣ .

لم تلبث هذه اللائحة ان عدلت فى سنة ١٨٩٢ ومرة أخرى فى سنة ١٩٠٥ وجعل أعضاء المجلس أربعة وعشرين وجعل اختصاصه طبقا للمادة الخامسة (جميع ما يتعلق بالاوقاف الخيرية التابعة للأقباط عموما وكذا ما يتعلق بمدارسهم ومطبعتهم وفقرائهم وكافة المواد المعتاد نظرها بالبطركخانة) .

اما فيما يتعلق بالاوقاف فقد نصت المادة التاسعة على أن عمل المجلس هو :

أ — حصر الأوقاف وقيدها .

ب — حفظ جميع الحجج والتقاسيط وسائر مستندات الملكية .

جـ — طلب كشوفات بيان المتأخرات الموجودة .

د — الحصول على حسابات عن الايرادات والمصروفات والنظر فيها وحفظ ما يكون زائدا من الايرادات وتخزينه بالبطريركية لصالح وقف أهله .

هـ — ادارة الاوقاف المذكورة واجراء ما يؤول منه وتحسين حالتها والنظر فيما يلزم لها من انشاء وتصليح والترخيص باجراء ما يرى لزومه من ذلك كما أجازت له افتتاح مدارس ومكاتب جديدة ومدارس دينية وايجاد كتب خانات وترتيب وتنظيم ما يكون موجودا منها على أن تكون كافة المدارس تحت ملاحظة نظارة المعارف .

فلا غرابة اذا أدى هذا الاصلاح الى الاندفاع فى تيار اصلاحى قوى ظهر أثره أول ما يكون فى الناحية التعليمية . فاذا كانت أول مدرسة ثانوية أميرية انشئت فى الاقليم كانت فى طنطا سنة ١٩١٤ فان المدارس القبطية اندفعت فى أثرها منذ سنة ١٩١٦ وان امتـــازت عنها بتعليم نسبة كبيرة من طلبتهـــا بالمجان .

واذا ما انشىء التعليم العالى اندفع الاقباط ينهلون بل يعبون منه عبـــا فقد وصلت نسبتهم بين طلبته فى سنة ١٩١٠ الى أكثر من ٢٩ ٪ بينما لم تزد نسبتهم فى التعليم الابتدائى الحكومى عن ١٧ ٪ وفى التعليم الثـــــانوى عن ٢٤٫٦ ٪ (١) .

ولم يترك الاقباط المكاتب الاهليـــــة التى كانت تديرها وزارة الاوقاف وتصرف عليها من أوقاف المسلمين دون أن يلتحقوا بها فقد بلغ عدد تلاميذها فى سنة ١٩١٠ (٤٢٩٢) تلميذا كان بينهم ٩١٢ قبطيا وكذلك بعض المـــدارس الابتدائية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف أيضا بلغ عـــدد تلاميذها ١٨٨٧ تلميذا بينهم ٢٤٢ قبطيا أى بنسبة ١٢٫٨ ٪ .

ولكن نوعا واحدا من التعليم العالى لم يرض عنه الاقباط ولم يتجهوا اليه هو مدرسة المعلمين الخديوية فلم يزد عدد الطلبة الاقبـــاط منذ سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٩١٠ أى مدى ربع قرن كامل عن أربعة من الطـــــلاب هذا شىء

= أما من الناحية الاجتماعية فقد نصت المادة الثالثة عشر على أن يقوم المجلس :

١ — بحصر وجمع الايرادات المخصصة للفقراء .
٢ — توزيعها على المحتاجين بالعدل والانصاف .
٣ — صرف ما يلزم لدفن المعدمين وتربية أبنائهم .
٤ — البحث والنظر فيما يترتب عليه زيادة تحسين الايرادات وتحسين حالة الفقراء واجراء ما يؤدى الى ذلك .

(١) محاضر المؤتمر المصرى .

يعاب عليهم .ولعل السبب في ذلك ما كانت عليه وظيفة المدرس فى مدارس الحكومة من ضعف فى المرتبات ولكنهم تناسوا أن المدرس هو منشئ الجيل ولذا كان تعليمهم تنقصه الناحية الروحية ومعرفة الدين الصحيح ، ولعل هذا هو ما يعلل نكبتنا الطائفية الحالية ».

ولكن الاقباط وان عزلوا عن ميدان التدريس فقد اقبلوا على ميدان آخر من ميادين القيادة وهو ميدان الجرائد فقد انشأوا جريدتين هما الوطن لمنشئها ميخائيل عبد السيد التى ظهرت فى أواخر عهد إسماعيل كما مر بنا ، ثم جريدة مصر لمنشئها تادرس بك شنوده المنقبادى وقد ظهرت عام ١٨٩٥ . ولم تكن إحداها طائفية بل كانت شاملة وكانت أنباء الطائفة احدى نواحى نشاطها . كما انشأوا مجلات عدة مثل المفتاح ورمسيس وصهيون والاولى والثانية مجلتان جامعتان شهريتان . كانت كل منهما فيما يقرب من ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط بينما كانت الثالثة قاصرة على بحث الأمور الدينية .

وشئ آخر اهتم الاقباط بانشائه ولم يكن غرضهم فيه ربحا ماديا بل كان ولا يزال مصدر الهام بالقومية المصرية الحية على توالى العصور . ذلك هو المتحف القبطى فقد دأب مرقس سميكة على جمع المخلفات القبطية منذ عام ١٩٠٠ وأفرد لحفظها حجرة بجوار الكنيسة المعلقة بمصر القديمة وما يزال يدأب على هذه المهمة الجليلة وهو يصرف عليها من ماله الخاص حتى استطاع أن يجعل له بناء مستقلا ومازال هذا المتحف ينمو ويكبر حتى ضمته الدولة الى مؤسساتها القومية فى سنة ١٩٣١ بعد أن عرفت اهميته كممثل هام لجزء من تاريخ الحضارة المصرية . ونقلت اليه ما كان بالمتحف المصرى من مجموعاته قبطية نفيسة . وبه الآن — علاوة على قسم المعروضات — مكتبة ثمينة حوت اكثر من ٤٥٠٠ مجلد بين مطبوع ومخطوط كلها فى التاريخ القبطى (١) .

ولقد عرفت الاقباط فى هذا العصر سبب نكبتهم الماضية الا وهو ضعف القادة وعدم وجود الاكليروس القوى الذى يرعى شعبه حق الرعاية ولذا

---

(١) الدليل العام للأقباط ص ٨٩ .

اتجهوا فى هذا الوقت الى خلق الراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ولذا كان انشاء المدرسة الاكليركية عام ١٨٩٣ مظهرا من مظاهر النهضة القبطية الشاملة . ولعل أكبر ما حفزهم على ذلك ما رأوه من نشاط الاساليات الانجايكانية

وأن مدرسة الاسكندرية القديمة التى أسست فى القرن الأول الميلادى التى اخرجت جهابذة العلماء المسيحيين والتى طار صيتها فى أنحاء العالم المسيحى هى صاحبة الفضل الاول فى محاربة البدع والضلالات والقضاء على الآراء الفاسدة التى تخالف التعاليم المسيحية القديمة (١) بل هى صاحبة الفضل الأول فى المحافظة على روح القومية المصرية من أن تمتصها القومية الرومانية . فقد لقيت المسيحية فى الاسكندرية مصاعب لم تلق مثلها فى غيرها من البلاد بسبب ازدحامها بالعلماء الوثنيين الذين تثقفوا فى مدرسة الاسكندرية ثقافات الاغريق الواسعة العميقة والذين ظلوا يجادلون النظريات المسيحية مجادلات مبنية على الفلسفة فعرف المسيحيون حينئذ أن لا سبيل لهم إلى مجادلة الفلسفة الا بمثلها . فأنشئت مدرسة الاسكندرية الاكليريكية ونجحت هذه المدرسة فى تخريج طائفة من الفلاسفة المسيحيين الذين وقفوا أمام الوثنيين وتمكنوا أخيرا من الانتصار عليهم . وفى عهد أكليمندس الاسكندرى وأوريجانوس بلغت هذه المدرسة أسمى درجات التفوق (٢) وفاقت مدرسة أنطاكية . واذا كانت المدرسة قد لقيت الاضطهاد أيام دقلديانوس كما لقبه جميع المسيحيين الا أنها عادت بعده الى رونقها الأول وتخرج فيها كثيرون من ابطال المسيحية الذين قامت على أكتافهم كنيسة الاسكندرية القوية من أمثال البطاركة بطرس ، واثناسيوس ، وكيرلس الكبير وغريغوريوس ، ثم يوليوس المؤرخ واليسيميوس صاحب القانوس اليونانى ، والقديس مكاريوس الملقب بالشاب ، وديديموس الملقب بالضرير . ولعل نجاح اثناسيوس فى مجمع نيقية ثم كيرلس فى مجمع خلقدونية ليمثلان

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٤٢ — ٤٨ .
(٢) نفس المصدر ص ٣١ .

نجاح يمثل هذه المدرسة خير تمثيل .

وقد افتتحت المدرسة الاكليريكية الجديدة فى سنة ١٨٩٣ واختير لها أولا اثنا عشر طالبا علمانيا واثنى عشر قسا وأسندت رئاستها الى يوسف منقريوس .

ولقد كانت الكنيسة فى خلال هذه الفترة تعانى أزمة مالية عنيفة من جراء زيادة المصروفات على الايرادات حتى لقد كانت مرتبات الموظفين تتأخر أكثر من ستة شهور الا ان حماسة الاقباط ووعيهم دفعا بهم الى التبرع للمدرسة بمبالغ لم تكن تخطر على بال أحد حتى لقد تمكن ناظرها من أن يجمع من مدينة اسيوط وحدها أكثر من الف جنيه فى يوم واحد وبلغت جملة التبرعات مبلغا مكن ادارة المدرسة من أن تبتاع لها بناء خاصا علاوة على ٣٦٥ فدانا بمبلغ ٢٢٫٨٠٠ ج أوقفت ريعها على الصرف على هذه المدرسة والمدرسة الصناعية التى أنشئت فى بولاق (١) .

ورغم ما قاسته هذه المدرسة من أزمات فى أوقات متفاوتة الا أنها ما كانت تكبو الا لتنهض (٢) فلم تكن مواد هذه المدرسة قاصرة على المواد الدينية بل وجدت ان رسالتها الدينية لا تعفيها من تدريس المواد المدنية كى لا يخرج طلبتها بعيدين عن الوسط الذى يعيشون فيه فدرست فيها مواد التاريخ والجغرافيا والرياضة والمنطق وعلم النفس والتربية الى جانب اللغات العربية والانجليزية والقبطية والعبرية . وقد أدت هذه المدرسة رسالتها فى تخريج عدد كبير من الرعاة الصالحين وفى تأليف عدد وافر من المؤلفات الدينية والرسائل القيمة والبحوث العميقة كما أنها هى التى أخذت على عاتقها النهوض باللغة القبطية ونفخت فيها من روحها وعملت على نشرها بين الافراد والأسر كما ان خدمتها لم تقتصر على الاقباط بقدر ما كانت شاملة لأبناء الامة جميعا من حث على عمل الخير ونهى عن الشر

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٢٥٠ و ٢٥١ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ و ١٥١ .

والفساد (١) .

وما يؤسف له ان هذه النهضة الشاملة لم تمتد الى الرهبان فى اديرتهم . فقد نقص عدد الرهبان من ١٠٠٣ فى سنة ١٨٧٠ الى ١٨٦ فى سنة ١٩١٠ (٢) بل من المؤسف حقا أن يكون بعضهم ممن سدت فى وجوههم أبواب العمل بل من طريدى العدالة اذ لم يهتم أحد بتفقدهم وتعليمهم . ولذا كان بعض المطارنة والأساقفة — وهم ينتخبون دائما من بين الرهبـــان — على درجة من الثقافة أقل مما يتطلبه منصبهم وقد عمل مركب النقص عمله فيهم فاتجهوا الى أن يختاروا القسس ممن يقلون عنهم ثقافة ويزيدون عنهم جهلا وتناسوا خريجى الكلية الاكليريكية رغم صدور المنشورات البطريركية المتكررة التى يلفت فيها البطريرك نظر المطـــــارنة الى ضرورة رسم القسس ممن أتموا الدراسة بالمدرسة الاكليريكية وحصلوا على اجازتها النهائية (٣) .

كما اتجهوا الى قبول السيمونية وبيع المناصب الدينية الامر الذى دعا المفكرين الى وجوب الانتباه الى هذه النـــاحية ولكن انتباههم لم يأت الا متأخرا .

ومن الطبيعى ان هذه الحالة السيئة لم تمنع من أن يكون بينهم من تثقف ثقافة دينية رفيعة وعرف ما لهذا المنصب من كرامة فحافظ عليه وقام بواجبه خير قيام ولم ينس الاقباط أن يتجهوا فى جهـــادهم اتجاها اجتماعيا يربى فى أفراد الأمة روح التعاون الاقتصادى . ولعلنا لا ننكر ان هذا التعـــــاون الاقتصادى كان ولا يزال المسمار الاول فى نعش الاحتـــلال البريطانى الذى سعى منذ بدايته الى تحطيم المصرى وجعله مستندا على الاقتصاد الاجنبى .

فسعى تادرس بك شنودة المنقبادى فى سنة ١٨٠٩ الى تأسيس صناديق توفير اهلية فى اسيوط وسوهاج وجرجا وقنـــا والمنيا والفيوم والعاصمة ولم يكن سكان هذه البلاد أقباطا فقط كما لم ترفض هذه الصناديق ودائع غـــير

---

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٤ .
(٢) الأقباط فى القرن العشرين ج ٥ .
(٣) المدرسة الاكليريكية .

الاقباط (١) ونجحت هذه الصناديق في بث ثقة المصريين في انفسهم وظلت هذه الصناديق تباشر عملها حتى انشئت مصلحة البريد نظام التوفير فضمت هذه الصناديق اليها وجعلتها ملحقة بها والفت قبيل ذلك الشركة التجارية القبطية في سنة ١٨٨٤ برأس مال قدره الف جنيه موزعة على الف سهم وجعلت مجال نشاطها الاعمال المنزلية ، فكان تخفيض ثمن السهم الى جنيه واحد داعيا الى اشتراك كثير من الفقراء وذوى الدخل المحدود في عمل اجماعي نضـــامني الغرض منه تخفيف اعباء الحياة عن عاتق الطبقة المكدودة دون ان ينتظروا من ذلك ربحا فقد خصص ربح هذه الشركة للأعمال الخيرية وتمكنت الجمعية في النهاية بما تجمع لديها من ارباح ان تشترى اطيانا اوقفتها على مدرسة ثانوية في اسيوط . وكان نجاح هذه الشركة داعيا الى شركات اخرى تماثلهـــا في كل من سوهاج وجرجا واخميم في سنة ١٨٨٦ .

وما زالت سياسة الامة في وقتنا الحاضر بل سياسة الحكومات الوطنية المتعاقبة تتجه نحو تشجيع الاقتصاد الوطني وحث ذوى الدخل المحـــدود على التعاون من اجل تخفيف اعبـــــاء الحياة عنهم وما هذه الشركات المصرية المساهمة التى تقوم بالاعمال الكبيرة في الوقت الحاضر واشراك كثيرين من ذوى الدخل الصغير فيها واقبالهم على حضور جلســـات جمعياتها العمومية ومناقشة اعضاء مجالس ادارتها الا تطورا طبيعيا لمـــا قام به الاقبـــاط في العشرين سنة الاخيرة من القرن الماضي فكان عمل الاقبـــاط في ذلك انما هو اللبنة الاولى في بناء الاقتصادي المصرى القائم على تعاون جهـــود الطبقـــة الشعبية العاملة الكادحة .

وفي سنة ١٨٩٨ استعيد السودان وابى الانجــليز الا ان ينفردوا بالامر فيه ولكن الاقباط فوتوا عليهم غرضهم . فلم تمض سنتان على الاستعادة حتى كان الاقباط قد احتلوا رقعة كبيرة شمالي ام درمان القديمة وابتنوا فيهــــا مساكنهم فحملت اسمهم التقليدى (حارة النصارى) (٢) .

---

(١) الاقباط في القرن العشرين جـ ٥ .

(٢) Baedeker's , Egypt p - 388

يزعم بعض قصار النظر ان البريطانيين لم يسمحوا للاقباط بدخـــــول السودان الا ليكونوا لهم انصارا ولكن هذا كلام العاجزين وانما نسوا ما قام به الاقباط من نشاط علمي واقتصادي كان ابعد ما يكون عن رغبة البريطانيين .

فاذا افتخر الانجليز بأنهم هم الذين عملوا على تمدين السودانيين فنشروا المدنية بين ربوع هذا القطر كذبهم الاقباط فى دعواهم فقد أسرعوا هم اليه وانبثوا فى بلاده المختلفة يعملون فى مختلف نواحى النشاط فشغلوا جزءا كبيرا من وظائفه . وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم فى هذا الجزء المجهول بادر الاقباط بطرح أموالهم فى السوق والاشتغال بالتجارة فيه ولم يمض على وجودهم هناك أربع عشرة سنة حتى بلغ عددهم مبلغا اذ كانت لهم ست كنائس منها اثنتان أنشئتا فى سنة ١٩٠٠ وهما كنيستا أم درمان ووادى حلفا ، ثم أنشئت واحدة أخرى فى سنة ١٩٠٥ هى كنيسة الخرطوم وواحدة فى سنة ١٩١٠ فى الدامر واثنتاء فى سنة ١٩١٣ هما الخرطوم بحرى والأبيض . وكانت تكاليفها جميعا من تبرعات الاقباط الذين استقروا هناك (١) فاذا ما ارتفعت قيمة التجارة السودانية فى سنة ١٩١٤ الى مليون وثمانمائة الف جنيه كان الاقباط من ورائها يدفعونها بالجهد والعرق والدم .

واذا ما أراد الانجليز أن ينشئوا كنيسة لهم لم يتمكنوا من ذلك الا فى سنة ١٩١٢ وكأنما شعروا أنهم لا يستطيعون أن يعملوا الا اذا تقربوا الى الاقباط وطلبوا الحماية منهم فدعوا نيافة البطريرك الى حضور حفل تدشينها فاعتذر . وفى هذا الحفل القى مطران لندن خطبة قال فيها انه يعترف لغبطة البطريرك برئاسته لأقدم أمة وأنه يعتبر الكنيسة القبطية الشقيقة الكبرى للكنيسية الانجليزية (٢) واذا ما حضر الى القاهرة بادر بمقابلة البطريرك وقال له « أملنا أن تعمل الكنيستان كتفا لكتف فتنهض كل منهما من عزيمة الاخرى على القيام بخير الاعمال » فكأن الانجليز هم الذين طلبوا حماية الاقباط لهم ولم يكن الاقباط هم الذين عملوا فى ظل الاحتلال البريطانى كما يزعم البعض .

اما قصة نشر الحضارة الحديثة فى السودان والارتفاع بمستوى سكانه من الحياة البدائية الاولى الى حياة المدينة فلست فى احتياج الى جهد كبير لاثبات فضل المصريين فى ذلك ؟ فمن القادر على أن يأخذ بيد السودانى فى

---

(١) السودان فى التاريخ القديم ج ٢ ص ١٣٢ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ ص ١٤ .

هذا السبيل ؟! أهو الموظف البريطانى الذى عاش يتردد الى مكتبه صباحا والى بيته الانيق المزود بملعب التنس وحمام السباحة ظهرا واخيرا الى ناديه الذى لايستطيع السودانى اقتحامه الا اذا كان يعمل خادما فيه ؟ وفى كل هذه الحالات لا يعيش معيشة أوربية فحسب ، بل أوربية رفيعة لا يستطيع السودانى أن يرقى الى مجرد التفكير فيها . أم هذا القبطى الذى يعيش فى أم درمان وأخيرا يستقبل السودانيين فى منزله ويستقبله السودانيون فى منازلهم .

لا جدال فى أن الاقباط وحدهم هم الذين قادوا المجتمع السودانى نحو الحضارة الاوروبية وليس انصاف الالهة من الاوروبيين . ولم يكن هذا التأثير قاصرا على الموظفين بل شاركهم فيه هؤلاء التجار واوساط الناس من المصريين الذين عاشوا فى مدن السودان . واختلطوا بالسودانيين . وكان اقبال المصريين على سكنى الخرطوم وابتناؤهم البيوت والكنائس والنوادى هو الذى رفع ثمن الارض من مليمين للمتر المربع الى جنيهين فى مدى الخمس سنوات الاولى من الاستعادة .

وقد اخذت الادارة الجديدة فى تنفيذ جملة من المشروعات كان منها الاهتمام بفتح المدارس فلم تجد من يعمل مدرسا الا هذا القبطى الذى أخذ على عاتقه قيادة الجيل الجديد من السودانيين لا الى الحضارة بل الى الافكار والاهداف التى بنى عليها السودان الحديث .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذه الحقيقة على السودان فحسب ، بل كانت صفحتهم فى اتيوبيا أنقى وأنصع . فقد ارتقى الامبراطور منليك العرش الاتيوبى فى سنة ١٨٩٠ بعد قرن من الفوضى (١) لم تنقطع خلاله العلاقات الروحية العتيدة التى ربطت بين الكنيستين المصرية والاتيوبية (٢) فعول على أن يدخل بلاده ضمن نطاق الحضارة الاوروبية وأولى خطواتها خلق الجهاز الادارى الحديث الذى يقسم الأعمال الحكومية فى وزارات يشرف على كل

---

(١) Budge, History of Ethiopia Vol II

(٢) السنكسار ٢٨ برمهات .

منهـــــا وزير مختص يرأسهم الوزراء وجميع هؤلاء الوزراء مسؤولون عن أعمالهم أمامه ، فكان منها وزارة التعليم وعين مصري هو الاستاذ حنا صليب سكرتيرا عاما لها فعول على ادخال التعليم الحديث الى أتيوبيا فأنشأ مدرسة منليك الثاني مقسمة الى ثلاثة اقســام قسم انجليزى وآخر فرنسى وثالث ايطالى . وارسل الى البطريركية فى القاهرة يطلب اختيار أساتذة لهـــذه الاقسام . فأشرك البطريرك معه فى اختيار الاساتذة لجنة المدارس والتعليم بالمجلس الملى وكذلك تادرس بك شنودة المنقبادى (١) واخيرا اختير ستة من الاساتذة المصريين سافروا الى هناك فى سنة ١٩٠٧ عن طريق البحر الأحمر حتى وصلوا الى ثغر جيبوتى الفرنسى حيث اخذوا القطار الى ديردوا ثم اكملوا رحلتهم على ظهور البغال الى اديس ابابا . وهناك بدأوا عملهم واستمروا فيه فتخرج على أيديهم كثيرون من الشباب الذين سرعان ما تبوأوا مراكز الدولة وحين سافرت الى اثيوبيا سنة ١٩٣٤ كان وزير التعليم آنذاك هو بلاتن جيتا سهلا ستيدالو الذى سمعته يفخر بأنه كان تلميذا لهؤلاء الاساتذة المصريين . والى هـــذا الوزير يعـــــزى فضل انشاء المسرح الأول فى إتيوبيا . وظلت البطريركية ثم وزارة المعارف المصرية تواليان ارسال الاساتذة المصريين لهذه المدرسة حتى قضى الاحتلال الايطالى على استقلال اتيوبيا عام ١٩٣٦ ، أى قرابة تسع وعشرين سنة متوالية فكان معظم هؤلاء الاســـــاتذة حتى سنة ١٩٢٧ من خريجى الأكليريكية . أما العشرة سنين الاخيـــرة فقد تولت وزارة المعارف انتقاءهم من خريجى مدارس المعلمين والجامعة . فكان الاقباط بذلك أول من نشر الثقافة المصرية خارج الحدود المصرية منذ بداية القـــرن العشرين . وان كان ذلك بلغة اجنبية . قبل أن تعرف الحكومة المصرية نظام انتداب المدرسين الى الاقطار الشقيقة بربع قرن .

وقد ظل هذا الرعيل الاول من المدرسين يقوم بواجبة حتى مات منهم من مات وآثر الباقون الإستقالة للاشتغال بالاعمال الحرة فعمل احدهم وهو الاستاذ نصر عوض فى تجارة البن حتى أصبح من أكبر تجاره الى ان مات فى سنة ١٩٣٩ وقد أقبل هذا التاجر اثناء اقامته الطويلة على دراسة اللغة الأمهرية

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٥٥ .

حتى بز فيها اهلهـــا واستطاع ان يقرض فيها الشعر الجيد الرصين الذى بادرت الجرائد الامهرية بنشره له وفى مقدمتها جريدة برهاننا سلام « النور والسلام » وظل اخذ هـــؤلاء المدرسين يعيش فى اديس ابابا بعد ان اعتزل التدريس واصبح وكيلا للراس كاسا الى ان مات منذ عامين .

ولنعـــد الى مصر . فقد قام فيهـــا مصطفى كامل يدعـــو الى جـــلاء البريطانيين عنها وكان الرجل وطنيا فى دعوته وان لم يكن وطنيا كملا . ففى الوقت الذى دعا فيه الى جلاء البريطانيين عن مصر وندد بهم وبأعمالهم ونعى على المصريين تهاونهم واستسلامهم وتسليمهم البريطـــانيين لم يذكر الاتراك بسوء . فقـــد آمن بالولاء التام للسلطان . ودعا الى الخضوع له كما آمن بالجامعة الاسلامية دينيا وسياسيا .

ولم يستطع الاقبـــاط أن يهضموا هذه الدعوة . فهم وان امنوا بعـــدم شرعية الاحتلال وعملوا جهدهم على مقاومته بطريقتهم الخـــاصة من حيث تعليم الشعب ونشر الوعي القومي بين الناس الا انهم لا يستطيعون مطلقا أن يؤيدوا دعوة تدعوهم الى أن يستبدلوا بالسيد البريطانى سيدا آخر هو السيد العثمانى الذى قاسوا من حكمه ما قاسوا وكادت القومية المصرية تحت حكمهم الفاسد ان تصبح فى خبر كان . خصوصا وقد كان الحـــكم العثمانى فى ذلك الوقت افسد من الفساد . فقد كان على رأسها السلطان عبد الحميد الثانى ينشر فيها حكمه الملطخ بالدم .

لم يستطع الاقباط أن يؤمنوا بمصطفى كامل وهم يرون أحرار تركيـــا يعانون الاضطهاد والنفى ويذرعون اجزاء أوروبا طولا وعرضا هربا من هذا الطاغية الذى كان يتعقبهم ليقضى عليهم بينما كان مصطفى كامل يسافر سنويا الى استنبول ليلقى كل احترام وترحيب كما كان موضع عطف من السلطان ورجاله المجرمين حتى لقد منح رتبة الميرمران التى تبيح له ان يلقب (بالباشا) .

لم يستطع الاقباط أن يتصوروا دعوة تضع الايرانى والافغانى والتونسى الى جانب المصرى المسلم على قـــدم المساواة ثم تضع القبطى المصرى فى مرتبة اقل منهم فالقومية المصرية كما يفهمها الاقباط هى ان خيرات مصر حلال للمصريين وان اختلفت دياناتهم حرام على غيرهم . وان حبهم لمصر وتفانيهم فى

سبيلها وموتهم من اجلها انما ينصب على هذه الرقعة من الارض الى تحدها الحدود السياسية المعروفة . وقد تضيق هذه الحـــدود تحت حكم ظروف خارجة عن ارادتهم كما كان الحال بين ١٨٨٥ — ١٨٩٩ أو تتسع كما كان الحال فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الا انها تحمل اسم مصر . ولذا وقف الأقباط من حركة مصطفى كامل وقفة التردد غير المؤمن بهـــا فلم ينضم الى الحزب الوطنى الا قبطى واحد هو الاستاذ ويصا واصف فأطلقوا عليه اسم يهوذا (١) .

ولم يكن الاقباط فى موقفهم هذا نسيج وحدهم فقد شاركهم هذا الرأى اغلبية الامة اذ لم تستطع جريدة اللواء أن تعيش الا عن طريق المساعدة التى كان مصطفى كامل يتلقاها من السلطان (٢) والخديوى . ويوم انقطع عنه هذا المورد الأول بعزل السلطان والمورد الثانى باعراض الخديوى عن الحــــزب الوطنى قبيل وفاة رئيسه بقليل اخذت الخسارة تكتنفها وأخذ محمد بك فريد يسدد هذه الخسارة من ماله الخاص . وقد الف بعض هؤلاء المعارضين وعلى رأسهم احمد لطفى السيد حزب الامة الذى جعل ينادى بمصر المستقلة البعيدة عن اى نفوذ أجنبى سواء كان بريطانيا و عثمانيا . ولم يكن أفق أعضاء الحزب الوطنى ليتسع لمثل هذه النظرة القومية الصحيحة ولذا رمى هذا الفـــريق الاخير بالخيانة .

وقد برهن الاقباط بموقفهم هذا من حركة مصطفى كامل على وطنيـــــة عريقة وقومية صحيحة مأثورة عنهم طوال تاريخهم . فان الاقباط بعد أن رأوا تخلى فرنسا عنهم فى سنة ١٨٠١ أيام المعلم يعقوب وكذلك تخليهما عنهم عام ١٨٤١ أيام محمد على وتخليها عنهم فى سنة ١٨٦٧ فى حادثة فاشــــودة حين إرادت أن تقف فى وجه التقدم البريطانى فى أفريقيا (٣) ثم تخليها عنهم فى سنة

---

(١) لم يلبث الرجل أن استقال عنـــدما أصبح الشيخ عبد العزيز جاويش رئيسا لتحرير جريدة اللواء ونشر مقالته « الاســـلام غريب فى بلاده » التى شبه فيها الاقباط بزنوج الكونغو (اغسطس ١٩٠٨) .

(٢) آخر ساعة عدد ١١٩٧ فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٥٧ مقال لعباس محمود العقاد .

(٣) مصطفى كامل لفتحى رضوان ص ٦٨ .

١٩٠٤ لم يعـــودوا يؤمنون بدول أجنبية يعتمدون عليهـــا بل أصبح ايمانهم الوحيد ان القومية المصرية يجب أن تنبع من مصر وحدها وأن تعتمـــد على أذرع المصريين وحدهم . أما غير ذلك فعبث فى عبث .

وقد حاول من تصـــــــــدوا للدفاع عن مصطفى كامل أن يذكروا أنه كان لا يبغى غير الاستقلال التام وانه لم يتخذ من تركيا غير تكأة يتكأ عليها تعاونه على هذا الاستقلال . وهذا كلام من السهل أن يقال . ولكن هل كانت تركيا هى الدولة التى تسدى الجميل دون أن تأخذ له ثمنا . اذ لم يكد مصطفى كامل يبدأ دعوته حتى هرع الى استنبول ونجح فى أن يقابل السلطان . الذى دعاه الى صلاة الجمعة فى الجامع الاحمدى وتقابل معه وفى أثناء هذه الزيارة أهدى اليه هدية من الذهب والماس ومن الطبيعى أن هذه الهدية لم تكن الا نتيجة تفاهم تام بينهما .

واذا كان مصطفى كامل قد تنصل فى خطبـــــــه من تهمة اخلاص مصر لتركيا فقد كان صادقا فى ذلك فهو بايمانه بالجامعة الاسلامية دينيا وسياسيا لا يجد تعارضا مطلقا فى تبعية مصر للدولة العلية وكـــونها مستقلة استقلالا تاما . فهـــو فى حديثه مع الأميرالاى بازنج شفيق اللورد كرومر سأله الاخير عن جنسيته فأجاب (مصرى عثمانى) وحين تعجب الاخير لذلك وسأله (هل تجتمع الجنسيتان) فأجاب مصطفى « ليس فى الامر جنسيتان بل هى فى الحقيقة جنسية واحدة . لان مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع لا يختلف عن المتبوع (١) .

وقد كتب مصطفى كامل كتابا عن المسألة الشرقية وتطورها وصف فيه علاقة تركيا بالدول الاجنبية خلال القـــــرن التاسع عشر وما كانت عليه من الضعف وتكالب الدول الاجنبية وخصوصا انجلترا على اكتساب المنافع منهـــا فلا يكاد يكتب كلمة سوء واحدة عن تركيـــا ولا يصورها إلا ضحية مسكينة لأطماع الدول الا شعبية القاسية . بل تمنى لتركيا الاحتفاظ بمصر حين كتب يقول « حسب الانجليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر وراء النيل ويضعون بذلك

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن لاحمد شفيق باشا ، والحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ١٨ .

أيدهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية . والسلطة العثمانية ولــكن مما لا ريب فيه هو أن نصيبهم فى مصر الفشل عاجلا أو آجلا .

بل اندفع مصطفى كامل فى تأييد الســـــلطان عبد الحميد فى أعماله الاستبدادية فوصم الوطنيين الاتراك الذين كانوا يعارضون ســلطة السلطان المطلقة ويطالبون بالدستور انهم سابحون فى الاحلام . بل وصل الى حــــد تهديد المصريين أعضاء حزب الأمة الذين يطالبون بأن تكون مصر للمصريين بمحاكمتهم طبقا للقانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه (١) ولا أستطيع أن أقول ان مصطفى كامل لم يؤد الى مصر خدمة بس كان الرجل وطنيا ولــكن من طراز خاص آمن بحقيقة واحدة وهى وجوب أن تكون مصر جزءا من تركيا تسعى الهآ . هذا الى أنه نجح فى التشهير بالحكم البريطانى فى مصر والعالم الخارجى . وبذل فى ذلك جهدا مشكورا كما سعى الى نشر العلوم والمعارف بين المصريين بالمشاركة فى فتح المدارس على أساس من الدين القــــــويم السليم من أجل تنبيه الراى العام بنشر الكتب وانشاء الصحف وفهم الوسيلة الفعلية لبث الروح الوطنية وايجـــاد حب السؤدد والرفعـــة ومسابقة الأمم الراقية وجعل الاستقلال رائدها) (٢) .

وخلف محمد فريد مصطفى كامل فى زعامة الحــــزب الوطنى فلم تختلف سياسته عن سياسة سلفه فى أول الأمر بل صرح فى خطبتــــه تابين مصطفى كامل (أن أحسن تأبين لفقيدنا المرحــوم هو أن نسير فى نفس الطريق الذى رسمه ومهده لنا) ولكنه اختلف عنه فى المبادرة بطلب الدستور وصرح بذلك للمستر كتل العضو بمجلس العمـــــوم فى حديث له حين لخص له مطالب مصر فى .

اولا : الجـــلاء عن مصر .

ثانيا : انشاء مجلس نواب :

ثالثا : تأسيس حكومة أهليـــة محضة . ولم يشر الى تركيا بخير أو

---

(١) مجلة آخر ســاعة عدد ١١٩٣ فى ١٩٥٧/٩/٤ مقال لعباس محمود العقـــاد .

(٢) اللواء سنة ١٩٠٧ .

سوء . واذا ما بدأ الجهاد الايجابى بادر بالسفر الى إستنبول كما كان يفعل سلفه فيصلها فى ابريل سنة ١٩٠٩ وكان جل عمله هناك تقوية روابط الود بين مصر وتركيا (١) ولتعريف احرار تركيا بمقاصد الحركة الوطنية واحباط مساعى انجلترا فى حمل تركيا على الاعتراف بمركز الاحتلال فى مصر (٢) .

وكان من شأن هذه الدعاية (الناجحة) ان اكبرت الصحف التركية من شأن مصر واعجبت بجهادها ضد الاحتلال ومجدت الحركة الوطنية .

ولا اظن احدا مهما بلغ به حسن الظن بهذا السعى يظن ان تمجيد الصحف التركية لجهاد هذا البطل واعجابها بالحركة الوطنية معناه خروج مصر من التبعية العثمانية ، بل اذا سايرنا المدافعين عن الحزب الوطنى فى حسن ظنهم به لوجدنا إن اقصى أمانى احرار تركيا هو أن تكون تركيا ومصر دولة ثنائية شبيهة بنظام النمسا والمجر (٣) ما كان احد من الاقباط يطمع فى ذلك مطلقا .

وليس ادل على ولاء محمد فريد لتركيا من انه جند نشاطه من اجل تاليف كتاب فى تاريخ تركيا (تاريخ الدولة العلية) بل انه دعا فى صيف سنة ١٩١١ الى التطوع فى صفوف الاتراك لنصرتهم ونصرة الطرابلسيين فى حربهم ضد ايطاليا . ولم ينس بعد هذه الدعوة المرور على استنبول ليتلقى ثمن هذه الدعوة من صحافتها ومن دوائرها السياسية كل حفاوة واجلال . وعندما دخلت تركيا الحرب فى صف المانيا سافر محمد فريد الى المانيا وركز دعايته على نصرة تركيا والمانيا ضد انجلترا . واذا كان محمد فريد قد تخلى بعد ذلك عن مبدأ نصرة تركيا ومناداته بمبدأ « مصر للمصريين » فليس له فى ذلك فضل . انما هو فضل الاتراك بعد أن اظهروا له وللعالم اجمع سياسة (الاتحاد والترقى) من اصرارهم على احياء الجامعة الطورانية التى تنادى باستعلاء العنصر التركى على غيره من العناصر التى تكون الامبراطورية العثمانية واحتقارهم للعرب .

وظهرت هذه السياسة صريحة حين ابلغه الأمير سعيد حليم فى نوفمبر

---

(١) الشهيد محمد فريد ص ١٣٠ . (٢) المرجع السابق ص ٨٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

١٩١٤ نقمة البـــاب العـــالى منه ومن الحزب الوطنى قولهم دائما « مصر للمصريين وعندما تبين الرجـــل أن هذه الأفـــكار لسبت أفكار الامير سعيد حليم ، بل شاركه فيهـــا معظم زعماء الترك وبخاصة طلعت وجـــلال فلم يرضوا أن يقيدوا أنفسهم بأى عهـــد لمصر خلال الحرب بل ظهـــــرت هذه السياسة منهم بطريقة عملية حين عين جمال باشا واليا على الشام فى بداية الحرب العالمية الاولى فنصب المشانق فى ميـــــادين دمشق وبيروت لزعماء الشام المطالبين بالاستقلال .

واذا كان الاقباط قد وقفوا من الحزب الوطنى هـــذا الموقف فانهم لم يترددوا عن مؤازرته حين رأوا مطالبه معقـــولة تحقق آمالهم فى الحكم القومى الصحيح وذلك حينما طلب من الخديوى اصدار الدستور فأقبلت الامة عـــلى تعضيده عن طيب خاطر اقبالا جماعيا وأخذت فى توقيع العرائض التى طبعها لذلك حتى اكتمل لديه الفوج الاول وعليها خمسة واربعون ألف توقيعـــــا فرفعها الى الخديوى فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٨ (١) . الى جانب الحـــــزب الوطنى وان عارضه فى الاتجاه قام حزب الامة باعلان مفـــــاجىء لحسن عبد الرازق باشا فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وكان معنى هـــذه الخطـــوة ان تلاميذ الشيخ محمد عبده لم يكتفوا بالعداء لافكار مصطفى كامل بل عزموا على تـــكوين حزب سياسى يساند (الجريدة) فى ابداء وجهة نظرهم ورأس هذا الحزب محمود سليمان باشا أحد أعيان الصعيد البارزين وجعل أحمد لطفى السيد محرر (الجريدة) سكرتيرا عاما له .

وكان الحزب فى الواقع يضم أغلبية رؤساء العائلات . وعلى اثر اعلان قيامه انضم اليه عدد من المحامين والاعيان ورأى الاقباط فى هذا الحــــزب ما يعارض الاتجاه الدينى الذى بدا واضحا فى خطب مصطفى كامل لا سيماوقد نادى هذا الحزب بأنه الممثل (للأمة المصرية) فانضم اليه أربعة عشر قبطيـــا جعل أحدهم ضمن اللجنة الادارية .

وانحصرت مبادىء هذا الحزب الجديد فى أول الامر فى محاولة الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العـــــامة بالسعى فى توسيع

---

(١) قبل اعلان تأليف الحزب الوطنى بشهر تقريبا .

اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ثم النهوض بالتعليم والعمل على تقدم الزراعة والصناعة والتجارة . وكان الاقتصار على هذه (الوسائل) يعنى ارجاء الهدف وهو المستقبل السياسى للبلاد من هنا ظهر عداء رجال الحزب الوطنى له كمتعاونين مع سلطات الاحتلال التى كان يمثلها آنذاك سير الدون جورست (١) .

والى جانب هذين الحزبين الرئيسيين كانت هناك احزاب اقل شأنا وهى :

١ ـ الحزب الوطنى الحر أو حزب الاحرار رأسه محمد وحيد الذى اتهم جماعة الحزب الوطنى بأنهم جرثومة التعصب والفتن ويرى مسالمة المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم والسعى الى الشعب بنشر التعليم الابتدائى ثم السعى الى الحكم النيابى .

٢ ـ الحزب الدستورى ورأسه ادريس راغب ويدعو الى الولاء للسلطة الشرعية والبريطانية والخديوية ثم الى طلب الدستور على أن يكون للأمى صوت وللمتعلم خمسة أصوات .

٣ ـ حزب النبلاء ورأسه حسن حلمى زادة ويدعو الى الدفاع عن الخديوى والى عودة السيادة للعناصر التركية والشركسية .

٤ ـ الحزب المصرى ورأسه اخنوخ فانوس بعد أن أثارت مبادىء الحزب الوطنى مخاوف الاقلية القبطية التى كانت تضيق بالدعوة العثمانية ويلح فى اصدار الدستور بعد ازالة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الحقوق والمصالح . وكان يشجع الاقباط على طلب العلم الذى يراه خطوة أساسية فى التقدم وبلغ الأمر برئيسه أن أرسل فى سنة ١٩٠٨ عشرة من الشبان الى الخارج فى بعثة علمية على نفقته .

٥ ـ حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ورأسه الشيخ على يوسف

---

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٥٠ ـ ٥٥ .

ودعيا إلى تدعيم السلطة الخديوية ومطالبة إنجلترا باعتبارها السلطة الحقيقية بتحقيق وعودها وكان الخديوى يؤيده لا لأنه يؤمن بالدستور بل لأنه كان يراه مساندا له ضد سلطة الإحتلال كما فعل جده اسماعيل .

٦ — **الحزب الجمهورى ورأسه محمد غانم ويدعو الى اعلان الجمهورية واتخذ من شعار الجمهورية الفرنسية (حرية — أخاء — مساواة) شعارا له وذلك بعد نيل الدستور والإستقلال التام الذى فسره بأنه استقلال** اداري فكان أن اتهم بالخيانة (١) .

ولم يخل الامر من رجال كانوايعملون بعيدين عن هذه الاحزاب بما يرونه من الوسائل لمصلحة بلادهم . وبعيدين أيضا عن صيت الدعاية الكاذبة وليست لهم جرائد تعبر عن وجهة نظرهم ومن هؤلاء بطرس غالى باشا الذى شغل منصب وزير الخارجية فى وزارة مصطفى فهمى باشا ثم أصبح رئيسا للوزراء الى أن اغتيل فى سنة ١٩١٠ ومما يؤسف له ان هذا الرجل لقى نفس الجحود والنكران الذى وجده سلفه المعلم يعقوب حنا بعد أن اتهم مثله بالخيانة .

ولد بطرس غالى فى الأيام الأخيرة لحكم محمد على وعاش حتى عصر عباس الثانى .

كان والده غالى بك نيروز احد رجال مصطفى باشا فاضل بن ابراهيم باشا . وقضى صباه يتعلم فى مدرسة حارة السقايين التى إنشأها كيرلس الرابع ثم فى مدرسة مصطفى باشا فاضل ثم التحق بمدرسة الترجمة حيث اتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية ثم تعلم القبطية وهو فى الثلاثين من عمره . واشتغل فى أول الامر مدرسا بمدرسة حارة السقايين ثم تقدم فى امتحان مسابقة بمجلس تجار اسكندرية (وهو الذى صار فيما بعد المحكمة المختلطة) وكان ترتيبه الأول فاشتغل كاتبا به . وما زال يرتقى حتى صار رئيس كتاب المجلس ولم يكمل الثلاثين سنة ومنهـا انتقل الى رئيس كتاب نظارة الحقانية .

---

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٢١ — ٦٤ .

وبدأت الحكومة فى انشاء المحاكم الاهلية واخذت فى ترجمة القوانين الاجنبية الى اللغة العربية فلم تجد خيرا منه للقيام بهذه الترجمة . وهناك التقى بنوبار باشا . ولم يكن قد تجاوز الثلاثين الا قليلا حين أصبح سكرتيرا عاما لوزارة الحقانية . كما عين مساعدا لمندوب الحكومة فى لجنة صندوق الدين . واذا عين رياض باشا رئيسا لهذه اللجنة أصبح بطرس غالى مندوبا للحكومة بها . ولم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين سنة حين عين وكيلا لوزارة الحقانية .

وقد وصفه معاصروه بالذكاء وبعد النظر واتساع الافق وقوة الشخصية ولذا لم يكد يعين فى هذا المنصب حتى اخذ فى تعيين الاكفاء فى وظائف القضاة الجديدة . وان اتهم بالتعصب الدينى حين جعل للأقباط نصيبا من هذه التعيينات . الا أنه لم يحفل بهذه الصغائر . فقد كان يرى مساواة أفراد الأمة جميعا فى الحقوق والواجبات دون نظر الى دين . الامر الذى هو من الوطنية لبها وصميمها . وفى يونيو سنة ١٨٨٢ طلب عرابى باشا الانعام عليه برتبة الميرمران فأجيب الى طلبه .

واذا ما اضطربت أمور العرابيين والخديوى . نصح العرابيين بالتريث وطلب منهم أن يطلبوا الصفح من الخديوى كى لا يتخذ أعداء البلاد هذه الفرصة للدس بين أبناء الوطن الواحد فانصاعوا لنصيحته ولم يجدوا خيرا منه ليحمل هذا الرجاء الى الخديوى .

ولا ينسى الأقباط له جهاده الحق فى سبيل انشاء المجلس الملى فقد عرف كيف يحمل الحكومة على أن تجافى الرئاسة الدينية على ما بيدها من أموال لتتصرف فيها بما فيه مصلحة الشعب . هو فى هذه الخطوة لم يكن قبطيا بقدر ما كان مصريا يسعى الى تعويد الشعب محاسبة رؤسائه مهما كانت سلطتهم ومهما كان مصدر هذه السلطة (١) .

واذا كان معاصروه قد ظلموه ووجهوا اليه مختلف التهم التى تنقص من

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٨ .

وطنيته بهذه كلهـا لا تثبت أمام التمحيص النزيه . وأول هذه التهم أنه كان صنيعة الاحتلال يعمل بأمر المحتلين والحق انه لو كان هـؤلاء مكانه فمـا فعلوا غير ما فعل . فقـد كان شابا حين رأى الانجليز يطيحون باسماعيل كأنه ملك من ورق اللعب دون أن يحفلوا بشيء . ورآهم وهم ينصبون توفيق رغم ارادة السلطان . ورآهم وهم يدسون بين توفيق والشعب . وكان الأول في أيديهم لعبة من اللعب .

ورآهم وهم يدخلون العاصمة دخـــول الظافرين ويكادون يحطمون كل مقدسات الوطن فرأى من الخير لوطنه أن يصانعهم . فالثورة عليهم لا تعني غير الضرر ببلاده . وان نجحت هـذه الثورة فلن تعني غير العـــودة الى الحكم التركي الفاسد الذي لا يعني شيئا سوى الفوضى والرجعية . ولم تجن مصر من تبعيتها لتركيا طوال ثلاث قرون سوى التأخر والجمود والانحطاط . سواء في مبدان التجارة أو الصناعة أو التعليم والاخلاق ولم يكن الحكم التركي في هذه الآونة بالذات ـــ تحت حكم السلطان عبد الحميد الثاني ـــ فـوق مستوى الشبهات . فالمصانعة هنا حكمة لا جبن ولم يكن بطرس غالي في هذه المصانعة نسيج وحده . بل آمن بها غيره كثيرون من رجال عصره . آمن بها سعد زغلول وآمن بها الشيخ محمد عبده وآمن بها لطفي السيد . ولم يتهمهم أحد بالخيانة كما اتهم بطرس غالي وآمن الرجل بعد ذلك بأن خير سياسة نرسم من أجل مصلحة الشعب هي الرقي بهـذا الشعب الى مستوى يؤهله للوقوف على قدميه قبل أن يرفع صوته بالمطالبة بالاستقلال . فقد يكون هذا الاستقلال مضرا به في هذه المرحلة من النضوج غير المتـكامل . واذا كانت انجلترا قد احتلت مصر وقضت على اسـتقلالها كما قضت على دستورها وبرلمانها فما فائدة هذا الدستور وهذا البرلمان الذي لم يكن أكثر من لعبـة يتلهى بها كل من الشعب والخديوي . كما ان الدستور لم يكن في يوم من الايام غاية في ذاته . بل هو لا يعدو أن يكون وسيلة لرفاهية الشعب . أما اذا لم يكن كذلك فبئس الدستور . وبئس أصحاب الدستور .

ووقع في سنة ١٨٩٩ بصفته وزير الخارجية اتفاقيتي الحكم الثنــائي للسودان وهي سيئة أخرى يأخذها أعداؤه عليه. والاتفاق في حد ذاته ـــ دون النظر الى مساوئه ـــ نهاية طبيعية لسيطرة البريطانيين على مصر منــذ

احتلالهم فى سنة ١٨٨٢ ثم لاشتراك الحكومة البريطانية فى استعادة السودان ما دامت الحكومة فى ذلك الوقت عاجزة عن استرداده بمفـردها . وكانت الظروف تحتم عليها أن تقوم بهذا الاسترداد فى هذا الوقت بعد أن امتدت يد فرنسا وبلجيكا تحاولان الاستيلاء على أجزاء منه وهل كان من المنتظـر ان تشترك انجلترا فى الاستعادة لتتركه خالصا للمصريين . وكان هذا الاشتراك هو الثمرة التى سعت انجلترا اليهـا منذ ١٨٦٩ حين افتتحت قناة السويس للملاحة واصبحت ومعهـا البحر الأحمر شريان المواصلات البريطانية نحـو املاكها فى الشرق الاقصى (١) .

ومن المدهش أن ينصب جزء كبير من الحملات بل كل الحمـلات التى قادها الوطنيون على رأس وزير الخارجية دون غيره من الوزراء لأنه هـو الذى وقعها باسم الحـكومة المصرية . ولم يوجه اى عتـات الى رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى باعتباره المسئول الاول عن سياسة وزارته أو غيره من الوزراء باعتبارهم متضامنين مع رئيسهم ووزير الخارجية فى تحمل المسئولية الوزارية .

وهذه المعاهدة وان كانت قاسية على مصر بالنسبة للدور الذى قامت به وللمصاريف التى تكبدتها وللدماء المصرية التى أريقت . الا اننا نسأل . هل كان هناك من بين المصريين من يستطيع عقد اتفاق أفضل منه . فضـلا عن انها لم تمس حقوق السيادة المصرية على السودان مطلقا وأنها لا تعـدو ان تكون اشتراكا فى الادارة . واذا كانت مصر قد حرمت من مباشرة حقوقها فى السودان . فان هذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق بقدر ما أتى نتيجة لعجز الجهات المصرية عن الاشتراك الفعلى فى الادارة والاستفادة من الاتفاقية بقدر ما تفيد من نصوصها .

هذا الى أن انجلترا قد اعترفت أكثر من مرة بأن موقف مصر بالنسبة للسودان لم يتغير مطلقا فقد صرح اللورد كرومر ان هذه المعاهدة لم تبرم لغـرض

---

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

انتقاص حقوق مصر الشرعية فعندما طلب مجلس شورى القوانين تبليغه تفاصيل ايرادات حكومة السودان ومصروفاتها لم يتردد اللورد فى اجابة هذا الطلب (١) كما ان انجلترا رفضت أن تتحمل اى نصيب من نفقات الادارة فى السودان (٢) لأن موقفها منه لا يعدو أن يكون موقف من أؤتمن على وديعة ليسلمها الى صاحبها غير منقوصة .

وقد حوت هذه المعاهدة كثيرا من الغموض ومع ذلك لم يحاول أحد من الوطنيين فيما بعد حتى سنة ١٩٥٢ الاستفادة منه . فاذا كانت هذه المعاهدة قد بينت كيفية تعيين حاكم السودان العام . فانها لم تبين كيفية تعيين بقية الموظفين الكبار ولا جنسيتهم وعندما عين ونجحت فى سنة ١٩١٠ السكرتيرين الثلاث ثم مجلس الحاكم . لم تحاول السلطة المصرية مطلقا ان تفرض عليه ولو مصريا واحدا . وكذلك عند تعيين كبار الموظفين لم تحاول السلطة المصرية التدخل مطلقا من أجل تعيين بعض المصريين فى بعض المناصب التى لها خطرها فى السودان . وهذا الجبن الذى كتبه المصريون على أنفسهم لا ينصب فقط على وزراء مصر حتى سنة ١٩١٤ بل يتعداهم الى كل من تولى السلطة حتى عام ١٩٥٣ .

هذا ، الى هذا الاتفاق وان بين كيفية تعيين الحاكم ومدى سلطته . الا أنه كان غامضا من حيث حق مصر فى معارضة التعيين وحق مصر فى عزله . ولم يحاول أحد من الذين ادعوا الوطنية فيما بعد حتى سنة ١٩٥٣ الاستفادة من هذا الغموض . مع ما اتاه الحاكم العام فى كثير من الاحوال من تحدى السلطة المصرية فى اكثر من مناسبة . واذا جاز أن نقول أن محاولة تدخل الوزراء سواء فى المعارضة أو من أجل عزل الحاكم لا تجدى لأنها لا تملك القوة التى تجعل قرارها نافذا . فان مجرد محاولة الوزارة عرقلة التعيين أو محاولتها العزل كان يكفى لأن يخلق حالة تجعل انجلترا تتردد مرة اخرى فى

---

(١) The Unity of The Nile Valley p . 74

(٢) I bid p - 66

الانفراد بالامر . هذا الى ان الحالة بعد سنة ١٩٠٨ قد تغيرت بعد ان خلقت محكمة العـــدل الدولية واصبح الاختلاف على تفسير المعـــاهدات اهم اختصاصاتها .

فمصر اذا كانت قد حرمت من كثير من حقوقهـــا فى السودان بمقتضى هذا الاتفاق فهذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق قدر ما اتى من عجز الجهات المصرية الوطنية عن الاشتراك الفعلى فى الادارة . بعد ان سلموا متوالين للبريطانيين بجميع الحقوق على طول الخط مدة استطالت الى أكثر من نصف قرن . رغم تغير الظروف التى أبرم فيها هذا الاتفاق ورغم قيام الحركة الوطنية وازدياد الشعور بالقومية المصرية . وازدياد الشعور بالغبن الذى وقع على مصر . هذا الى ان الزعماء الوطنيين الذين حاولوا مفاوضة انجلترا منذ سنة ١٩١٩ والذين تولوا الحكم لم يحاولوا مطلقا تغيير نصوص هذا الاتفاق بل كان جل امانيهم هو العمل على تنفيذ هذا الاتفاق والاشتراك فى الادارة عمليا بالقدر الذى يتيحه لهم الاتفاق (١) .

ولنساير المتشائمين فى تشائمهم لنرى ماذا ضيع هذا الاتفاق من حقوق لمصر فى السودان فقد استأذن محمد على السلطان فى فتح السودان .ولسنا الآن فى صدد بحث الاسباب التى ادت الى هذا الفتح ـــ فاذن له على أن يضم ما يشاء من أراضى السودان على أن يكون ذلك باسم السلطان (٢) وتقدمت الجيوش المصرية الى السودان ونجحت فى مهمتها . فاصدر الباب العالى أمرا الى محمد على بتعيين ابنه اسماعيل حاكما على سنار سنة ١٨٣٢ ولا جدال فى أن معنى هذا الامر تبعية السودان للســـلطان لا لمصر . اذ ليس لدولة مسلوبة السيادة أن يكون لهـــا سيادة على دولة أخرى .

حتى اذا ما تأزمت الأمور بين السلطان ومحمـــد على فى سنة ١٨٣٩ تدخلت الدول الأجنبية انتهى امر الى صـــدور فرمانى ١٣ يوليـــو ١٨٤١

---

(١) الكتاب الاخضر المصرى عن السودان ص ١٧ و ٤٠ و ٦٢ ..
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٥ ..

وبمنح احدهما محمد على ولاية مصر على أن يكون حكمها وراثيا . ويعطيه الثانى حكم السودان مدة حياته وقد جاء فى فرمان السودان ما نصه (لوزيرى محمد على باشا والى مصر المعهودة اليه مجددا ولايات مقـــاطعة النوبة ودارفور وكردفان وسنار ان سدتنا الملكية كما نوضح فى فرماننا الســلطانى السابق قد ثبتكم فى ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقـــاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حـدود مصر ولكن بغير حق التوارث) (١) .

ولا اظن هذا الا دليلا واضحا على السودان لا يتبع مصر بحـــال من الاحوال وحدث بعد ذلك أن صدر فرمان سنة ١٨٤٩ بتولى عباس باشا حكم مصر والسودان (على أن يكون لعباس حكومة مصر وتوابعها على أن يكون ذلك بالشروط التى وردت فى الفرمان المرسل الى محمد على باشا) ومعنى ذلك ان حكم مصر وراثى فى أسرة محمـــد على أما حكم السودان فلمدى الحياة (٢) .

وواضح من كل ذلك انه لم يترتب على هذه الفــرمانات أى نوع من السيادة المصرية أو الحقوق فى السودان . فالسلطان وان كان لا يملك حق سلب أسرة محمد على على ولاية مصر الا انه يملك حق سلبها حكم السودان فى أى وقت يراه .

وفى سنة ١٨٦٦ نجح اســـماعيل باشا فى الحصول على حق الوراثة الصلبية وامتد هذا الحق الى السودان (على هذا جميعه أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع اليها من الاراضى وكامل ملحقاتهـا وقائم مقاميتى ــ سواكن ــ ومصوع الى أكبر أولادك الذكور بطريق الارث بالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريتك » (٣) .

---

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٢٠ .
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٣٠ .
(٣) فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الموافق ١٢ محرم الحرام ١٢٨٣ .

فاذا كانت مصر قد كسبت من هذا الفرمان حق التوارث الصلبى فى السودان أيضا الا أن مركز السودان القانونى لم يتغير عن كونه تابعا للسلطان لا لمصر وهو يملك حق سلبه له .

وحدث ان عجزت الحكومة المصرية عن ادارة السودان ادارة حسنة فلم تأت سنة ١٨٨١ حتى كان هذا الجزء يغلى بالثورة وعجزت الجيوش المصرية عن سحقها ولقى هكس باشا حتفه وأبيد جيشه فى موقعة شيكان سنة ١٨٨٣ . مما جعل الحكومة البريطانية وقد اصبحت صاحبة الأمر فى مصر منذ سبتمبر ١٨٨٢ تشير على الحكومة المصرية باخلاء السودان وعملت الحكومة المصرية بهذه النصيحة . وارسل لذلك الجنرال جوردون الذى فشل لا فى الاخلاء فحسب بل فى انقاذ الجيش المصرى الذى كان هناك بل قتل جوردون فى السابع من يناير سنة ١٨٨٥ .

ومنذ الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ لم يعد للحكومة المصرية صورة من نفوذ فى السودان واقيمت هناك حكومة وطنية نجحت فى فرض سلطتها على بعض اجزاء السودان وهى وان فشلت فى الحصول على اعتراف الحكومات الاجنبية بها الا انها كانت الحكومة الشرعية الوحيدة وصاحبة السلطة الفعلية هناك .

واعترفت الحكومة البريطانية بأن السودان قد أصبح ارض خلاء . ودعت الحكومة الاجنبية أن تضع يدها على اجزاء منه . فاذا ما أبرمت فى يوليو ١٨٩٠ اتفاقا مع المانيا لتعيين المناطق الاستعمارية لكل من الدولتين بساحل افريقية الشرقية احتفظت انجلترا لنفسها بجميع حوض النيل الاعلى حتى الحدود المصرية .. وكانت تعتبر هذه المنطقة أرض خلاء لا يملكها أحد . اذ لم يذكر فى هذا الاتفاق ان انجلترا تحتفظ بالمنطقة المشار اليها نيابة عن السلطان العثمانى أو الخديوى (١) واذا كانت فرنسا قد نادت بغير ذلك فلم يكن موقفها هذا بسبب مصر بل بسبب موقف العناد الذى وقفته أمام بريطانيا منذ انفراد الاخيرة باحتلال مصر . حتى اذا غيرت انجلترا موقفها وعادت تذكر ان السودان من أملاك مصر . (وما كان يوما من

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٣ .

املاكها) . وقفت فرنسا فى الناحية الاخرى واعلنت انه ارض خلاء وارسلت جيشها بقيادة الجنرال مارشان لاحتلال اعالى النيل ونجح فعلا فى الوصول الى فاشودة واذا كان مارشان قد انسحب بعد ذلك منها فلم يكن ذلك تسليما منه بحقوق مصر أو السلطان فى السودان بل لأن فرنسا لم تكن مستعدة للاشتباك فى قتال قد يعود على مستعمراتها وعليها بأوخم العواقب (١) .

واذا كانت مصر قد نجحت بعد ذلك فى استعادة السودان فلم يكن ذلك نتيجة لمساعدة السلطان العثمانى لها سواء بالمال أو الجند كما انه لم يكن نتيجة لدعواها فى السيادة السابقة على السودان . وكانت الاستعادة بالاشتراك مع البريطانيين . وكانت نتيجة هذا الاشتراك عقد هذا الاتفاق الذى اطلق عليه اسم اتفاق السودان وهو الذى يبيح لبريطانيا الاشتراك مع مصر فى ادارة السودان .

فليست هناك اذن اى حقوق لمصر أو سيادة مصرية أو شبهة لسيادة مصرية ضيعها هذا الاتفاق . واذا كانت هناك سيادة على السودان . فانها كانت لتركيا ولم تحاول هذه الدولة الاحتفاظ بهذه السيادة او بذل اى مجهود للاحتفاظ بها فهذا الاتفاق اذا كان قد بدد سيادة ما . فقد بدد السيادة التركية التى كانت قد تبددت من تلقاء ذاتها منذ قيام الحكم الوطنى فى السودان .

ويبدو ان مصطفى كامل كان حريصا على هذه السيادة التركية اكثر من حرصه على اى شيء آخر ولعله كان يرى نفسه ممثلا للدولة التركية فى مصر اكثر مما هو مصرى ، فبطرس غالى بعقده هذا الاتفاق لم يكن الا معترفا بالحقيقة الواقعة وهى ان مصر وانجلترا قد فتحتا بالاشتراك ارضا جديدة . لهما الحق فى حكمها .

ومع ذلك فقد حرص بطرس غالى على أن يؤكد « حقوق » مصر فى السودان التى كان يرى ان الاتفاق المصرى البريطانى لم يمسها فى قليل أو

---

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٦ .

كثير . فقد انتهز فرصة المفاوضات البريطانية الفرنسية بشأن فاشودة ليكتب الى القنصل البريطانى « ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها فى حين من الاحيان العودة الى استئناف احتــلال الاقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الاقاليم الا عقب قوة قاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة » .

« ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فاشودة هى موضوع مفاوضات الآن بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فانها تكل الى أن أطلب الى سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقهــا التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الاقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد ابن عبد الله المهدى (١) .

ورأى بطرس غالى بصفته وزيرا للخارجية ما جرته على البلاد سياسة وخز الابر التى سار عليها كل من اللورد كرومر والخديوى . فقد كان كل منهما يحرص على أن تكون الكلمة العليا له ولم تجن البلاد من ذلك سوى ضياع هيبتها وفقد كرامتها . فقد كانت الازمات فى العادة تنتهى بانتصــــار اللورد كرومر ، فقد انتقد الخديوى الشاب نظام الجيش المصرى عندما زار الحدود الجنوبية فعد اللورد كتشنر هذا الانتقاد انتقاصا لقدرته كسردار عام للجيش المصرى وكانت النتيجة أن أرغم الخديوى على الاعتذار . وأمثال هــــذه الحادثة كثير . فلم يجد الوزير الحريص على كرامة بلاده بدا من التقريب بين الخديوى والانجليز فما ان زار معه انجلترا فى سنة ١٩٠٨ حتى انتهى مع وزارة الخــارجية البريطــانية الى تغيير هــذه السياسة الى سياســة الوفاق أى تفاهم الطرفين على الاشياء قبل تنفيذها . أى تنازل الحــكومة البريطانية عن سياسة حصر السلطة كلهــا فى يد المعتمد البريطــــانى والمستشارين البريطــانيين . بل تركت للمصريين أمر التصرف فى سياستهم داخل اطار خاص . فأسندت بعض المنــاصب الكبيرة الى الأكفــاء من المصريين فاقبلت وزارة مصطفى باشا فهمى واســــندت الوزارة الجديدة

---

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٣٨ .

الى بطرس غالى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ولم يدخلها من أعضاء الوزارة القديمة غيره وسعد زغلول باشا ودخاها حسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا وكل منهم وطنى صادق الوطنية . وجدير بنا أن نشير الى تاريخ تولية بطرس غالى الوزارة كحدث وطنى جدير بالتسجيل فى التاريخ المصرى اذ كان بطرس غالى باشا اول وزير من أصل مصرى تولى منصب الوزارة منذ انشائها . بل أول رئيس وزراء اختاره الخديوى دون تدخل من الانجليز .

ونستطيع الآن ان نذكر فى كثير من الايجاز ما عرف فى السياسة المصرية (بأزمة طابا) دليلا على وطنية هذا الرجل وصدق خدمته لبلده أن سياسة الوفاق التى أسسها مع بريطانيا لم تكن خيانة منه لبلده كما ادعى المعترضون.

فى سنة ١٨٩٢ حين تولى عباس الثانى السلطة أصدرت له تركيا كعادتها فرمان التولية ولكنه هذه المرة جاءت به بعض التعديلات عما سبقه من الفرمانات التى صدرت لكل من عباس الاول وسعيد واسماعيل وتوفيق . وقد قصدت تركيا بهذا التعديل استرداد شبه جزيرة سيناء من مصر وهى التى حصلت عليها بمقتضى فرمان سنة ١٨٤٠ — وهو الفرمان الذى جعل حدود مصر الشرقية خطا مستقيما يصل من رفح ورأس خليج العقبة — جزءا من مصر .

وقد حاولت تركيا بهذا الفرمان — الى جانب استرداد شبه الجزيرة التى أصبحت على درجة كبيرة من الاهمية منذ افتتاح قناة السويس — تحرير علاقتها بمصر من الصيغة الدولية التى كسبتها فى اتفاق سنة ١٨٤٠ .

ومما يؤسف له ان الحزب الوطنى ومن ورائه مصطفى كامل لم يتردد فى تأييد الباب العالى فى هذه المحاولة حتى وان أدى الى تمزيق وحدة الاراضى المصرية التى لم تكن تعنيه قدر عنايته بوحدة أراضى الدولة العثمانية وهو المبدأ الذى اتخذه مصطفى كامل اساسا لجهاده الوطنى .

ولكن مصر لم تلبث ان تنبهت الى هذه المحاولة وعدل فرمان التولية واحتفظت مصر بسياستها كاملة على شبه الجزيرة .

وفى سنة ١٩٠٥ــ حين كان مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزارة المصرية وبطرس باشا غالى وزيرا للخارجية ــ حاولت تركيا هذا الأمر مرة ثانية حين شرعت فى تعزيز قواتها فى طابا الذى تقع على الناحية الغربية من رأس خليج العقبـــة .

ووقف الحزب الوطنى من جديد نفس موقفه السابق متغاضيا أيضـــا عن المصالح المصرية مضحيا اياها على مذبح المصالح التركية التى كانت تمده بالمال والتأييد من أجل مقاومة الاحتلال البريطانى لمصر متناسيا ان كلا من بريطانيا وتركيا مســـتعمران لبلده . ولكن الحـــكومة المصرية بادرت الى التصدى لهذه المحاولة الجديدة وحفظت وحدة الأراضى المصرية بالرغم من ان الوالى (عباس الثانى) حاول أن يلعب فيها دورا مزدوجا حين تظاهر بتأييد الوزارة فى مسعاها فى الوقت الذى أرسل فيه احمـــد شـــفيق باشا الى استنبول ليقابل السلطان ليطعن الوزارة من وراء ظهرها .

وقد استندت تركيا فى هذه المحاولة الجديدة الى ان (مصر كلهـــــا مقاطعة متممة للممالك الشاهانية وليس هناك من حـــدود بينهما الأمر الذى يعد منافيا لصداقة التبعية) .

ووجهة النظر التركية هذه وان بدت منطقية لعلاقة مصر بتركيا الا انها كانت منافية منافاة صريحة للاتفـــــاقات الدولية المبرمة بشأن مركز مصر الخاص تحت ولاية بيت محمد على (١) وقد كانت الحـــكومة المصرية ومن ورائها بطرس غالى وزير الخارجية متشددا غاية التشدد فى موقفه وظهر هذا التشدد واضحا فى ردوده على السلطان الا أن الخديوى كان كثير التدخل من أجل تخفيف لهجة التشدد كما أنه كان يرسل الى السلطان من وراء ظهر وزير خارجيته برقيات متتالية بهدم النظرية المصرية ويقول « ان تفســـــير

---

(١) لم يجر الى جعل العلاقة التركية المصرية الى علاقة دولية الا ضعف تركيـــا واستئجارها لـــكل من انجلترا وروسيا حين هددت الجيوش المصرية استنبول وبدا العرش السلطانى على وشك الانهيار .

الاتفاقات وايضاحها هما من حق صاحب الامر دون سواه وان الدولة التى تترك ادارة جهة من جهاتها الى أحد اتباعها « مصر » هى صاحبة الحق فى أن تسترد هذا الحجة » .

ونحن لا ننكر ان موقف التشدد الذى كانت الحكومة المصرية تقفه كان مؤيدا من بريطانيا تحقيقا لمصالحهما من ناحية وتأييدا لسيادة الوفاق التى اتفقت عليها مع وزير الخارجية المصرية ولكن هذا التأييد لا يجب أن يعمينا عن انه كان لصالح مصر ١٠٠ ٪ .

وكان من نتيجة هذا التشدد ان تراجعت تركيا عن محاولتها بعض التراجع وعرضت اقتسام شبه الجزيرة بين مصر وتركيا ولكن الحكومة المصرية ظلت محافظة على موقفها الأمر الذى أرغم الخديوى على التراجع عن دوره المزدوج لا سيما وقد ترددت الاشاعات ان انجلترا لم تكن تتردد فى عزله .

ومما هو جدير بالذكر ان الخديوى حاول خلال الأزمة أن يلعب على وتيرة الدين حين جعل رسوله شفيق باشا مبعوثه الى السلطان يسأل السلطان التساهل فى مسألة دير السلطان للقدس الذى كانت الكنيسة المصرية تتمسك بملكيته والموافقة على وجهة نظرها لقاء رضا بطرس غالى القبطى فيتساهل فى تبعية سيناء لمصر ولكن وظيفة بطرس غالى تنأ به عن هذا الموقف .

وانتهت الازمة فى مايو سنة ١٩٠٦ (على بقاء القديم على قدمه) واحتفاظ مصر بشبه الجزيرة كاملة لسيادتها .

ولنتصور معا ما كان يحدث لشبه جزيرة سيناء ولقناة السويس فيما لو نجحت تركيا فى هدفها وزحفت الحدود التركية حتى قناة السويس ثم جاءت الحرب العالمية الاولى وقسمت الاراضى العربية بين الدول المنتدبة وجاءت انجلترا الى فلسطين ومعها وعد بلفور وسمحت لليهود بالهجرة وسكنى شبه جزيرة سيناء واستقروا على الضفاف الشرقية للقناة منذ سنة ١٩٢٠ .

وكأن بطرس غالى الوطنى قد نظر الى المستقبل بعين السياسى البعيد

النظر ورسم سياسة الوفاق التى ضمنت لمصرية تأييد انجلترا لموقفها فى هذا النزاع وهو الموقف الذى رماه بعض المؤرخين بسببه بتهمة الخيانة (١) .

منذ سنة ١٩٠٢ أخذ عـــدد اليهـود اللاجئين الى انجلترا هربا من الاضطهاد الروسى والرومانى يزداد والحكومة غير راضية عن وقفتهم بسبب سياستها ، ولكنها من ناحية أخرى لانهم كانوا يقبلون اجورا اقل من أجور البريطانيين مما ادى الى تفاقم العطلة بين العمال .

وحضر هرتزل الى لندن طالبا اتخاذ ارض لتجميع اليهود عارضـــا آوغندا أو قبرص أو سيناء وكان هرتزل قد عرض هذا الاقتراح على السلطان (عبد الحميد الثانى) بعد أن اتخذ فيه مؤتمر بازل الخامس قرارا بالموافقة عليه وقابل فى ذلك اللورد روتشلد (وكانت أوغندا تشمل أوغندا الحـالية وكينيا) واتفق الاتفاق على تركيز جهودهم على لندن حتى اذا قابل هرتزل مستر تشامبرلن وزير الخارجية مال هذا الاخير الى قبوله رغبة فى التخلص من اليهود الوافدين على انجلترا ولم تلبث قبرص ان استبعدت لئلا تثــار الروسيا التى كانت تدعى حماية الارثوذكس فى العالم (ما عدا مصر) واستمر الرأى على أن فلسطين ومعها شبه جزيرة سيناء هى ارض الأمل .

وكان تشامبرلن يرغب من ناحية أخرى فى ارضاء اليهود واهالى جنوب افريقيا للاستيلاء على مناجم الذهب هناك وكانت سياسة بريطانيا ازاء هذا الجزء من مستعمراتها هى استرضاء أهلها بعد أن هـزموا فى حرب التحرير كما ان استقرار اليهود فى فلسطين تحت حماية بريطانيا تجعل من هذا الجزء املا بريطانيا بعد انهيار تركيا .

وكان مفتاح هذا الموقف اذن فى يد الحكومة المصرية التى تملك التصرف فى أمورها منذ فرمان سنة ١٨٤٠ كولاية ممتازة وتحت ارشاد بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ وانتهى الامر الى قدوم بعثة صهيونية فى يناير سنة ١٩٠٣ مكونة من ستة اغلبهم من المهندسين ومكثت بها نحو شهر وكتبت تقريرا عن أحوال

---

(١) ابراهيم أمين غالى فى « شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ الحديث » عدد ٤٨ من مجلة السياسة الدولية اكتوبر سنة ١٩٧٤ م .

شبه الجزيرة قدرت عدد سكانها ٤٨٠٫٠٠٠ مواطنا يقطنون خمس مناطق وانتهت الى ان المنطقة غير صالحة لسكنى الأوروبيين ولكن اذا حلت مسألة الماء بانشاء الآبار أمكن اصلاح أجزاء كبيرة منهـا وزراعة القمح والذرة والشعير والبقول كالعدس والفول والصوبا ومن الفواكه البلح والتين والبرتقال والليمون والزيتون والخروب وبعض الاشجار الخشبية كالكافور ، كما يمكن انشاء بعض الصناعات الزراعية للزيوت وسكر القصب والفواكه المجففة والأنبذة والكحول بل بلغت بها الجرأة أن حددت حدود المنطقة التى تجرى المفاوضة بشأنها مع الحكومة المصرية بالحدود التركية شرقا وقناة السويس غربا والبحر الابيض شمالا ومرتفعات التيه جنوبا أى كل شبه جزيرة الجزيرة بل يرى التقرير أن يقوم الفلاحون المصريون بالمجهود الزراعى بل حرروا صيغة عقد لعرضه على الحكومة المصرية يتيح لهم (احتلال) الارض واستعمارها مدة ٩٩ سنة ثم استغلالها بالصورة التى يرونها ، بل للشركة حق تجديد الامتياز لمدة مماثلة ، ورفع الاقتراح الى الوزارة المصرية مشفوعا بتوصيات الحليف البريطانى ولكن لم يكد يمر أسبوعان حتى تلقت من بطرس غالى وزير الخارجية المصرية ردا بأنها (لا تستطيع وفقا للقرارات الشاهانية لأى سبب أو مبرر التنازل عن جزء أو كل الحقوق المتعلقة بالسيادة وكذا فانه يجب أن نستبعد بصفة قاطعة كل فكرة ترمى الى الحصول على اتفاقات من هذا النوع) وفى نفس اليوم ارسل اللورد كرومر الى حكومته صورة من رد الوزير مع رأيه الشخصى الذى يقول ، ان الحكومة المصرية غير مستعدة للأخذ بهذا الاقتراح لانها لا ترى فيه أى نسبة من العدل ومن ثم ترى وجوب صرف النظر عن هذا المشروع .

هذا هو موقف الرجل الذى يرميه بعض المؤرخين بالخيانة ومسايرته للانجليز فى كل مشروع وأن كان ضارا بمصر فهـا هى الحكومة البريطانية تعضد المشروع وتوصى هرتزل بالمضى فيه بل بمساعدته على ارسال القضية اليهودية ولكنها لم تملك الا النزول عنه بعد موقف التشدد الذى ابداه وزير الخارجية المصرى (١) .

---

(١) ابراهيم أمين غالى الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية فى شبه جزيرة سيناء ، مجلة السياسة الدولية عدد ٤٣ يناير ١٩٧٦ .

أما بعث قانون المطبوعات فان المسئولية لم تكن على بطرس غالى بل على الخديوى عباس نفسه ، ففى اكتوبر سنة ١٩٠٨ تقابل الخديوى مع جراهام نائب الدون جورست الذى حل محل كرومر وحدثه فيما وصلت اليه الصحف المصرية من تمادى فى نقده الى حد أن اتهمته صحيفة الحزب الوطنى بالخيانة وطلب وضع قانون لكبح جماحها فلم يرافق جراهام على هذه الفكرة ولكن ذلك لم يمنع الخديوى من أن يطلب الى بطرس غالى الذى أصبح رئيسا للوزراء سن هذا القانون فرضخ بطرس غالى للرغبة الخديوية وقدم هو القانون الى مجلس الوزراء فعارضه كل من سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد مما أدى الى تدخل الخديوى شخصيا لدى الوزراء المعارضين وبعد أن وافق على القانون مجلس الوزراء أرسل الى مجلس شورى القوانين الذى كان فى استطاعته رفضه ولكنه وافق عليه دون أى تعديل مما يدل على تدخل الخديوى لدى النواب أيضا .

وكان من ملتمسه هذا ان رأى بطرس غالى صورة ادخال تعديل على سلطة مجلس شورى القوانين يعطيه الحرية فى مراجعة اعمال الحكومة واتفق فى ذلك مع ممثل انجلترا وكان غريبا ان الحزب الوطنى عارض هذه الرغبة بدعوى ان الحكم الدستورى يعارض الاسلام (١) .

وقد حاولت انجلترا فى ظل هذه السياسة الجديدة أن تحمل الحكومة المصرية على مد امتياز شركة قناة السويس الى مدة جديدة نظير مبلغ عاجل من المال وزيادة نصيبها من الارباح وكانت الصفقة ولا شك خاسرة لمصر . فما كان من الوزير الا أن أوعز الى مجلس شورى القوانين ــ بعد ان تظاهر هو بالموافقة ــ بأن يطالب بمناقشة هذا الاتفاق وما تقدم المجلس بهذا الطلب حتى أسرع رئيس الوزراء بتلبيته . أما عن دفاع الوزارة عن المشروع أمام المجلس فليس بطرس غالى مسئولا عنه فقد مات الرجل قبل نظره . ولسنا فى ذلك نلقى الكلام على عواهنه بل نستدل عليه بأن بطرس غالى كان رئيس

---

(١) ابراهيم أمين غالى ــ شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ « السياسة الدولة عدد ٣٨) .

الوزراء الاول الذى قرر علنية جلسات مجلس الشــورى (١) بعد أن كانت سرية وجعل الوزارة مسئولية أمام المجلس عن أعمالها (٢)،وبذلك مكن الرأى العام من الاطلاع على أعمـــال كل من الوزارة ومجلس الشورى كما مكن السلطة الدستورية الصورية من أن تصبح سلطة دستورية فعالة وليس هذا بعمل رئيس الوزراء الذى يعمل عملا يخاف ظهــوره ولم يكن هذا العمــل الوحيد الذى فعله رئيس الوزراء من أجل تمكين الشعب من الاشراف الفعلى على أعمال السلطة التنفيذية بل والاشتراك فيها فقد عدلت وزارته قــانون مجالس المديريات فزادت من عدد أعضائها فجعل لكل مركزا عضوين كمــا خولت هذه المجالس سلطة فرض ضرائب اضافية على الاطيان لانفاقها على المنافع العامة ومنها التعليم (٣) .

وكانت نتيجة شجاعة هذا الرجل الذى حمل رأسه على كتفه أينمــا ذهب ان اعتدى عليه علنا فى العاشر من فبراير ١٩١٠ ومات الرجل وهو يردد (يعلم الله انى لم اعمل عملا يضر ببلادى) وكان الرجل صادقا . فبطرس غالى هو الذى :

١ ــ علم المصريين قيمة العمل الهادىء المبنى على التعاون الصادق والذى يرمى الى خدمة الوطن دون اللجــوء الى الصخب الذى يرمى الى الدعاية اكثر مما يرمى الى الخدمة .

٢ ــ أشعر المصريين بضرورة تعاون جميع أبناء الامة وقد جعله ذلك موضع تقدير كثيرين من المسلمين الصادقى الاسلام كالشيخ محمد عبــده والشيخ محمد النجــار . اذ لم يكن يتردد عن خدمة احد اذا وجد الحق فى جانبه .

٣ ــ علم المصريين كيف يقف الرجل مدافعا عن رأيه فى شجاعة دون

---

(١) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

(٢) مقال لمحمــد حسين هيكل عن بطرس غالى بالمجلة الجــديدة سنة ١٩٣٥ .

(٣) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

النظر الى راى الآخرين ما دام يرى الخير فى جانبه . اذ انه لم يتردد وهو الوزير القبطى عن أن يتدخل بنفسه عند اصلاح المحاكم الشرعية ويعطى حاكم البلاد حق تعيين قاضى القضاة وكذلك حق اصلاح ما يراه دون تدخل من السطان فقطع بذلك خيطا قويا من خيوط السيادة التى تربطها بمصر بينما كان رجال الأزهر وعلى راسهم الشيخ حسونة النواوى يعترضون ويصرون على أن السلطان العثمانى هو وحده الحاكم الشرعى المطلق فى الأمور الشرعية وان القاضى الأكبر العثمانى هو نائبه يعين بارادته ويفصل بمجرد ارادته ولا حق للحكومة المصرية باحداث أى تغيير فى هيئة المحكمة الشرعية لان ذلك ليس من اختصاصها (١) ووافقهم على هذا الراى اعضاء مجلس شورى القوانين . وان هذا الموقف ليذكرنا بموقف هؤلاء المشايخ انفسهم أيام نابليون حين اراد ان يعين مصريا فى منصب القاضى الاكبر ورفضوا جميعا هذا التعيين .

فبطرس غالى هو الذى استيقظ قبل معاصريه ووقف على حقيقة بلاده ففضل ان يتجرع حقيقتها المؤلمة فحاول أن يجعل هذا العلقم عسلا عن ان ينام فى نعيم الخيال .

وقبل أن تصل هذه الحقيقة الى نهايتها فى سنة ١٩١٨ ظن الانجليز ان مصر قد خلصت لهم الى الابد فقد أصبح التعليم المصرى خاضعا لهم تمام الخضوع وانبث رجالهم فى جميع مصالح الحكومة يسيرونها ، كما خيل اليهم وراح السير الدون جورست يطوف أنحاء البلاد (٢) متفقدا هذه البقرة التى اصبحت غنيمة سهلة للشركات البريطانية بعد أن توسعت فى زراعة القطن من اجل مصلحة لانكشاير بل اكثر من ذلك فقد قضوا على القومية المصرية حيث بثوا التفرقة بين ابنائها واقصوا الاقباط عن مناصبها وجعلوا فريقا من الأمة يعتقد فى حقه وحده فى أن يحتل كبرى وظائفها بدعوى نيابة صاحبها عن ولى الأمر بل حرموا بناتهم من الالتحاق ببعض المدارس (٣) حتى اذا سن

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) تذكار المؤتمر القبطى ص ٣٥ .
(٣) تصريح وزير المعارف بجلسة مجلس شورى القوانين فى ١٩٠٩/٦/١٨

القانون الذى يؤيد هذه التفرقة كان مشجعا لسن قانون آخر مشابه له خاص بالذكور (١) رغم المعارضة الشديدة لبعض أعضاء الهيئة التشريعية . وبذلك خلقوا فتنة التمييز المذهبى بين ابناء الوطن الواحد (٢) وتظـــــاهروا امام المصريين بأنهم أول من ينصر الضعيف ويأخذ بحقـــة من الغالب (٣) ودفعوا بعض الأجانب كالشيخ عبد العزيز جاويش (٤) الى سب الاقباط سبا جارحا حين نددوا بسياسة التفرقة فتقدموا بالشكوى الى رئيس الوزراء مطـــالبين بمساواة المصريين جميعا فى الحقوق كما هم متساوون فى الواجبات (٥) واباحة جميع الوظائف فى وجه الاكفـــــاء من المصريين جميعا بلا قيـــد بالمذهب أو الدين (٦) .

فى الوقت الذى ظن فيه الانجليز هذا الظن الخاطىء وناموا على سرير من الورد نسجوه من أحلامهم الواهية وجه الاقباط الى الاحتلال ضربة قاصمة حين دعوا الى عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط ليرموا بالقفاز فى وجه الانجليز وليعلنوا ان هؤلاء الدخلاء هم سبب هذا البلاء الذى تقاسيه الامة من حيث اشاعة التفرقة بين أبنـــاء الوطن الواحد (٧) وانتخبت لذلك لجنة من بشرى بك حنا وجورجى بك ويصا وبسطوروس خياط وسينوت حنا وتوفيق دوس قررت توجيه الدعوة بعقد جمعية عمومية فى أسيوط فى ٦ مارس سنة ١٩١١ .

---

(١) جلسة ٢١ مايو سنة ١٩١٠ .
(٢) تذكار المؤتمر ص ٥ .
(٣) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٠ .
(٤) الشيخ عبد العزيز جاويش رجل تونسى هرب من تونس سنة ١٨٨١ وترك أهله هناك ليطأهم الفرنسيون ويسقوهم المر والعلقم وقدم الى مصر متظاهرا بالحمية الدينية فخدع المصريون فيه فقابل احسانهم اليه بمحاولة التفرقة بين عناصر الامة فحاول بذلك أن يخلق لنفسه ميدانا للنضال . ولم يلبث ان هرب من مصر الى تركيا وعمل زمنا مع مصطفى كمـــال فى حركته المعروفة الا انه لم يلبث ان انقلب عليه وحاول التآمر عليه الا انه أسرع وعاد الى مصر حيث رحب به الملك فؤاد من أجل الدعاية للحركة التى ترمى الى تنصيبه خليفة للمسلمين فعينه فى وزارة (المعارف) وظل بها حتى مات .
(٥) تذكار المؤتمر القبطى ص ٨ .
(٦) جريدة مصر فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٨
(٧) تذكار المؤتمر القبطى ص ٧٠ .

ولم يكن الاقباط وحدهم هم الذين اعتقدوا ان الانجليز هم أصل البلاء بل شاركهم هذا الرأى بعض أحرار الانجليز مثل الدكتور بتلر Butler الذى قال ان الاتحاد الذى كان قائما بين المسلمين والاقبــــاط فى مصر قبل الاحتلال البريطانى قد تحطم نتيجة لسياسة الحكومة البريطانية الخاطئة

وقد قابل أحرار البلاد هذا المؤتمر أحسن مقابلة فنشرت اللواء (اننا معاشر المسلمين نود من صميم أفئدتنا أن تعطى وظائف الحكومة لمن يستحقها من الأكفاء القادرين من الوطنيين من غير تمييز بين طائفة وأخرى ولا دين دون دين) .

كما نشرت الجريدة (ان رأى الجريدة فى التسوية بين المســـلمين والاقباط معروف مشهور وانها تقول ان كل مصرى له حق فى المساواة العامة من غير تمييز) بل زادت وقالت انه لا شك ان الاحتلال البريطانى هو المسئول الاول عن هذه الحالة السائدة بين المسلمين والمسيحيين .

ونشرت المؤيد تقول لا ندرى لماذا لا يأخــذ (الاقباط) حصتهم كوطنيين لهم ما للوطنى فى الوظائف العمومية . .

كما طلب الشيخ عبــد الرحيم الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية (منع معاكسة المؤتمر القبطى) كما أرسل محمد بك توفيق الأزهرى صاحب جريدة الرائد العثمانى برقية قال فيهـــا « أسأل الله أن يكلل أعمال مؤتمركم بالنجاح والفلاح لأنه مؤتمر خير وسلام واتفاق ووئام رغم أنف الذين يعملون للتفرقة وانقسام » (١) .

وسألت جريدة « مصر الفتاة » فى عددها الصادر فى ٢٩ يناير ســـنة ١٩١١ عن المسئول عن هذه الحالة التى يشكوها الاقباط . ومن هو الذى ينكر كفاءة الاقباط هل هم المصريون أم الانجليز ؟ كمـــا ارسل عثمان بك عبيد المدير السابق الى جريدة الوطن فى نوفمبر ١٩١٠ يقــــول « أن الاقباط مع مع ما عرف عنهم من تمسكهم الشديد بدينهم يشاركون المسلمين جميـــــع

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٦٨ .

عواطفهم من كل قلوبهم » . ولكن الانجليز عرفوا قبل غيرهم أن الضربة موجهة اليهم فأوعزوا الى الحكومة بمنع الاجتماع كما تدخلوا لدى البطريرك كى يأمر بوقف المؤتمر . ولكن الاقباط بما عرف عنهم من وطنية ترقى فوق الصداقة والرعاية والدين صمموا على أن يبينوا وجهة نظرهم كاملة .

وعقد مؤتمر من الاقباط لابداء وجهة نظر خاصة فى مسألة عامة ليس فيه ما يؤخذ عليه فقد أجمع الاقباط فى مؤتمر عام فى سنة ١٩٥٦ فى القاهرة اشتركت فيه الحكومة وخطب فيه أحد أعضائها . اما عن المطالب الخاصة التى يتقدم بها الاقباط فليس هناك ما يؤخذ عليها ايضا . فليس الاقباط سوى فريق من الأمة له مطلق الحرية يحكم ما يتمتع به من مساواة فى الحقوق والواجبات ان يدلى برأيه فى مسألة من المسائل او يطلب طلبا خاصا . أو ينبه الى خطر يراد بالوطن ولم يكن مؤتمر أسيوط فتنة كما وصفه البعض بل كان لطمة وجهها الاقباط الى الانجليز فى حنكة ودراية فكان بذلك تنبيها للأمة لما كان يراد بها من بث الفرقة بين ابناء الوطن الواحد وتنبيه الامة الى اعدائها الحقيقيين . ولذا نشرت جريدة الاخبار القبطية ان اعداء المؤتمر ثلاثة :

(أ) الحكومة لأن اعلان الحيف للقابضين على أزمة الحل بما لا يرضون أن يعرف عنهم .

(ب) السير الدون جورست . الذى يريد أن يرضى الاغلبية (على حساب الوطن) .

(ج) الحزب الوطنى لأنه يريد أن يصور الاقباط عبيدا يتهالكون على محبة الانجليز .

وقبل أن يجتمع المؤتمر نشرت جريدة مصر فى فبراير سنة ١٩١١ مطالب المؤتمر التى تتلخص فى :

١ — المساواة فى الوظائف .

٢ — تمثيل الاقلية فى الهيئة النيابية .

٣ — صرف ضريبة الخمسة فى المائة التى تجمعها مجـالس المديريات على فتح مدارس لابناء الامة جميعا .

٤ — محاكم الاحوال الشخصية القبطية تطبق شريعتهم .

٥ — التعليم الدينى والادبى للأقباط .

٦ — راحة الأحـد .

على أن لجنة المؤتمر عادت فى ٣ مارس وقصرت هـذه المطالب على خمس نقط هى :

١ — مساواة جميع المصريين فى احترام يوم الراحة الدينى .

٢ — التعويل على الكفاءة دون سواها فى الترشيح فى الوظائف العامة للمصريين .

٣ — تمثيل جميع العناصر المصرية فى جميع مجالسها النيابية تمثيـلا يضمن الموافقة على حقوقهم والمحافظة عليها .

٤ — تمتع الاقباط بجميع حقوق التعليم الاهلى القائمة به لأن مجالس المديريات تجبى لاجله ضريبة ٥ ٪ من جميع المصريين .

٥ — جعل خزينة الحكومة مصدرا للانفاق على جميع المرافق العامة المصرية .

ولم يكن الاقباط فى هذه المطالب يطلبون شيئا جديدا او امتيازا مستحدثا انما كانوا يطلبون العودة الى ما كانوا عليه من مساواة مع جميع المصريين قبل عهد الاحتلال البريطانى واذا استثنينا المطلب السادس فليس هناك من مصرى قط الا ويرى ضرورة تحقيق هذه المطالب فقد نص دستور سنة ١٩٢٣ عليهـا جميعا كما أبقى عليها دستور سنة ١٩٣٠ والذى أصـدره صدقى باشا والذى انتقص فيه كثيرا من حقوق الامة كما نص عليها أيضا دستور سنة ١٩٥٦ الجمهورى .

واجتمع المؤتمر فعلا فى الميعاد المحدد وانفض دون أن يحدث أى اختلال بالأمن وكان أول ما صرح به الخطباء اعلان ان وحدة الامة مقدسة بعيدة عن الاهواء والاغراض . فقد قال ميخائيل بك فانوس المحامى فى خطبته :

« أما مصر فشعب أصله واحد من سلسلة واحدة من آلاف السنين ، ولا يمكن تمييزهم من بعض اذ وجوههم واحدة وملامحهم واحـدة متشابهة وما حقيقتهم الا عنصر واحد يختلف بعضه فى العقيـدة عن البعض فمن ظلم الناس تسميتهم عنصرين » (١) .

وحين قرئت فى الجلسة الثانية رسالة من محمد بك وحيد يناشد فيهـا المؤتمرين « أن يضعوا نصب أعينهم تقوية الوحدة الوطنية » . صفق لهـا الحاضرون جميعا (٢) .

ونفى توفيق دوس مطالبة الاقبـاط بنصيب من وظائف الدولة يوازى نسبتهم العددية « فان هذا يستلزم أن يتربع فى المناصـب العليـا قـوم غير أكفاء لادارتها لا لعلة الا لكونهم اقباط وفى هـذا ضرر بالمصلحة العامة » وساق للتدليل على كلامه نصا للشيخ على يوسف وهو ان (كفاءة القبطى الذاتية ككفاءة المسلم الذاتية لا تقف عند حد . وكلاهما توصلان الى أعلى المناصب » كما رمى بالقفاز فى وجه بريطانيا فساق تاريخ التمييز فى الوظائف الى سنة ١٨٢٢ فقط .

كما أعلن مرقس حنا بك انه ينكر ان يعين في القانون عدد مخصوص من الاقباط لانه يكره أن يذكر فى القانون كلمة قبطى ومسلم بل طالب باتباع الطريقة البلجيكية وهى طريقة الانابة النسبية بمعنى أن كل فئه تمثل بعدد من النواب يناسب عدد المنتخبين من هذه الفئة (٣) وهو رأى ينادي به كثيرون فى الوقت الحاضر .

وتكلم وهيب بك دوس مطالبا بوضع نظـام لمجالس المديريات يكفل

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١١٥ .
(٢) تذكار المؤتمر القبطى ص ١١٤ .
(٣) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٦٩ .

لجميع العناصر التمتع بالتعليم الاهلى (١) وهو ما تسير عليه الحكومة فى الوقت الحاضر. فلم يكن المؤتمر اذن يستحق شيئا من الضجة اثيرت لأجله انما كانت ضجة مفتعلة أثارها الانجليز لانهم ادركوا ان هذه الصيحات لا تؤدى الا الى كشف موقفهم فأشاروا على الخديوى بأن يسعى الى عقد المؤتمر المصرى فلم يجد الا محمود رياض باشا اليهودي الاصل العراقى المنبت البريطانى الهوى ليرأس هذا المؤتمر .

وتوالى الخطباء فى هذا المؤتمر الثانى من ٢٩ ابريل الى ٤ مايو سنة ١٩١١ واعترفوا جميعا بأن :

١ ـ الامة المصرية كلها من عنصر واحد (١) .

٢ ـ نواب الاقباط فى المجالس التشريعية تبلون (٢) .

٣ ـ نظام التوظف فى الحكومة مختل فاسد (٤) .

٤ ـ الحقوق والمرافق فى مصر يجب ان تكون على الشيوع بين جميع المصريين على السواء لا امتياز لواحد منهم على أحد بكونه مسلما او مسيحيا أو يهوديا (٥) .

٥ ـ الانجليز هم الذين بداوا سياسة التفرقة (٦) .

وبانتهاء المؤتمر الاخير انتهت الضجة كلها وعادت الامة الى صفائها السابق رغم ما حاوله الانجليز من إشعال نار الفتنة فقد كتب مراسل جريدة التايمز فى مصر معقبا على المؤتمر الاول انه لا يمكن التسليم بمطالب المؤتمر لعدم كفاءة الاقباط فى تولى وظائف الادارة (٧) .

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٨٣ .
(٢) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى .
(٣) مجموعات اعمال المؤتمر المصرى ص ٢٣ و ٣٢ و ٤٨ و ٨٠ .
(٤) مجموعات اعمال المؤتمر المصرى ص ٥١ .
(٥) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٣٧ .
(٦) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٦٣ .
(٧) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٦٥ و ٦٦ .

ولكنا كأمة حية لم تفتنا هذه المناسبة لنتعظ بها فقد عرفنا عدونا الحقيقى كما اصررنا على وحدة الأمة وعلى وجوب ازالة ســوء التفــاهم وعــودة الصفاء كما عرفنا اختلال أحوالنا الادارية والاجتماعية والاقتصادية ووضعنا لهـــا بعض الحلول التى أخذنا بها فيما بعد .

ولقد كان نجاح المؤتمر القبطى فذا فى النتائج التى وصل اليهـــا فقد شعر السير الدون جورست أن سياسته هى المقصودة بهذا الهجوم القبطى فكتب تقريرا الى حكومته (١) فى أكثر من عشرين صفحة كانت كلها عبـــارة عن محاولة لتبرئة نفسه وحكومته من تهمة سوء الادارة البريطانية فى مصر لعل اغرب ما جاء به من محاولة التنصل هو أنه لم يسمع قبل ذلك عن هذه الشكوى ولـــكن ذلك لم يكن يعنى فى الواقع غير الفشل الذريع للسياسة البريطانية فى مصر والتى كان الاقباط سببا فى اظهارها وكشفها فلم يكن بد من تغييرها وتغيير من يمثلهـــا فعين اللورد كتشنر معتمدا بريطانيا جديدا وهو الذى قال عنه السير ادوارد جراى فى مجلس العموم فى ١٨ يوليوسنة ١٩١١ « ان خبرته فى الشئون المصرية وكفاءته وعدم تحيزه سوف تكســبه ثقـــة الجميع » (٢) وعد الاقباط هذا التعيين انتصارا لهم خصوصا وقد بدأ العميد الجديد عهده بالغاء قانون المطبوعات . فأطلقت حرية الصحافة ولكن ليس معنى ذلك ان حال مصر قد تحسنت فى هـــذا العهد الجـــديد بل ظلت سيئة ما دامت السلطات البريطانية تعتمد على أناس راعت فيهم جانب الولاء اكثر مما راعت جانب الكفاءة مما اشاع نوعا من السخرة وعدم العـــدالة التى ارتكبهـــا موظفو الحكومة اعتمادا على ســـلطة الاحتلال التى تسندهم (٣) فكانت السلطة البريطانية تتدخل حينئذ لاقرار العدل بأخذ جانب الفـــلاحين وكانت هذه المطـــالب سببا فى هذه الازمة التى اجتاحت البلاد قبيل الحرب العالمية الاولى مما أدى الى انهيـــار الاسعار انهيارا كبـــــيرا مما أودى بمستوى البلاد الاقتصادى وكان غرض بريطانيا من ذلك الرد عن طريق غير مباشر على المطالبين بترك الادارة للمصريين .

---

(١) Copts and Muslims p . 36 — 56

(٢) Copts and Muslims p . 137

(٣) Copts and Muslims p . 140 , 141

واخيرا عرف المصريون ان خيرهم فى اخراج اليد الاجنبية التى تسعى دائما الى النيل من وحدتهم وان الدين ليس الا مظهرا من مظاهر اختلاف الفكر وان شعور المصريين جميعا ونفوس المصريين جميعا تحمل من عواطف الحب اكثر مما تحمل عواطف البغض . بل تحمل من عواطف التعاطف والتآزر والتعاون أكثر مما تحمل من عواطف التنافر والتنابذ . وان طبيعة بلادنا السمحة الحلوة وارضها السهلة ونيلنا المنتظم وشمسنا الساطعة ، بل احساسنا بارتباط مصالحنا وتداخلها،وكل هذه عوامل توصى بالوحدة بل ترغمنا على أن نشعر اننا شعب واحد بل جسم واحد وما يضر عضوا يضر بالعضو الآخر وانه سرعان ما تتحد الاعضاء على طرد الجرثومة الغريبة وعرفنا أيضا ان طبيعة المصريين تحمل عاملا ديناميكيا يعمل تلقائيا من أجل الحياة لا من أجل الموت . انها نعمة من السماء ولا أظن شعبا آخر يحملها كما يحملها المصريون واننا يجب أن نحرص عليها ونحرسها ونحافظ عليها بل ننميها وليس على ذلك من أمثالنا الشعبية التى نتداولها فتمثل الروح المصرية الحقيقية أصدق تمثيل (اليد الواحد ما تصفقش) — (أنا واخويا على ابن عمى . وانا وابن عمى ع الغريب) .

ولقد عرف اللورد كرومر وهو الاستعمارى الاصيل والذى كانت سياسة التفرقة بين العنصرين أهم ما يميز عصره ما فى اتحاد أبناء الوطن الواحد من تأصل حين قال « ان الفرق الوحيد بين الاقباط والمسلمين فى مصر انما هو ان الاولين مصريون يتعبدون فى كنائس بينما الآخرون مصريون يتعبدون فى مساجد » (١) .

---

(١) Modern Egypt Vol II p - 206

الباب السادس

الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

واخيرا انتصر الاقباط وقامت الامة كلها تنادى بما كان ينادى به الاقباط بعد أن آمنت أنها الدعوة الحق وكل ما عداها باطل . قامت الامة كلهـــــا تنادى بالقومية المصرية بعيدة عن كل من الانجليز والاتراك . وانفك سحر هذا الطلسم الذي خلقه الحكام الاجانب . واستغلوه لمصلحتهم وحدهم . لا لمصلحة المصريين . ظلسم القومية الاسلامية الذى كان يعصف بالقـــومية المصرية .»

كانت صرخة واحدة من سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كافية لأن يهب المصريون جميعا بعد أن نسوا مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش ورشيد رضا . متآخين متعاونين .»

كانت صرخة لم يحسب الإنجليز حسابها بعد أن هزمت تركيا واصبح تنازلها عن أملاكها العربية حقيقة واقعة . وظن الإنجليز بعدها انه قد خلص لهم هـــذا الركن من العـــالم . فبهتوا ولم يملكوا الا ان يصوبوا الى صفوف الأمة بنادقهم ومدافعهم فتقابلها المصريون جميعا وصدورهم مفتوحة فارتوت الارض المقدسة بدمائهم ممتزجة فانبعث منهـــا هذا المارد الذى ظل نائمــــا قرونا طويلة . مارد القـــــومية المصرية الصحيحة المنبعثة من نفسها . المخلوقة من ذاتهـــا . لا المصنوعة بيد اجنبية . فلم يكن القرن الماضى كله . بل والعشرون سنة الاولى من القرن العشرين سوى معركة واحدة متواصلة خاضها الاقباط بصبر وشــــجاعة كى يجعلون الشعب يؤمن بما يؤمنون . واخيرا لاح النصر وكانت فرحة الاقباط به لا توصف . فقد اثمر جهـــــادهم الطويل واذنت صرخات المعلم يعقوب ان تصل الى آذاننا عبر السنين والأيام

فلم تكن وقفات المعلم رزق وراء على بك الكبير وصرخات المعلم يعقوب حنا ومدارس كيرلس الرابع ثم صرخات ثورة سنة ١٩١٩ الا أجزاء من معركة متصلة ذات هدف محدد دائم هو هدف الاستقلال التام . واذا كانوا الاقباط قد هزموا فى مرحلة او اكثر من مراحل هذا الكفاح الا انهم كانوا وما زالوا يحافظون على هذا الغرض الذى هو كالشعلة المشتعلة التى تهديهم وتقودهم دائما نحو الهدف الأصيل . هدف الاستقلال التام فى ظل القومية الصحيحة .

وعرف سعد زغلول أن لا نجاح لهذه الحركة الا اذا أخذ الاقباط مكانهم فيها فدعاهم فلم يترددوا وكتب سعد زغلول الى واصف بطرس غالى وكان يقيم فى باريس منذ قيام الحرب — تلغرافا يدعوه الى أن يأخذ مكانه الى جوارهم فأسرع ممسكا سلاحه . وحاول المتشككون أن يعيقوه فذكروه ان المسلمين قد قتلوا أباه منذ تسع سنوات فصرخ فيهم كما صرخ المسيح من قبل على لسان الأب وهو يقول لولده « أدخل وافرح معنا . لان أخاك كان ميتا فعاش . وكان ضالا فوجد » (١) .

وظهرت وحدة الامة صافية نقية وبدت مظاهر هذه الوحدة حين وقف شيوخ الازهر على منابر الكنائس كما وقف القسس ورجال الدين الاقباط على منابر المساجد مباركين هذه الوحدة . منددين بالمحتلين . محرضين على التضحية والفداء من أجل الوطن . كما ظهر الصليب يعانق الهلال على الأعلام المصرية . وبدت مظاهر هذه الوحدة أكثر من ذلك حين أخذت تبرعات المسلمين تنهال على الجمعيات القبطية فى المناسبات المختلفة فقد أقامت جمعية التوفيق القبطية معرضا لمدارسها كانت لجنته العليا مكونة من فتح الله بركات وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس ، وعاطف بركات ومحمد محمود خليل الى جانب سينوت حنا وصادق حنين ومرقس حنا وغيرهم . كما أقامت الجمعية الخيرية القبطية سوقا آخر كانت لجنته مكونة من السيدات هدى شعراوى وشريفة رياض الى جانب استر فهمى

---

(١) لوقا ١٥ : ٣٣ .

ويصا وروجينا خياط (١) واذا ما احتفل الحزب الوطنى بجنازة المرحوم محمد فريد اشترك جميع أفراد الأمة بها احتفالا شعبيا هائلا (٢) كما طافت لجنة الوفد المصرى بالبلاد لجمع التبرعات لنفقة أعضاء الوفد وكانت مكونة من فتح الله بركات ومرقس حنا وسينوت حنا ومصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى والأب مرقس سرجيوس .

فجمعت من مدينة الاسكندرية فى يوم واحد اربعة عشر الفا من الجنيهات ومن مدينة فاقوس ثمانية آلاف جنيها .

وكان من أثر هذا التضامن ان نشر المستر بوند القاضى السابق بالمحاكم المختلطة بيانا ينصح فيه حكومته بالتسليم بالمطالب المصرية . بعد ان اتحدت جميع عناصر الأمة هذا الاتحاد المتين (٣) .

ولم تكف انجلترا عن سياستها التقليدية التى نجحت أيما نجاح فى القرن الماضى وهى سياسة التفرقة فاتجه معتمدها اللورد اللنبى الى بطريرك الاقباط يمنيه بالحماية البريطانية له وللأقباط لو انتفضوا وتراجعوا . ورغم ما كان بين الاقباط وبطريركهم من جفوة نتيجة لما حدث بينهما منذ ابتداء وجود المجلس الملى حتى لقد نفى أكثر من مرة . فانه لم يتردد عن ان يأخذ مكانه الذى يحتمه عليه واجبه الوطنى والدينى فرفض هذه الحماية كما رفضها غيره من أعيان الطائفة عندما عرضت عليهم . اذ لم يتورع الانجليز فى بعض الاوقات عن استغلال الصداقات الشخصية فى سبيل سياستهم . فقد قال المستشار الانجليزى لوزارة الداخلية لحبيب المصرى باشا مادام الاقباط يشكون من بعض تصرفات المسلمين فى الوظائف ام لا يكتب القبط لدار المندوب السامى يطلبون حمايتهم . فما كان من الرجل ـ رحمه الله ـ الا ان أجابه ردا حاسما فقال له « لنا من ضمائر مواطنينا . خير سياج يحمينا فنحن أبناء وطن واحد . نستطيع التفاهم مع بعضنا . أما أنتم فلا يعنيكم الا مصلحتكم » . فان استدعت هذه المصلحة عينها أن تلعبوا دور المدافع لتفاخرتم بذلك على

---

(٢) جريدة الاهرام عدد ١٩٢٠/٢/١٦ .
(٣) جريدة الاهرام عدد ١٩٢٠/٦/١٠ .
(١) المقطم عدد ٧ يناير سنة ١٩٢٠ .

الملأ . لقد عشنا معا وليس لنا من يحمينا غير الله » (١) .

وفضل الاقباط ان يضطهدهم اخوانهم على أن يخونوا وطنهم . وما كان لاخوانهم فى الوطنية ان يظلموهم فالمصريون جميعا حريصون على ما ورثوه من أخوة صادقة أمينة ووطنيتهم قديمة قدم النيل . فما دامت هذه الوطنية قد استيقظت فيهم فلن يعودوا لينقضوا هذه الوطنية أو يلطخوها بالوحل .

وتألف الوفد المصرى الاول ومعظم أعضائه ممن اشتركوا قبل ذلك فى حزب الامة . وسمح له بالسفر الى باريس فى ابريل سنة ١٩١٩ لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح فكان وداعهم يوما مشهودا غصت فيه الميادين والطرقات بآلاف المودعين وانضم اليهم الثلاثة المعتقلون فى مالطة . ومن الاقباط الذين اشتركوا فى هذا الوفد واصف غالى . وسينوت حنا وجورج خياط . ولكن الوفد لم يكد يصل الى باريس حتى وجد الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية قد اعترف بالحماية البريطانية على مصر فكانت ضربة قاسية أصابت الوفد المصرى فى الصميم .

واستمر الوفد فى باريس يطرق كل باب دون كلل أو ملل سنة كاملة وصلت الى مصر فى أثنائها لجنة بريطانية برئاسة اللورد ملنر للوقوف على اسباب الاضطرابات المصرية . ولكن لما كان الوفد المصرى الموجود فى باريس هو الوحيد الذى أجمعت الأمة كلها — بما قدمته اليه من توكيلات أقبل جميع أفراد الامة على توقيعها فى حماس بالغ — على ترك مهمة المحادثة اليه وحده ولذا نظمت لجنة الوفد المركزية حملة نجحت فى مقاطعة الامة لجميع أفراد اللجنة .

وكانت هذه المقاطعة الاجماعية من الأمة للجنة ملنر هى التى دفعت انجلترا الى الاعتراف بالوفد المصرى ودعته لفتح باب المفاوضة فى صيف سنة ١٩٢٠ ودارت مفاوضات طويلة حتى أوائل اغسطس انتهت بأن قدم الوفد البريطانى مشروعه الذى عرف فيما بعد باسم مشروع ملنر ناقشه الوفد

---

(١) المذكرات الخاصة للسيد حبيب المصرى باذن خاص من ورثته .

داخليا ورأى أن يعرضه على الأمة لتقول فيه رأيها .

واعلن سعد زغلول على الامة وجوب مقاطعة الحكم بأن لا يقبل أى مصرى تأليف وزارة فى ظل الاحتلال البريطانى ولكن حدث أن عرضت الوزارة على يوسف باشا وهبة (وكان مسيحيا) فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فقبلها، فكان ذلك مثار سخط المصريين جميعا لا سيما وان البطريرك كان قد نصحه بعدم تأليفها . كما تقدم اليه وفد من الاقباط يطلب منه أن يرفض تأليفها فرفض مقابلته فكان من اثر ذلك ان اعتدى عليه فى ديسمبر من نفس السنة فكان أن تقدم قبطى هو عريان يوسف سعد أحد طلبة كلية الطب والقى قنبلة عليه وهو يمر بسيارته فى ميدان سليمان باشا وكان الجهاز السرى اثناء بحثه عن شخص يقوم بهذه المهمة أن تقدم هذا الطالب وطلب اختياره لهذه المهمة حتى لا يقال أن المسلمين قد اعتدوا عليه ولكن حدث أن نجا من هذا الاعتداء ، واذا ما وصل الى مكتبه طلب رؤية هذا الشاب وسأله عن اسمه فأجابه (عريان يوسف سعد قبطى) فحكم عليه بالسجن عشر سنوات وقد حاول المحامى أن يخفف من الأمر أمام المحكمة بادعاء أن الشاب اراد فقط ارهاب الرئيس فكان يبادر بنفى الادعاء والتصريح بأنه القى القنبلة وهو ينوى قتله لا ارهابه (١) .

هذا فى الوقت الذى كان الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول يطرق كل باب فأبدت الأمة رغبتها فى ادخال بعض التحفظات على المشروع وعرض الوفد المصرى هذه التحفظات على الوفد البريطانى فى نوفمبر من نفس العام فأبى ادخال اى تغيير على المشروع فتوقفت المفاوضات .

وحدثت بضع أمور داخلية فى الوفد المصرى لا تتصل بالقضية المصرية عن قريب او بعيد أدت الى انفصال سبعة من أعضاء الوفد ووصولهم الى مصر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٢١ وهذه الحادثة ان دلت على شىء فهى تدل على أن القضية المصرية لم تأخذ من نفوس الاعضاء مكانا جديرا . وان المحافظة

---

(١) الكتاب الممنوع : على أمين ص ١٣٤ — ١٣٧ .

على كرامتهم الشخصية كانت أثمن لديهم من المحـــــافظة على القضية المصرية .

وكان توقف المفاوضات سببا فى عودة الاضطرابات من جديد وقيـــام المظاهرات فقابلها البريطانيون كما قابلوا المظاهرات الاولى بالعنف والقسوة حتى اضطرت الحكومة الى اغلاق المدارس .

وكانت عودة بعض اعضاء الوفد منشقين على الوفد الاول داعيـــا لان تحاول انجلترا اشعال نار هذا الخلاف فأرسلت فى ٥ مارس ١٩٢١ بلاغا الى السلطان تبلغه فيه رغبتهـــا فى الغاء الحماية البريطانية وطلبت تعيين وفد مصرى رسمى للمفاوضة مع الحـــــكومة البريطانية على اساس هذا الالغاء . وكان المعنى الواضح لهذه الدعوة العودة الى تجاهل الوفد المصرى الذى ما زال فى باريس تحت رئاسة سعد زغلول .

فدعا السلطان عدلى باشا الى تأليف وزارة جديدة تقوم بالمفـــاوضة واسرع هذا الى تأليف الوزارة الجديدة وابرق الى سعد زغلول بذلك فكان هذا دليلا على تسامحه عن الموقف السابق الذى ادى الى استقالة الاعضاء السبعة . فقـــابلهم فريق باريس بالدعاء لهم بالتوفيق وأسرع سعد زغلول بالعودة الى مصر وقامت الامة كلها تستقبله استقبالا ما زالت تذكره وتتحدث به حتى الآن .

واذا كان سعد زغلول وصحبه قـــد وصلوا الى مصر فى الخـــامس من ابريل سنة ١٩٢١ فانه لم يعن بمقابلة السلطان أو تقييد اسمه فى التشريفات كما تقضى التقاليد آنذاك بل أسرع الى مقابلة البطريرك فى السابع من ابريل واستقبله هذا ومعه الاقباط جميعا بل والمسلمون أيضا وتبادلا خطبا كلهـــا تحث على الاتحاد وبذلك ظهر لكل انسان ان هذه الدار المتواضعة التى تقع فى أحد الشوارع الضيقة من القاهرة أصبحت قبلة لجميع أهالى مصر سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وان لا مكان لدخيل بينهما كما كانت جميع نداءات الوفد تحض على التمسك بأهداب هذا الاتحاد .

ولكن لم يكن ينقضى شـــهر ابريل سنة ١٩٢١ حتى ظهر الخلاف بين

الوزارة والوفد فقد طلب الثانى :

(أ) أن تكون له رئاسة الوفد الحكومى .

(ب) أن تكون اغلبية اعضاء الوفد الحكومى من اعضاء الوفد المصرى .

(جـ) أن يصدر مرسوم سلطانى بتحديد مهمة الوفد .

(د) الغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف .

وانكرت الوزارة هذه الأشياء وانقسمت الامة الى معسكرين الاول مع الوفد ينصر سعد زغلول والآخر مع الحكومة ورئيسها عدلى يكن . وسعى الساعون لأجل الصلح وحاولوا ن يوفقوا الى حل يصون وحدة الامة ولكن دون جدوى .

ويلاحظ على هذا الخلاف شيئان أولهما ان جميع من انشقوا على الوفد عندما كان فى باريس ــ الا اذا استثنينا حمد الباسل ــ قد انضموا الى المعسكر الوزارى . مما يدل على ان الخلاف الثانى كان متأثرا بالخلاف الأول . وانه يتعلق بما خيل اليهم جميعا انه شيء من الكرامة أكثر ما يتعلق بمستقبل المناوضات القادمة ومستقبل البلاد السياسى وما كانت تبغيه من ضمان الوحدة .

أما الأمر الثانى فهو انقسام الاقباط أيضا مع المعسكرين فلم ينضموا جميعا الى معسكر الوفد أو الى معسكر الوزارة ولو فعلوا لكان موقفهم غير طبيعى ولأمكننا أن ننعته بالطائفية بل انضم فريق منهم الى جانب الحكومة كيوسف سليمان وتوفيق دوس ووهيب دوس بينما انضم آخرون كسينوت حنا ومرقص حنا وجورجى خياط الى جانب سعد زغلول . وهم جميعا وقفوا صفا واحدا فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١١ مما يدل على ان اختلاف الرأى هو الذى يسيرهم كما هو رأيهم وليست الطائفية . وهذا الموقف وان كان غير جديد عليهم بل هو ما أثر عنهم فى كل حياتهم الماضية الا انه جدير بالتسجيل هنا أكثر من أى وقت آخر .

وسرعان ما تألف الوفد الرسمى فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ مكونا من عدلى يكن باشا رئيسا وحسين رشدى باشا نائبا للرئيس وعضوية اسماعيل

صدقى ومحمد شفيق وأحمد طلعت ثم يوسف سليمان .

ومما يؤخذ على هذا الوفد انه تألف على النحو الذى جرى عليه تأليف الوزارات قبل ذلك من وجود قبطى واحد يمثل الأقباط وهو موقف ما كان يجب أن يقفه عدلى يكن مطلقا . فقد اشترك الاقباط فى كل الخطوات السابقة دون النظر الى نسبة عددهم الى عدد المصريين أو الى نسبة ثروتهم كما ان رصاص الانجليز عندما أطلق على المتظاهرين لم يكن ليصيب الاقباط بنسبة عددهم الى عدد المصريين . بل وقفوا جميعا جنبا الى جنب ليتلقوا مصيرا واحدا امام الخطر الاجنبى فكان من الواجب أن تكون نظرة الحكومة الى مثل هذه الامور أوسع من نظرتها السابقة . فالحكومة مازالت تمثل حكومة اسلامية وهى التى تملك حق التصرف فى مثل هذه المواقف فكان يجب ان تبدى هذه النظرة المتسعة كى تظهر للعالم أجمع وللأقباط خاصة ان موقفها بعد الحركة الوطنية يختلف تماما عن موقفها قبلها .

وكان مظهر الخلاف بين الفريقين هذه الخطب النارية التى أطلقها كل فريق على الآخر ينعته بأقبح النعوت وبذلك نجح الانجليز فيما فشلوا فيه أولا من محاولة بث الفرقة بين ابناء الوطن الواحد عن طريق الدين .

ولعل أظهر ما حدث آنذاك هو تقديم الحكومة لتسعة من الموظفين اعلنوا رأيهم فى هذا الخلاف معارضين رأى الحكومة الى المحاكمة التأديبية وهم صادق حنين وسلامة ميخائيل ووليم مكرم وأحمد خشبة ونجيب اسكندر ومحمود فهمى النقراشى وزكى جبره وفؤاد شيرين وحسن أبو الفتوح فقضت بفصلهم جميعا .

وطالت المفاوضات بين الوفد الحكومى واللورد كيرزون حتى نوفمبر سنة ١٩٢١ وانتهت بالفشل بعد أن تبين المفاوضون المصريون ان الحكومة البريطانية لا ترغب فى شيء ــ كما كانت دائما ــ أكثر من استخلاص اعتراف مصرى بشرعية الاحتلال . فقد كان مشروعها الجديد ــ الذى دارت المفاوضة على أساسه ــ خلوا من كثير من المزايا التى كان اللورد ملنر قد اعترف بها فى مفاوضته الاولى . وكان موقفا طبيعيا من الحكومة البريطانية

بعد أن رأت أن الخلاف قد مزق وحدة الامة ولكان موقفا يستحق أن يبادر رؤساء الفريقين لأجله الى نسيان الماضى والعودة الى الاتحاد يجـــابهون بريطانيا . فكان موقفا مخزيا حقا .

وكان هذا الموقف هو الذى حدا ببريطانيا الى ابلاغ السلطان رأيهـــا فى انها لا توافق مطلقا على فكرة الجــلاء عن مصر بل تصر على الاحتفـــاظ بجيش بريطانى كى يحافظ على المصالح البريطانية واهمهـــا المواصلات بينهـــا وبين ممتلكاتها فى الشرق الاقصى . خصــــوصا بعــد ان غــدت قناة السويس أهم حلقة من حلقاتهــــا . وهى لا ترى سبيلا الى معالجــة الحال فى مصر الا بعقد محالفة دائمة تظل فيها بريطانيا وصية على مصر فى كل أمورها والخارجية منها على وجه خاص (١) .

وقبل أن يمر شهر على هذا التبليغ اتهمت بريطانيا سعد زغلول وسبعة من أعضاء الوفد بأنهم يعملون على الاخلال بالنظام وطلبت منهم أن يسافروا الى الريف والامتناع عن كل عمل ســياسى وهم ــ عاطف بركات وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنــا ووليم مكرم وصادق حنين ومحمد عز العرب فبادر الآخيران الى تنفيذ هذا الطلبالا أن مقاومة الباقين دعت السلطة البريطانية الى القبض عليهم ونفيهم الى عدن ثم الى جزيرة سيشل .

وكان هذا فى الوقت الذى استقالت فيه الوزارة ولم تتألف بعد وزارة اخرى . فكان اجراء قاسيا قصـــد به تحدى الأمة وارهابهـــا أولا ثم اعطاء الفرصة للفريق الآخر كى يتقدم بما يراه من مقترحات عملية بعيدة عن تأثير الزعيم . هذا التأثير الذى يصل اليه فى سهولة ويسر عن طريق خطبه التى كانت تجتذب الجماهير ولتستثيرهم . وكان الرجل حقــا . خطيبا بارعا . وتمكن ببراعته هذه من امتلاك ناصية الجماهير ويحركهــا كيف يشاء وكانت الجماهير من ناحية أخرى متعطشة الى هذه القوة غير المنظورة التى تفيض عليها وتقودها .

---

(١) من اللورد اللنبى الى عظمة السلطان فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

فقامت المظاهرات صاخبة عنيفة قابلها البريطانيون بالشدة وسقط كثيرون صرعى رصاصهم.وهرعت طوائف الأمة الى السلطان تحتج على هذا الاعتقال وهذا العنف وبادر الاقباط من ناحيتهم فاحتجوا على طريقتهم الخاصة.فأعلنت الجمعية القبطية الخيرية الكبرى عدم الاحتفال بعيد الميلاد فسرعان ما وجد هذا الاحتجاج الصامت صداه فى نفوس الاقباط فبادرت جمعية الاقباط فى مصر الجديدة الى الموافقة على هذه الخطوة وتلتها جمعيات دمياط والمنيا والسنبلاوين وطوخ النصارى وشبين الكوم وطنطا وغيرها . وفى أول يناير سنة ١٩٢٢ أصدر القس بطرس عبد الملاك رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى بيانا بعدم المعايدة فكان ذلك بمثابة احتجاج طائفى صامت أعلنه البطريرك الذى شارك الامة احتجاجها فكان اعلانا لهذا التضامن المقدس الذى أصبح حقيقة لا سبيل الى الشك فيها .

وأصدر بقية أعضاء الوفد بيانا موقعا من حمد الباسل . ومحمد محمود وويصا واصف وعلى ماهر وواصف غالى وأحمد لطفى السيد وجورج خياط وعلوى الجزار وحافظ عفيفى ومراد الشريعى يستنكرون هذا الاعتقال ويدعون الى عقد مؤتمر وطنى لتقرير الخطة الجديدة (١) .

وجاءت هذه الضربة المباغتة على رأس الشعب فأفقدته وعيه بعض الشىء الا انه سرعان ما أفاق وتألف وفد جديد من حمد الباسل وواصف غالى ومرقص حنا . وويصا واصف ومراد الشريعى . وجورجى خياط (٢) . اجتمع ليعلن حلوله مكان الوفد المعتقل وأصدر بيانا الى الامة دعاها الى عدم المعاونة مع المحتلين . وبين لهم فى هذا البيان أوجه تنفيذ هذه السياسة الجديدة وهى الاضراب عن تشكيل الوزارة وعدم التعامل مع البريطانيين سواء كانوا افرادا أو هيئات بمقاطعة البنوك البريطانية والسفن البريطانية والتجارة البريطانية .

---

(١) المقطم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ .
(٢) أهرام ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ ــ وآخر ساعة عدد ٢١٧١ فى ١٩٧٦/٦/٢ .

وكأنما هذا الصراع المصرى البريطانى قد أيقظ روح العناد فى الشعب واستعد لحركته القادمة . ولم ترهبه هذه القوات البريطانية التى انبثت فى الشوارع (للمحافظة على الامن) خصوصا بعد أن قبضت السلطة البريطانية على موقعى هذا البيان فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩٢٢ وأرسلتهم الى ثكنات قصر النيل ولكنها خافت تبعة هذا العمل فأسرعت باطلاق سراحهم فى اليوم الثانى . وكان هذا التحدى من جانب انجلترا ومقابلة التحـــدى بمثله من جانب الشعب سببا فى تأخير تأليف الوزارة الجديدة . ثم اصـــدار تصريح ٢٨ فبراير .

وقابلت الامة هذا التصريح بما هو جدير به من الاستنكار وقامت المظاهرات من جديد تستنكر قيام الوزارة واستنادها الى هذا التصريح الاعرج وكذلك اقرارها بحق انجلترا فى ابعاد المصريين . ولم تكد البلاد تهـــدأ بعض الشىء حتى بدت وطنية الاقباط مرة أخرى حين قاموا يستنكرون حـــق انجلترا فى حمايتهم اذ عرفوا تماما ماذا تعنيه انجلترا بكلمة (الأقليات) . وأصـــــدر الاستاذ عزيز ميرهم بصفته سكرتيرا للحزب الحر الديمقراطى بيانا يرفض فيه حماية انجلترا للأقليات . اذ (لا تخالف بين سكان مصر الا من جهـــــة العقيدة أما واجباتهم المدنية فهى واحدة) (وتمسك انجلترا بحماية الاقليات لا مسوغ له على ما فيه من العدوان على الاستقلال . فـــلا محل للاحتفاظ به) .

وشىء آخر جدير بالبحث أيضا . وهو اعتراف انجلترا باســـــتقلال مصر . فقد دخل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ يوم ان كانت البـــلاد تحت السيادة العثمانية . واعترف الانجليز أنفسهم أكثر من مره ان هذا الاحتلال مؤقت وانه سوف ينتهى اذا ما استقرت الاحوال فى مصر . فهـــذا الاحتلال بموجب هذا الاعتراف غير شرعى . ولا يعرف القانون الدولى سوى السيادة العثمانية التى كسبتها تركيا بحق الفتح فى سنة ١٥١٧ واعترفت بها مصر فى فرمانى سنة ١٨٤١ . فاذا ما انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة تركيا . ووقعت معاهدة سيفر التى تنازلت بها عن سيادتها على كل البلاد العربية

فكان ذلك معناه ان مصر قد استقلت فعلا بمجرد توقيع معاهدة سيفر . ولم يكن ينقصها غير اعتراف الدول بهذا الاستقلال وهذا الاعتراف موجود ايضا ما دامت انجلترا وفرنسا ومن معهما من الحلفاء قد وقعوا على هذه المعاهدة . فكان هؤلاء المصريون ماسعوا الا ليأخذوا من انجلترا اعترافا بشيء سبق أن اعترفت به من قبل . فكان واجبهم أن يكون السعى لتنظيم انهاء الاحتلال غير الشرعى . فرضاؤهم بتصريح ٢٨ فبراير واشتراكهم فى وزارة ثروت باشا التى تألفت على أساس تنفيذ هذا التصريح اعتراف بشرعية الاحتلال البريطانى وشرعية وجود البريطانيين فى مصر .

وفى ١٥ مارس صدر مرسوم باعلان استقلال البلاد واتخاذ السلطان لقب مصر . كل ذلك وما زالت الأحكام العرفية البريطانية مفروضة على البلاد والمحاكم العسكرية تزاول عملها فى محاكمة المصريين فكان استقلالا فريدا فى بابه .

وفى الخامس من ابريل الفت الوزارة (لجنة الدستور) مكونة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى باشا واشترك فيها خمسة من الاقباط هم يوسف سابا والأنبا يؤنس مطران قنا وقلينى فهمى والياس عوض وتوفيق دوس .

وكان تأليف اللجنة عنوانا جديدا على أن الاقباط لم يعودوا عنصرا منفصلا كما ان عددهم فى اللجنة كان دليلا أيضا على انقضاء خرافة نسبة عددهم فى الهيئات التى يشتركون فيها . وتوخى الحكومة سياسة البحث عن الكفاءات مهما كانت ديانة اصحابها وهى السياسة الجديرة بالاتباع فى امة تبغى الحياة الحقيقية والسعى الحقيقى نحو المستقبل المجيد .

وقوبل تأليف هذه اللجنة بموجة من الاستنكار فقد احتجت عليها نقابة المحامين ورفض النقيب الاشتراك فيها عندما عرضت عليه (١) اذ كانت الأمة تأبى الا أن يشرع الدستور جمعية وطنية منتخبة من الامة . وهى

---

(١) المقطم فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ .

خطوة طبيعية ولا شك ، ولكن الوزارة رفضت هذه الفكرة بدعوى أن البلاد التى شرعت دساتيرها بواسطة جمعيات وطنية كانت فى ظروف استثنائية زالت فيها السلطة الشرعية وحلت محلها سلطة مؤقتة على نحو ما حدث فى الثورة الفرنسية .

وان الظروف التى كانت تجتازها مصر لم تكن استثنائية وانه قد جرى العرف فى مصر على أن تصدر القوانين من ولى الامر وحده (١) .

وفى اثناء مناقشتهم الدستور ثبتت فكرة تمثيل الاقليات بعدد من النواب يناسب عددهم فى مصر ودافع عن هذه الفكرة جميع أعضاء اللجنة من الاقباط ونشرت الجرائد الخبر فأسرع الاقباط الى استنكاره فكان موقفا يضاف الى مواقفهم الوطنية السابقة . ورغم ان هذا المطلب كان مطلبا اساسيا فى مؤتمر اسيوط سنة ١٩١١ الا أن الاقباط كعادتهم دائما لم يذكروا الا وطنهم وما يجب عليهم نحوه . وقامت جمعياتهم تستنكر هذه الفكرة واصدر القمص باسيليوس الوكيل العام للدار البطريركية بيانا (بأنه لا يوجد فى مصر الآن قبطى ومسلم بل الجميع مصريون على السواء وأن القول بأقلية واكثرية ليس من شأنه الا العمل على التفريق والانقسام) (٢) كما اجتمع عدد كبير من الاقباط بالكنيسة البطرسية الكبرى وقرروا أن طلب تمثيل الاقليات الدينية فى المجالس النيابية بدعة ضارة سواء بتلك الاقليات أو المجموع المصرى . وموجبة لتمزيق الوحدة . التى يجب أن تظل قائمة (٣) وايد هذه القرارات اقباط نادى رمسيس واقباط مديرية البحيرة والمحلة الكبرى والمنيا واسيوط وجرجا وبور سعيد وسمالوط والبلينا وطنطا والزقازيق وبنها والفيوم وغيرهم . ورغم قيام بعض المسلمين داعين الى وجوب تمثيل الاقليات تطمينا لهم على مستقبلهم فى مصر (٤) الا أن الاقباط لم يكن يعنيهم هذا الاطمئنان بقدر ما يعنيهم المحافظة على وحدة الأمة امام الاعداء . اذ ان الامة كلها فى

---

(١) مذكراتى ص ٢٧ .
(٢) المقطم فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٢ .
(٣) المقطم فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ .
(٤) المقطم فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢ .

معركة أمام عدو لا يتورع عن استعمال اى سلاح ما دام يؤدى الى تحطيم هذه القوة التى وقفت فى وجهه .

ولكن هذا لا يمنع من ان اقول أن تمثيل الاقليات بالنسبة لعددهم فكرة لست بخاطئة كل الخطأ خصوصا اذا استقرت الاحوال ولم يعد هناك عدو يخشى تدخله فقد أخذ بهذه الفكرة الدستور البلجيكى ضمانا لسماع صوت الأقلية خصوصا اذ كانت هذه الاقلية لا تسكن اقليما معينا أو تكون الاغلبية فى اقليم آخر الأمر الذى يمكنها من انتخاب من يعرض بعض شئونهم الخاصة .

أما اذا كانت هذه الاقلية العددية تختلط بالأغلبية وتشترك معها فى جميع المصالح فلا بأس مطلقا من تمثيلها بعدد كاف من النواب يتناسب مع نسبتهم الى مجموع السكان . وليس فى هذا مطلقا ضرر على الوحدة فنواب هذه الاقلية اقدر ولا شك على شرح مشاكلم الخاصة التى لا تستطيع الاغلبية فهمها مهما خلصت نية أفرادها وتجردت من الاغراض .

ولم يكن هذا بمانع من استمرار لجنة الدستور فى عملها لأجل اقرار احكامه من أن تستمر الحكومة فى سياستها التى ترمى الى الحد من الحرية الشخصية وحرية ابداء الرأى . فعطلت جريدة الاهالى التى كانت لسانا من ألسنة الوفد المصرى . كما استمرت المحاكم العسكرية فى اجراءات محاكمة المقبوض عليهم فى المظاهرات فكان من الواضح ان هناك حكومتين تعمل كل منهما فى ناحية وتنفذ كل منهما قانونا غير الذى تنفذه الاخرى . وهذا لا يمنع من تعاونهما فى بعض الاحيان اذا ما اتحدت الغاية فى ارهاق الوطنيين ولذا أصدر الوفد المصرى الجديد بيانا الى الامة يصف فيه الوزارة بأنها ما زالت تعمل على مصادرة الحريات العامة ويتهمها بأنها تتعاون مع الحكومة البريطانية على حكم البلاد بالحديد والنار ولم كن البيان شديد اللهجة أكثر من البيانات السابقة التى أصدرها الوفد كما أنه كان اتهاما للوزارة اكثر مما هو اتهام للبريطانيين ، ولكن بادرت السلطة العسكرية البريطانية عقب اذاعة البيان فى ٥ يوليو الى القبض على أعضاء الوفد وهم حمد الباسل ، ومرقس حنا وواصف غالى ومراد الشريعى وويصا واصف وجورج خياط وعلوى الجزار وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية وكان مجرد سكوت الوزارة على اجراءات الحاكم العسكرى البريطانى يلقى الريب

على سلوكها بل على وطنيتها . وقدم الأعضاء فعلا الى المحاكمة فى التاسع من اغسطس بتهمتى الحض على كراهية الحكومة واحتقار حكومة جلالة ملك مصر . فكان من الأجدر ولا شك أن يصدر أمر التبنى من الوزارة المصرية ليحاكم المتهمون أمام محكمة مصرية .

وبعد محاكمة لم تستمر اكثر من جلسة واحدة صدر الحكم عليهم جميعا بالاعدام . فهتف مرقس حنا بصوت جهورى رددته قاعة المحكمة « تحيا مصر » . بينما تقدمت والدة واصف غالى لتهمس فى اذن ولدها (اذكر اسم أبيك) .

ما أروعه من موقف لهذه السيدة التى رات زوجها يسقط مدرجا بدمائه على درجات وزارة العدل منذ تسع سنوات ليس غير — من اجل مصر ، وها هى تسمع بأذنها حكم الاعدام على ولدها من أجل مصر . ان كل مصرى يا سيدتى ليتمنى أن يكون ولدك .

ولم يلبث حكم الاعدام أن استبدل فى نفس المحكمة بالحبس سبعة أعوام مع غرامة قدرها خمسمائة جنيه لكل منهم . وزج بهم فى السجن ليعاملوا معاملة المجرمين العاديين بعد أن رفضوا جميعا دفع الغرامة . ومن مهازل القدر أن يصدر هذا الحكم فى اليوم الثانى من معاودة لجنة الدستور الأجتماع بعد الاجازة .

ولم يكن هذا الحكم ليمنع غيرهم من التقدم لقيادة الصفوف فتألف الوفد المصرى الثالث من المصرى السعدى . والسيد حسين القصبى والشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ونجيب اسكندر وراغب اسكندر ونجيب الغرابلى (١) .

ولم يكد يصدر هذا الحكم حتى أسرعت السلطات البريطانية ايضا وقرنت هذا الاجراء القاسى باجراء يضاهيه فى القسوة وهو القبض على اثنين من اعضاء الوفد الثالث هما الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى

---

(١) المقطم ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٢.

عبد النور . ولم يكادا يستقران فى قصر النيل حتى تألف الوفـد الرابع من عبد الستار الباسل . ومحمود فهمى النقراشى وحسن يس . فاعتقلوا بدورهم كما عطلت جريدة الاهرام وبذلك ظهر المصريون جميعا أقباطا ومسلمين فى هذه الفترة القاسية مثلا للتضحية والفداء من أجل مجد الوطن وتألف الوفد الخامس من المصرى السعدى وحسين القصبى ومحمود حلمى اسماعيل وسلامة ميخائيل وعبد الحليم البيلى فاعتقلوا كذلك .

وكان الوفد يحرص فى كل مرة على أن يظهر تضامن الامة فكان الاقباط دائما يكونون نسبة كبيرة من أعضائه لا يرهبهم عن أخذ مكانهم سجن أو اعتقال ولا يكاد الوفد يؤلف حتى يبادر فيزور البطريرك (١) حيث يجد أعضاؤه كل ترحاب . وحيث يتلقون بركات البطريرك ودعواته لهم بالتوفيق والنجاح .

وفى هذا الوقت الذى كان فيه الاحرار يساقون الى السجون فريقا اثر فريق كان غيرهم يجتمع فى حرية مطلقة وظهرت نتيجة هذه الاجتماعات وهذه الحرية فى ظهور حزب الاحرار الدستوريين وفى انشاء جريدة السياسة لتكون لسان حال هذا الحزب . وعرضت رئاسة هذا الحزب على عدلى يكن باشا فقبلها .

وفى خلال هذه المدة والت لجنة الدستور اجتماعاتها وتوالت على مصر وزارتان الأولى وزارة توفيق نسيم ثم الوزارة الثروتية فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم وزارة يحيى ابراهيم التى تألفت فى ١١ مارس سنة ١٩٢٣ وكانت قد عرضت على عدلى يكن قبل ذلك فرفض تأليفها قبل الغاء الاحكام العرفية .

وكان من الواضح أن انقسام الامة هذا الانقسام المريع وعدم شعور جماعة الوزارة ومن معها بما تقاسيه البلاد من مصادرة الحريات وسلسلة الاعتقالات والمحاكمات البالغة منتهى العنف هو الذى أوحى التشدد الى الانجليز فى مراقبة أعمال لجنة الدستور فأصروا على أن لا يتضمن الدستور الجديد أى

---

(١) المقطم ٨ يناير سنة ١٩٢٢ .

اشارة الى السودان . ولو كانت هذه الاقلية الوزارية تملك فى ذلك الوقت ذرة من الروح الوطنية لشاركت الامة محنتها وامتنعت عن العمل فى اتمام الدستور ووقفت من الانجليز موقفا سلبيا ولتغير وجه التاريخ .

وأخيرا صدر الدستور بعد أن نص على أن تكون مصر ملكية دستورية يتولى الملك رئاسة سلطتها التنفيذية على أن يزاول سلطته بواسطة وزرائه الذين يكونون مسئولين أمام البرلمان المكون من مجلسين . أحدهما مجلس النواب المنتخب والآخر مجلس الشيوخ ذو الخمسين المعينين .

والغريب ان هذا الدستور الذى تباهى واضعوه آنذاك بأنه جاء وفقا لأحدث النظم الدستورية لم يلق منهم غير النقد المر العنيف حين فشلوا فى الحصول على أية أغلبية برلمانية فى ظله . فقد وصفه عبد العزيز فهمى بأنه ثوب فضفاض . كما وصفه اسماعيل صدقى بأنه لا يلائم الاحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة فى مصر خصوصا من حيث التعليم ونوع الثروة العامة وتوزيعها فاتهموه بأنه هو الذى ساعد على خلق الاوتوقراطية البرلمانية التى نعم بها الوفد المصرى (٣١٥ نائبا) والتى اصبحت فيما بعد سببا من أسباب فساد الحال . والامر فى الحقيقة لا يعود الى هذا الدستور بقدر ما يعود الى الذين وضعوا الدستور والظروف التى وضع فيها، فقد أبى واضعوه الا أن يعملوا بينما كانت الامة مضرجة بدمائها تئن من الم الظروف الاستثنائية التى تعانيها وظنوا ان هذا الدستور سوف يوصلهم الى مراكز الحكم والزعامة ، فلما جاءت الانتخابات ابت هذه الامة الواعية الا أن تكيل لهؤلاء الناس الصاع صاعين فأثبتت لهم حيويتها كما أثبتت بطولتها ومنحت ثقتها لمن كان فى السجون والمعتقلات . ومن وقفوا معها فى وجه المحتل لا يرهبهم أعدام ولا سجن ولا اعتقال فكان موقف الامة من هذا الفريق موقفا جديرا بالاعجاب حقا . ان دل على شىء فهو يدل على ما فى طاقتها من حيوية كامنة ما زالت مختبئة بها منذ عهد أحمس واخذت تنتهز كل فرصة لتظهر كما فعلت أيام دقلديانوس . وأيام تيودوسيوس وأيام المأمون . وأيام سيف الدين قلاوون .

وعلى اثر صدور الدستور أطلق سراح المبعدين فى سيشل . وسمح لهم بالعودة إلى الوطن . والغيت الاحكام العرفية فى يوليو . ووصل سعد زغلول

فى منتصف سبتمبر ليقود المعركة الانتخابية .

وكان صدور الدستور وقانون الانتخاب عملا تشريعيا ناقصا خصوصا وقد وضعا موضع التنفيذ فورا دون أن يصدر قانون بتحديد الجنسية المصرية . وكان هذا خطأ دستوريا فاحشا مما سمح لبعض الاجانب أن يتقدموا لقيد أسمائهم فى الكشوف الانتخابية بل الى ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان كما فعل الشيخ عبد العزيز جاويش التونسى (١) بل بلغت به الجرأة أن يحاول رفع قضية على الوزارة من أجل اثبات حقه فى قيد اسمه بجدول الانتخاب استنادا الى الدستور (٢) ولم تتدارك الهيئة التنفيذية هذا الامر الا فى سنة ١٩٢٦ حين صدور قانون الجنسية الاول .

وهنا يحق لبعض الناس أن يسألوه كيف أجاز الوفد لنفسه أن يخوض المعركة الانتخابية وهو لم يعترف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وبالتالى لا يعترف بكل ما ترتب عليه من صدور الدستور وقيام الحكم النيابى .

ولكن الوفديين يقولون ان الدستور لم يصدر نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير ، اذ لم يشر الى هذا التصريح فى مقدمته . بل مصر استقلت منذ توقيع تركيا لمعاهدة الصلح . وتنازلت فيها عن كل أملاكها العربية ومنها مصر . وبذلك أصبحت مستقلة قانونا وليس هناك ما يمنع صاحب الامر فى مصر أن يعلن هذا الاستقلال وهذا ما تم فعلا عندما اعلن سلطان مصر دولة مستقلة ذات سيادة (٣) وقد تم هذا فى الخامس عشر من مارس سنة ١٩٢٢ فاتخذ لنفسه لقب ملك ثم شاء أن يصدر بعد ذلك دستورا يشترك به الشعب فى تحمل المسئولية . فليس هناك اذن ما يمنع من اشتراك الوفديين فى الانتخابات بل فى الحكم ما دام هذا النوع من الحكم لم يأت نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير .

وكسب الوفد المعركة ونجح ٨٨ ٪ من مرشحيه ولم ينجح من زعماء

---

(١) المقطم فى ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٣ .

(٢) أهرام ١٩٢٣/١٠/١١

(٣) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

الخصوم سوى محمـــــد محمـــود باشا وبعض أفراد من الحـــزب الوطنى والمستقلين . وهو نجاح لم يكن الوفديون أنفسهم يتوقعونه . ومما لا شك فيه أن أغلبية الاقباط كانوا كغيرهم من أفراد الامة قـــد أعطت أصواتها للوفديين وبلغ نصيب الاقباط من مراكز النيابة سبعة عشر نائبا وتسعة شـــيوخ ومن الطبيعى أن أغلبية ناخبيهم كانوا من المسلمين ولكنهم لم يراعوا فى انتخابهم مسألة الدين مطلقا . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن نجاحهم كان فى المدن حيث الطبقة المتعلمة . التى تستطيع هضم المساواة بسهولة بل انتخب منهم اثنان فى القليوبية وهى من المديريات التى كانت نسبة الاقباط فيها نسبة ضئيلة جدا ومما يجب أن نلاحظه أنه لم يكن قد مضى غير أربع سنين على بدء الحركة الوطنية مما يدل على استعداد المصريين دائما لطرح العـــواطف الدينية فى سبيل المصلحة القومية . مما يؤيد ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من موضع من عدم تأثر المصريين بالنعرة الدينية واعتقادهم أن اختلاف الدين بين المصريين لا يعدو أن يكون نوعا من اختـــلاف الرأى بين الأفراد . والف سعد زغلول الوزارة فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ فأدخل فيها للمرة الاولى وزيرين قبطيين هما مرقس حنا وواصف غالى وكلاهما ممن حكم عليهم بالاعـــــدام واستبدل به الحبس سبع سنوات .

وكان سعد زغلول فى هذا العمل جريئا حقـــا . اذ انه ضرب المثل أن المناصب لا تحتاج الى نسب معينة من كل طائفة ما دامت الامة قد اثبتت فى كل المناسبات الماضية أنها كل واحد يبذل نفسه على مذبح التضحية والفداء . كما أنهـــا أيضا فى احتياج الى الكفاءات أينما كانت ومهما تكون ديانة أصحابها وعبر سعد زغلول عن هذه الروح الجديدة فى خطبة القاها فى ١٣ مارس سنة ١٩٢٣ حين قال « أما اتحاد العناصر فهو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين اذ اصبحوا جميعا مرتبطين اشد ارتباط برباط الوطنية واصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شىء وفوق كل اعتبار » (١) .

ولم يكد يمضى بضـــعة أيام على تأليف الوزارة حتى اثبت أحد الوزيرين

---

(١) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديســمبر ســنة ١٩٢٤ .

القبطيين تأصل المصرية فيه وقوتهـــا حين أصدر أمرا بجعل اللغة العربية هى لغة التخاطب الوحيدة بين مختلف ادارات وزارة الاشغال وكانت حتى ذلك الوقت تدور بالانجليزية،كما أمر بازالة جميع اللافتات الانجليزية واستبدل بها لافتات مكتوبة باللغـــة العربية فقط . كما أصدر أمرا بوقف العمل فى مقبرة توت عنخ آمون التى كانت قد أكتشفت قبل ذلك ببضعة أشهر وكان صاحب امتياز الحفر هو اللورد كارنافون البريطانى ووكيله فى العمل المستر كارتر لما حدث بين الطرفين من خلاف ولم يحـــاول المنـــدوب السامى التدخل فى هذا الخلاف ، وهو أمر لم يكن يحدث قبل ذلك مطلقا .

وقد كان يجدر بسعد أن يسير فى طريق المساواة حتى نهايته فهـــــو يعلم أولا أن الاقباط يتطلعون الى المساواة الكاملة منذ سنة ١٩١١ وأنهم كانوا يتمتعون بهذه المساواة لولا التفرقة التى أوجدها البريطانيون خلال حكمهم الأسود وبدأ سعد بالسير فى الطـــــــريق العملى بتعيين وزيرين قبطيين فى وزارته . فكان يستطيع ان يسير فى الطريق . بأن يبدأ يشغل بعض المناصب مثل المديرين ووكلاء المديريات ونظار المدارس العالية والثانوية وأمثالهـــــا ببعض الاقباط وبذلك يضع الحجر الاخير فيمـــا بدأ به من أشعار الجميع بأن الكفاءة وحدها هى التى تدفع بالشخص الى المنصب . وكان سعد زغلول هو الوحيد الذى يملك القوة الشعبية التى تؤهله لأن يضع هذا الحجر ولم يكن هناك آخر يستطيع أن يخطو هذه الخطوة . وهى هنـــة لابد أن نأخذها على الرجل .

كأنما أبت الاقدار الا أن تترك فخر تحقيق بعض هذه المساواة الى بطل آخر هو عبد الرازق السنهورى عندما كان وزيرا للمعارف وحمل اليه نبـــــأ حرمان الاقباط من الترقى الى مناصب نظار المدارس الثانوية (لأن العـــادة لم تجر على ترقيتهم الى مثل هذه المناصب) مما أن سمع بذلك حتى انتفض انتفاضة مصرية وأمر بالغاء هذه التفرقة غير القانونية وصرخ فى مستشاره ان لا أقباط ولا مسلمين فى مصر ولست بالمجـــرم الذى يحرم مصريا مما يستحقه بسبب دينه . فكان موقفا تسجله القومية المصرية لهذا البطل .

وما زال كرسى البطولة شاغرا ينتظر البطل الذى يجعل نصوص الدستور حقيقة واقعة يبادر فيكمل المساواة التامة فى جميع مناصب الدولة أمام جميع

المصريين فيكمل بذلك صرح القومية الصحيحة فيستحق بذلك تقدير الوطن اما عن منصب الوزير فيجب الغاء هذا التقليد وان تختار الوزاره الاقباط لكفاءتهم فى الوزارة التى يعينون فيها دون مراعاة الى عددن سواء كان واحد او اكثر .

أما عن الشئون القبطية وغيرها من شئون الاقليات الدينية فمن الافضل انشاء (وزارة الاقليات الدينية) وجعل المجالس الملية (بعد تعديل تكوينها لتمثل جميع أبناء الملة فى جميع أنحاء البلاد لتكون بمثابة مجالس استشارية للوزير الذى يخضع لاشراف مجلس الامة كغيره من الوزراء وتتكون ميزانية هذه الوزارة من ايراد أملاك هذه الاقليات .

أو أن يستبدل بوزارة الاوقاف وزارة الشئون الدينية ويعين لها وكيل من بين أبناء الاقليات ليتعاون مع أعضاء المجلس الملى — بعد أن يعدل تكوينه وتشرف الهيئة التنفيذية على انتخاباته يصبح المجلس الاعلى للشئون غير الاسلامية .

ونعود بعد ذلك الى موضوعنا فنقول ان انجلترا انتهزت فرصة اعتداء بعض المصريين على سردار الجيش المصرى (البريطانى الجنسية) لتتقدم الى الحكومة المصرية انذارا تطلب فيه غرامة قدرها نصف مليون جنيه والموافقة على توسيع رقعة أرض الجزيرة فى السودان من ٣٠٠ الف فدان الى ما لا نهاية من الافدنة ثم الوعد بقمع كل مظاهرة شعبية بكل شدة علاوة على اعادة كل وحدات الجيش المصرى من السودان على أن يتم ذلك بأمر يصدر خلال أربع وعشرين ساعة (١) وقبلت الوزارة الوفدية من هذه المطالب ما يتعلق بالحادث ورفضت بقيتها مما أدى الى استقالة الوزارة . وكان الاعتداء الاول على الدستور حين حل مجلس النواب وتولت الامر وزارة من الاقلية التى لم يكن أعضاؤها ممثلين فى المجلس . فكان طبيعيا ان يكون المتآمرون بالدستور ممن نالهم الضرر من هذا العهد ومعهم الانجليز الذين وقفت الوزارة الوفدية دون تدخلهم فى الشئون المصرية . والملك الذى أحس

(١) الكتاب الاخضر بشأن السودان ص ٢٧ و ٢٨ .

بشدة وطأة العهد الجديد بالحســـد من سلطانه ثم هؤلاء الذين لم ينجحوا فى الانتخابات . وتمكن هذا العهد من أن يجعل الوزارة من نصيب هؤلاء الذين لم يكونوا يحلمون بها فى ظل الدستور وأن يجعل الانجليز يعيدون تدخلهم فى الشئون المصرية كما كان الحال من قبل . ويعيد الى الملك بعض سلطانه التى سلبه الدستور اياها . ولذا تكرر الاعتداء على الدستور أكثر من مرة . ومن الغريب ان كل اعتداء على الدستور كان يقرن باساءة معاملة الاقباط بالحد من تعيينات الاقباط وترقياتهم . وما كان الاقباط ليأبهون بهذه الصغائر التى تنم عن عقول مصدريها أكثر مما تنم عن سياسة مرسومة . كما أن وطنيتهم كانت أعلى من أن تحفل بهذه الصغائر . فصدر فى فبراير سنة ١٩٣٤ أيام وزارة عبد الفتاح يحى باشا منشور وقعه وكيل وزارة الداخلية . يحتم على راغبى بناء الكنائس الحصول على ترخيص خاضع لشروط خاصة (٢) وهو ولا شك منشور باطل لانه صادر من موظف عمومى لا يملك سلطة التشريع . هذا الى كونه لا يتفق مع الدستور الذى كفل حرية العقيدة . كما ساوى بين جميع المصريين فى الحقوق والواجبات .

ومن الغريب أن تلجأ الوزارة حديثا فى اجابة رسمية على سؤال لأحد أعضاء مجلس الشعب فى هذا الشأن الى المغـــالطة فتذكر ان الاذن الذى يجب أن تحصل عليه البطريركية لبناء كنيسة ما يعود الى أيام السيادة التركيـــة اذ نص عليه (خطى همايون) الصادر فى سنة ١٨٥٦ من أجل حقوق المسيحيين من رعايا الدولة . فمصر تملك شخصيتها المستقلة منذ اتفاقى لندن اللذين عقدهما محمد على باشا ولم تكن القوانين التركية تسرى على مصر فى قليل أو كثير . كما ان خطى همايون لم ينص على شىء من هذا مطلقا ، ولكى لا اتهم أنا أيضا بالمغالطة الجأ الى نشر نص هذا الخطى فى آخر الكتاب ؟؟ .

ولكن أين هذا الاعتـــداء اليسير على الدستور من العمل الذى قامت به هذه الوزارة والتى قبلها من الغـــاء الدستور نفسه ووضع دستور جديد منتقص سلطة الأمة بحجة القضاء على الاوتوقراطية البرلمانية (١) وفى ابريل

---

(٢) مجلة الايمان عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ص ١٦٤ .
(١) مذكراتى ص ٤٦ — ٤٩ .

سنة ١٩٤٠ صدر قرار وزارى يمنع المدرسين الاقباط من تدريس اللغة العربية حتى وان كانوا متخرجين فى قسم اللغة العربية لكلية الآدب فدفعوا بعدد كبير منهم الى التعطل دون ما ذنب سوى تبطينهم وابلغ هذا القرار الى المناطق فى ابريل سنة ١٩٤٠ يحمل توقيع وكيل المعارف المساعد وما كان الأقباط ليحفلوا بأمثال هذه الصغائر التى لا تصدر الا عن نفوس صغيرة .

وفى سنة ١٩٣٦ تعقدت الظروف العالمية وبدت الحرب قريبة الوقوع فأرادت انجلترا أن تطمئن الى مركزها فى مصر اذا وقعت الواقعة وابدت استعدادها للمفاوضة من أجل المسألة المصرية فتألفت الجبهة الوطنية التى رأسها رئيس الوفد المصرى واغلبية أعضائها من اعضائه وانتهت الى عقد معاهدة الزعفران التى اعتبرها الوفد نهاية سعيه وجهاده واذا اصبح مستقبل الوفد بعد ذلك يختلف عن ماضيه اختلافا كبيرا فأصبح همه الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن وكان ذلك عن طريق ارضاء الأنصار فأصبحت الحكومة ومناصبها ومناقصاتها وأراضيها وأملاكها نهبا لهم . واصبح الدخول فى عضوية الوفد أو الترشيح باسم الوفد لا يتم الا للقادرين بعد دفع (الثمن) الذى لا بد أن يكون باهظا بقدر الامكان . على أن يسترد بعد ذلك أبهظ مما دفع أضعافا . ومنذ هذا الوقت شعر الأقباط ان الجهاد السياسى قد أصبح ملوثا فانصرفوا يهتمون بمصالحهم الخاصة وشئونهم الطائفية .

ولكن فساد الادارة السياسية وانتشار الرشوة وكذلك فساد الأحزاب وضايع المصلحة الوطنية فى زحمة المنافع الشخصية هو الذى أدى الى قيام ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ونجح الجيش فى ثورته بفضل تعضيد الأمة وحسن تقبلها للدعوة .

وليس ادل على هذا الفساد من ظهور الاخوان المسلمين الذين حاولوا اعتمادا على تنظيماتهم السرية ـ القبض على السلطة عنطريق القتل وسفك الدماء ولكن يد الثورة امهلتهم حتى يعودوا الى رشدهم حتى اذا تبين لها استمرارهم فى خطتهم امتدت اليهم يد الثورة كما امتدت الى غيرهم من نواحى الفساد الشامل وقد اظهرت محاكمة رئيسهم واعضاء الحزب ماكانوا ينوونه من القضاء على الاقباط فى مصر .

وكان تعضيد الاقباط لثورة الجيش قويا حين أعلنت حكومة الثورة ان أول أهدافها المحافظة على الوحدة المقدسة والضرب على أيدى العابثين بها . وكان الاقباط أول من كشفوا عن هذا الفساد التى انتاب الحياة السياسية فعزفوا عن الاشتراك فيه واضرب معظمهم عن الاشتراك فى الانتخابات . كما عزفوا عن التقدم لعضوية الهيئة التشريعية .

ولم يكن جهاد الاقباط فى النواحى غير السياسية ليقل شرفا عن جهادهم السياسى الناصع ففى ميدان الاجتماع . اندفع الاقباط يجاهدون فى سبيل رفع المجتمع المصرى فأقبلوا على تأسيس الجمعيات القبطية التى تعنى بشئون اليتامى والفقراء والارامل والمعدمين فأصبح لهم حتى سنة ١٩٥٠ أى فى مدى ثلاثين سنة اكثر من ثلاثمائة وخمسين جمعية (١) بين صغيرة وكبيرة وجميع اموالها من التبرعات ولم يقتصر عملها على هذا بل امتد الى تدريس الدين لمن يرغب فى ذلك وتدريس اللغة القبطية وطبع الكتب بها ونشرها . وكذلك الطواف على الكنائس والاشتراك فى الصلاة والقاء العظات وتقديم المساعدات للكنائس . وتملك بعضها المستشفيات والصيدليات والمشاغل والملاجىء ما بين بنين وبنات . ويشرف على كل منها مجلس ادارة يتجدد أعضاؤه بالانتخاب سنويا وظيفته الاشراف على جمع المال . وصرفه فى مصارفه الصحيحة . وفى سنة ١٩٤٧ انشئت رابطة لهذه الجمعيات باسم رابطة الجمعيات الخيرية القبطية هدفها تنسيق العمل بينها .

على ان اكبر الهيئات المشرفة على الأعمال الاجتماعية القبطية هى هيئة مدارس الاحد (التربية الكنسية) . وقد تألفت بمرسوم بطريركى فى سنة ١٩١٨ (٢) ● وهى كما تظهر من اسمها هدفها جمع الصبيان والشبان الاقباط

---

(١) الدليل العام للأقباط الفصل الثالث .
(٢) المدرسة الأكليريكية ص ١٣٤ .

● يشير المؤلف هنا الى النشاط الارثوذكسى فقط لكنه لم يشر الى النشاط الكاثوليكى أو الانجيلى خصوصا فى ميدان التعليم ككلية أسيوط أو المستشفيات كمستشفى أسيوط وطنطا أو كلية اللاهوت الانجيلية ونشاط مدارس الأحد ... الخ (الناشر) .

فى الكنائس بعد مواعيد الخدمة الدينية وتلقينهم اصـــول ديانتهم ما داموا لا يجدون من يلقنهم اياها فى مدارسهم . وبمعنى أوضح تثقيف الشباب ثقافة دينية تقوم على شرح دروس الدين لتلاميذ المدارس الاميرية والاهليـــــة . مستعينة فى ذلك بالنشرات والفانوس السحرى . يضاف الى ذلك العنـــاية بنظافة طلبتها وصحة ابدانهم بواسطة معلمين اكفــاء وحث الأولاد والبنات على المواظبة على التردد على الكنائس وتناولهم الأسرار المقدسة .وتعويدهم العبـــــادة وتنظيم رحلات رياضية روحيـــا وجسديا . وتدريبهم على الاشتراك فى العطــاء وتخصيص ما يتبرعون بـه لأعمال خيرية وتمرينهم على مواساة المرضى والفقراء .

وتعنى أيضا مدارس الأحد بأوقات الفراغ عند الطلبة خصوصا اثناء العطلة الصيفية فتجمعهم فى نواديها لتجنبهم صحبة الأشرار وتعـــوضهم بدلا منها الروح المسيحية فى جميع نواحيهـــا الروحية والاجتماعية والثقـــافية حسب برامج موضوعة . وذلك نظير اشتراك شهرى زهيـد لا يتجـــاوز الخمسة قروش ولأجل أن يقوم على أساس تربوى صحيح انشأت معهـــدا للمعلمين . طلبته من الحائزين لشهادة الاعدادية لاعدادهم ليكونوا مدرسين لهؤلاء الطلبة . وجمعت لهم راتبا شهريا مقررا . منـــذ قبولهم بالمدرسة . ويبلغ عدد تلاميذ مدارس الأحد حسب احصاء سنة ١٩٥٠ ثلاثة واربعـــون الف طالب . أما عدد المدرسين فيبلغ الفين وخمسمائة . ولم تلبث هـــذه الجمعية ان وسعت نشـــــاطها فامتدت الى دراسة حالات المرتدين عن المسيحية وغير المعمدين وكذلك حالات التفكك العائلى والانهيـــار الداخلى لدراستها دراسة علمية ومحاولة علاجها قبل أن تستفحل . وهى الآن تصدر مجلة شهرية باسم مجلة (مدارس الاحد) تعنى بنشر الابحاث الدينية علاوة على اهتمامها باصلاح أحوال الطائفة اجتماعيا وثقافيا . يشترك فى تحريرها نخبة من الشباب الجامعى الذين تثقفوا ثقافة دينية عالية .

وقد بارك غبطة البطريرك هذه المدارس وأعلن سروره منها وتشجيعه لطلبتها فى أوقات كثيرة بحضور الصلاة معهم . والقاء النصائح اليهم .

والى هذه الهيئة يعزى فضل تنبيه المجلس الملى العام الى سوء حال

تعليم الدين المسيحى فى المدارس الاميرية . بعد أن عمد نظـــار المدارس الى تغيير اللوائح والقوانين على غير الصورة المقصودة . فقد عمد بعضهم الى الهبوط بعدد الحصص . وأرغم جميع الطلبة على حضـــورها غير مبالين باختلاف فرقهم (١) بل عمد بعضهم الى عدم الاهتمام بتدريس الدين كلية أو جعلها صورية باضافة حصص الدين الى جدول كامل لمدرس مسيحى مم ا يؤدى الى اهمال تدريسه ما دام لا يجد رقابة فعالة عليه من هذه الناحيا .

فكان من اثر هذا التنبيه المتواصل ان كتب المجـلس الملى الى وزارة (المعارف) فى سنة ١٩٣٢ بلفت نظرها الى ان الوزارة لم تعد تعد طلبة معهد التربية المسيحية اعدادا يمكنهم من تدريس منهج الدين المسيحى مما جعـل مستوى المدرس والتلميذ واحدا كما ان المناهج تعـدل من آونة الى أخرى ويفضل تعديل منهج الدين المسيحى . ولم ينس المجلس أن يبدى فى نهـاية مذكرته أسـفه لأنه يلح فى عرض مطالبه نـلا يجد فى الوزارة من يهتم بشأنها (٢) فطلب العناية بدرس الدين المسيحى والتفتيش على هذا الدرس باسعة مفتش قدير . وتدريس هذه المادة للطلبة المسيحيين بمعهـد التربية ثم تعديل منهج الدرس الدينى بواسطة معـنمين اعصاؤها على علم الدين المسيحى (٣) .

وقد عاون هيئة مدارس الأحد فى ذلك جامعة الشـباب القبطى التى اسست وفق أحدث أساليب الخدمةالروحية والاجتماعية والثقافية والرياضية وجعل مركزها مدرسة الاقباط بالروضة .

وليست (مجلة مدارس الاحد) هى الوحيدة التى تعنى بالشئون الروحية والاجتماعية للأقباط بل قام الى جانبها أربع عشرة مجلة بين أسـبوعية وتصنف شهرية تعنى كلها بمعـالجة الشئون القبطيـة بمختلف مظاهرها ونواحيها . وليس أدل على الوعى القبطى من ان هذه المجـلات لم تتركز

(١) المدرسة الاكليريكية ص ١٢٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ .
(٣) خطاب غبطة البطريرك الى وزير المعارف فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ .

كلهـا فى القـاهرة والاسكندرية بل تنشر فى جميع مدن الجمهورية المصرية وتجد كلها من تيقظ الشعب صدى لدعوتهـا فهى لا تعتمد على التوزيع فى الشوارع أو اكشاك الجـرائد ولا على الاعلانات بل تعتمد كلهـا على الاشتراكات والتبرعات .

واذا ما تنبهت الأمة عقب الثورة الـكبرى الى ضرورة نشر التعـليم بين الشعب وأقبلت الحكومة على فتح مدارسها فى كل مركز وبندر ومحافظة واقبل الشعب معهـا على فتح المدارس الاهلية معاونة الحكومة على أداء رسالتها لم يتردد الاقباط عن الاشتراك فى هذا كله فاقبـلوا على المدارس الاميرية مع أخوانهم يرشفون من مناهلها . كمـا اشترك الاغنياء فى انشاء المدارس الاهلية فانتشرت مدارسهم الى جانب بقية المدارس فانتشرت من اسوان حتى الاسكندرية وهى دائما موضع الثقة من الجميع على السواء .

ورغم صدور الدستور وتعهـد الحكومة بجعل التعليم الالزامى اجباريا لجميع الذكور والاناث تبين منذ اللحظـة الاولى عجز الحكومة عن الوفاء بوعدها واصبح ما تفتحه من المدارس الالزامية رغم كثرة عـددها لا يسد الا نسبة ضئيلة من احتيـاج البـلاد . حتى اصبح وجود هذا النص فى الدستور حبرا على ورق .

فلم يتردد الاقباط عن أن يشاركوا الحكومة فى نشر هذا النوع من التعليم مجانيا فتألفت الجمعيات الخيرية فى جميع القرى . وأخذت على عاتقهـا فتح المدارس وتشجيع الطلاب على ورودها . وكانت أكبر الجمعيات العاملة فى هذا الحقل (جمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة) والتى بلغ عـدد مدارسها تسعا وعشرين مدرسة تضم أكثر من أربعة آلاف طالب وطالبة (١) وتسير هذه المدارس وفق المنهج الوزارى مضافا اليه بعض المواد الاخرى كاللغة القبطية والالحان والطقوس وتاريخ الكنيسة ولدى الجمعية مفتشون يزورون هذه المدارس زيارات دورية يقفون على احوالها ومدى تقدم التعليم فيها . والى جانب التعليم تعمل الجمعية من جانبها على اثارة الروح الفنيـة

---

(١) مجلة الانوار عدد ٥ فى ١٩٤٦/٨/١٨ .

بين أبنائها وبناتها فامتدت بعض هذه المدارس بأنواع النسيج اليدوية الذى له شهرة فى البلاد . كما أعدت الوسائل اللازمة لانشاء خلايا النحل . هذا الى افساح المجال للتعبير بالرسم والتماثيل عن القصص الدينية . وقد وجهت الجمعية عنايتها أيضا الى الخدمة الاجتماعية فهى تقدم الغذاء للأطفال مرة كل أسبوع كما تقدم لهم الملابس فى كل مناسبة كما تعنى بالنواحى الصحية والرياضية والرحلات المدرسية والى لجنة مدارس الأحد يعزى فضل تنبيه وزارة (المعارف) الى ضرورة تعليم الدين المسيحى الى جانب الدين الاسلامى فى المدارس الالزامية الحكومية فقدمت مذكرات كثيرة مستفيضة فى هذا الموضوع (١) .

ولم تقف نهضة الاقباط الثقافية عند هذا الحد بل اشتركوا فى نهضة بلادهم الثقافية عن طريق الكتب التى الفوها فى مختلف ميادين النشاط الثقافى ومنها النشاط الدينى وقصد كثير منهم الى أوربا يرتشفون من مناهل جامعاتها فى مختلف الشئون ووصل كثير منهم الى مناصب الاستاذية فى الجامعات عن جدارة واستحقاق .

وفى سنة ١٩٥٤ اشترك فريق منهم فى انشاء معهد الدراسات القبطية وهو معهد عال للدراسات والابحاث المتصلة بالحضارة القبطية فى جميع عصورها . وفى مختلف مظاهرها . الغرض منه تشجيع الباحثين والدارسين على دراسة العلوم القبطية وخاصة فى العصر القبطى الذى لقى من مناهج وزارة التربية كل اهمال .

ويحتوى هذا المعهد على اثنى عشر قسما هى قسم اللغات المصرية القديمة الآثار واقسام الدراسات التاريخية فالدراسات العربية المسيحية فالدراسات الاثيوبية فالافريقية فالسامية وكذلك الدراسات الاجتماعية علاوة على اقسام أخرى تهتم بدراسة اللاهوت والقانون الكنسى والالحان والموسيقى الكنسية ثم قسما الفنون والتصوير .

---

(١) خطاب اللجنة العامة لمدارس الاحد الى اعضاء المجلس الاكليريكى فى ١٠ بشنس سنة ١٩٤٢ ش .

ومدة الدراسة فى هذا المعهد ثلاث سنوات يحصل الطالب فى نهايتها على دبلوم المعهد فى فرع التخصص واذا ما قدم الحاصل على الدبلوم بحثا للتخصص فى موضوع معين يضيف جديدا الى الدراسات القبطية حصل على زمالة المعهد . ولا شك ان مثل هذا المعهد لو نظرت اليه الحكومة نظرة قومية خالصة وأسدت اليه يد المعونة المالية والعلمية لأسدى بدوره الى البحوث العلمية الخالصة خدمة لا تقدر .

ولم يقف نشاط الاقباط الثقافى والفكرى عند حد الحدود المصرية بل تعداها الى خارجها ففى السودان حيث وصل عدد الاقباط الى أكثر من خمسة عشر الفا (١) كلهم راق له ميول دينية قوية نحو كنيسته الارثوذكسية متمسك بعقيدته وتقاليده ونجحوا الى حد كبير فى الاشتراك فى توجيه التيار الثقافى الى ما فيه خير المجتمع السودانى . فلهم هناك أكثر من خمس عشرة مدرسة تضم أكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة . من المصريين والسودانيين وهى منتشرة فى تسع مدن من كبرى مدن السودان . ومن هذه المدارس اربع فى الخرطوم وثلاث فى العطبرة منها مدرستان ثانويتان للبنات وكذلك اثنتان ثانويتان للبنين والباقى بين ابتدائية واعدادية . وتشرف على هذه المدارس جمعيات قبطية أنشأها الاقباط وامدوها بأموالهم كى تساهم فى نهضة البلاد الثقافية والاجتماعية . ومنها الجمعية الخيرية القبطية وجمعية الشابات المسيحيات . وجمعية الاصدقاء وكلها لا تعتمد على مساعدة مالية من اية جهة من الجهات . وقد انشأت بعض هذه الجمعيات مكتبات يتردد عليها المصريون والسودانيون لأجل زيادة الاطلاع وتنمية مداركهم .

وفى اثيوبيا اخذت البطريركية توالى امداد المدارس الحكومية بالمدرسين المصريين الذين يساهمون فى نشر الثقافة المصرية فى البلاد الشقيقة وان كانت باللغات الانجليزية أو الفرنسية. ولم يكن هؤلاء المدرسون يتناولون ابةعلاوات من البطريركية أو الحكومة المصرية . أو ابة جهة اخرى . بل كانت مواردهم قاصرة على ما كانت تدفعه لهم الحكومة الاثيوبية ألفقيرة وحدها من مرتبات غير مغرية .

---

(١) مجلة مار قرس عدد يناير وفبراير ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٢٧ اشتركت وزارة (المعارف) مع البطريركية فى الاشراف على من ترسله اليهـا من المدرسين المصريين وان كان هذا الاشراف مقتصراً على الناحية الادبية دون أن يتعدى الى الناحية المـالية ـ أو غير ذلك . بل ظلت بعض المناصب الثقافية الكبيرة فى هذا البلد الشقيق وقفا على المصريين يشغلونهـا اثر بعضهم وظل الحال كذلك حتى سـنة ١٩٣٦ حين ابتليت البلاد الاتيوبية بالاحتلال الايطالى .

ولكن لم يكد هذا الاحتلال ينزاح عن كاهل هذه البلاد وتعود اليهـا حكومتها التى أخذت فى اعادة تنظيم البلاد والعودة بها الى حياتهـا الطبيعية فى سنة ١٩٤١ حتى بادرت فولت وجهها شطر مصر من جديد لتمدها بعـدد من المدرسين يستطيع أن يساهم فى بناء اتيوبيا الحديثة فسافرت اليهـا بعثة جديدة من المدرسين المصريين (١) كى يكونوا مدرسة ثانوية تكون ادارتها ومنهجها وروحها مصرية بحتة . ولكنهم ما ان وصلوا فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى رأت الحكومة هناك أن تسـتعين بأفرادها فى مختلف مدارسها بدل ان يتركزوا فى مدرسة واحدة خصوصا وقد كانت هـذه المدارس كلهـا فى يد موظفين بريطانيين لم ينالوا اى نصيب من الثقـافة التعليمية او التربوية . فكان ان وزعوا على أكثر من أربع مدارس . بل لجأت الحكومة الاتيوبية زوجات هؤلاء المدرسين وطلبت منهم أن يقوموا بالتدريس فى مدارس البنات الحكومية كى يساهمن مع أزواجهن فى المعركة ضد الجهـل فلم يترددن فى الأخذ بنصيب، من هذه المهمة دون أن يتطلعن الى ضآلة ما يدفع اليهن اذا قورن بما يدفع الى غيرهن من المدرسات الاجنبيات . وقد عمل رئيس هـذه البعثة زمنا مديرا لمدرسة تفرى ماكونن ولـكن لم تلبث الوزارة أن عينته مستشارا لها يشرف على مشروعاتها ويوجهها بل جعلتـه أيضا مشرفا على تعليم اللغة العربية فى المدارس الاسلامية وكلفته وضع كتب عربية متدرجة على أساس قومى . تكون مواضيعها مشتقة من البيئة الاتيوبية وحدها . وكان نجاحه فى هذه الناحية دافعا للجمعيات الاهلية الاسلامية لان تستعين

---

(١) كان المؤلف ضمن أفراد هذه البعثة التى سافرت فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى مايو سنة ١٩٤٥ .

به فى توجيه مناهجها . بل اعرف انه استشير فى بعض الأوقات فى تدريس الدين الاسلامى ومواده وتدرجها فى مختلف السنين الدراسية .

وقد اعرب جلالة الامبراطور له فى اكثر من مناسبة عن تقدير لعمله حتى تمنى أن يكون هناك اكثر من قبطى يستطيع أن يؤدى لاثيوبيا مثل هذه الخدمات الجليلة التى يقدمها هذا المستشار .

لكن اذا كان للأقباط أن يفخروا بكل هذه النواحى التى اتجهوا فيها الى الانتاج لما فيه من مصلحتهم ومصلحة أمتهم . الا ان هناك ناحية أخرى لا يملك القبطى اذا اتجه الى دراستها سوى الشعور بالخزى . هى ناحية الدين . فقد كان دور الرعاية الدينية لهذا الشعب يكاد يكون سلبيا محضا. وكأنما عنى الاساقفة والمطارنة باختيار القسس من بين الجهلاء كى لا يرتقوا عن مدارك رؤسائهم حتى اضطر المجلس الملى أن يلفت نظر البطريرك الى الحالة السيئة التى تردى فيها الاكليروس بسبب تجاهل المطارنة لخريجى الكلية الاكليريكية . فكان يقوم بتنبيهم الى ما يجب عليهم من اختيار القسس من بين المتعلمين (١) ولكن رغم كل ذلك حرص المطارنة على هذا التجاهل لأن الاخيرين لم يكونوا يدفعون ما يتوقى المطارنة الى الحصول عليه . وقد أبدى كثير من المطارنة عطفهم على المدرسة الاكليريكية وخريجيها فى كثير من المناسبات لكن هذا العطف لم يتعد حد الكلام المنمق حين يقال أو يكتب .

وانا نجد هذه الحال مصورة تماما فى تقرير رفعه ابراهيم تكلا عضو المجلس الملى الى أعضاء ونواب المجلس الملى العام ولجنة الكنائس فى ٢١ مايو سنة ١٩٢٩ حين قال « انه لحال ينفر لها قلب كل مخلص لطائفته عندما يجتمع برجال أكليروسه وهم رعاته وقادته فيجدهم يجهلون ابسط النظريات العلمية . فكيف بهم وهم يجهلون أصول دينهم . ولا أقول فلسفته. مع ان معرفة الدين يستدعى دراسة عميقة فى العلم والفلسفة كما هو الحال فى الطوائف الأخرى . التى أصبح الفرق بيننا وبينها فرقا شاسعا بين رفعة عظيمة عندهم وانحطاط مخز لنا ـ وكلما فكرنا فى هذا الانحطاط واسبابه اتجه

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ١٠٤ الى ص ١٠٨ .

نظرنا الى المدرسة الاكليريكية التى يتخرج منها رجال الكهنوت والوعاظ بوجه عام (١) رنيت الامر قاصر على خريجى المدرسة الاكليريكية اذ لو كان رجال الاكليروس من خريجى هـــذه المدرسة لهان الأمر . لانهم أفضل بكثير ممن يرسمون من عامة الشعب الجهلاء . وبعضهم لا يكاد يعرف القراءة والكتابة العربية ● .

« فكان من اثر ذلك ان انحطت المدرسة الاكليريكية ولم يعد يقبـــل عليها الا من لفظتهم المدارس المدنية . ومن ثم هبط مستوى التدريس فيهـــا حتى كان أعلى مستوى وصلت اليه بعض المواد لا يتجـــاوز مقررات السنة الثالثة الثانوية . أما مواد الدراسة الدينية تمتوسطة ومعظمها سطحى » .

ولذا قرر المجلس الملى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٨ تأليف لجنة تقـــوم بدراسة مشروع لتنظيم المدرسة الاكليريكية واصلاحها . وفوضت هـــذه اللجنة ان تتخذ فى هذا الشأن من القرارات ما تراه سواء من جهة تعـــديل نظام التعليم أو تحديد عدد الطلبة أو انقاص عدد المدرسين . أو استبدال الموجودين بسواهم . أو غير ذلك (٢) وقد اعترف رجال الدين أنفسهم بهذه الحالة السيئة فى تقـــرير لهم مؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٨ حين قال « ان معظم رجال الاكليروس القبطى فى جهل مطبق فى العلم والدين » كما اعترف « ان الفرق بين رجال الدين عندنا وعند غيرنا فى الطـــوائف المسيحية فرق شاسع جدا بين رفعة عظيمة عندهم وانحاط مخز لنا » (٣) .

ومع ذلك رفض المجمع الاكليريكى الموافقة على قرار للمجلس الملى العام بارسال بعثة لاهوتية الى انجلترا بدعوى (ان المجلس باقراره هذا الاقتراح قد تجاوز الاختصاص الممنوح له بموجب اللائحة مخـــــالفا لنص المادتين ١٠ و ١٧ من لائحة ترتيب واختصاصات المجلس الملى العام . واعتدى

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٦٨ .

(٢) المدرسة الاكليريكية ص ٧٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ .

● هذا الوصف لا ينسحب على كلية اللاهوت الانجيلية التى كانت تخرج القادة والمفكرين ولا تقبل الا خريجى المدارس الثانوية (الناشر) .

بذلك على سلطة الاكليروس ويكون قراره من هذه الوجهة باطلا قانونا) .

وكان هذا الانحطاط الذى وقع فيه الاكليروس منذ زمن بعيد والذى بدا واضحا للغاية فى سنة ١٩٢٨ هو الذى سبب الكارثة التى حاقت بالاقباط فى هذه السنة وما تلاها من الايام . فقد مات الانبا كيرلس الخامس فى أغسطس سنة ١٩٢٧ وكان المنتظر أن يكون البطريرك الجديد منتخبا بالشعب من طائفة الرهبان كما كان التقليد منذ دخول المسيحية الى مصر ويشترك فى انتخابه بعد تدقيق وفحص طويلين رجال الدين والشعب فأبى الفساد الذى امتد الى مناصب الاكليروس كلها فى ذلك الوقت الا ان يمتد أيضا الى اكبر منصب فيه فتطلع الى هذه الرئاسة بعض الاساقفة والمطارنة وعلى رأسهم الأنبا يؤنس مطران البحيرة . فكان ان سعى الى هذا المنصب بكل الطرق . وكانت أولى هذه الخطوات اصدار لائحة جديدة لانتخاب البطريرك فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ تبيح ترشيح المطارنة للكرسى البطريركى دون أن تستند فى ذلك الى سند من التقاليد سوى قرار للمجمع المقدس فى يوليو سنة ١٩٢٨ يبيح ترقية المطارنة الاساقفة الى رتبة البطريركية وحصر انتخاب البطريرك من بينهم خلو الكرسى (١) وقد استند هذا القرار على كثير من المغالطات المقصودة والتخريجات البعيدة عن المنطق وكون هذه اللائحة مخالفة للتقاليد والقوانين الكنسية تدعو الاقباط ولا شك الى عدم الاعتراف بكل بطريرك يجلس على كرسى البطريركية طبقا لهذه اللائحة وما يشابهها . وانتهزت الحكومة القائمة فى ذلك الوقت هذه الفرصة السانحة لتمد يدها الى التقاليد القبطية فتهدمها كى يكون هذا التدخل سابقة لتدخل الحكومة فى كل اختيار لاحق . فكان ان تم الاتفاق بينه وبين الحكومة على حصر حق الانتخاب فى عدد ضئيل من الوزراء السابقين والحاليين وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب الحاليين والسابقين وبعض أعضاء المجالس الملية السابقين واللاحقين أيضا فكان عدد هذه المجموعة ستة وتسعين أوصاهم توفيق دوس (الوزير القبطى آنذاك) واحدا واحدا ان يعطوا أصواتهم للأنبا يؤنس (٢).

---

(١) الرحلة البطريركية ص ١٣ .

(٢) من المذكرات الخاصة بالسيد حبيب باشا المصرى باذن خاص من ورثته .

وفى يوم الانتخاب نال الانبا يؤنس سبعين صوتا من ٨٥ وهو عدد من أدلوا بأصواتهم . وبذلك ارتقى الانبا يؤنس الى مقام مار مرقس بعد أن بذل فى ذلك كرامته وكرامة الأقباط . ومنذ هذا اليوم هان الاقباط فى نظر الحكومة بل فى نظر أنفسهم .

وحاول الانجليز ان يصطادوا فى الماء العكر تقربوا بممثلهم الاسقف جوين الى فريق من الغاضبين واوهموهم انهم لو خرجوا عن طاعة رئيسهم وانزلوه عن السدة المرقسية لوجدوا من الانجليز عونا . ولكن الاقباط — رغم عظم الطعنة التى اصابت تقاليدهم وكرامتهم على يد كل من الحكومة والاكليروس ابوا ان يكونوا مخلب القط (١) وأن يسعوا الى حتفهم بظلفهم فرضخوا ولكنهم قرنوا هذا الرضوخ باحتقار كل من سعى فى هذا الامتهان أو اشترك فيه لأنهم وجدا ان ما سعت اليه الحكومة ايام سعيد واسماعيل ونجحوا فى الدفاع عنه آنذاك قد ضاع منهم بعد هذا العهد بخمسين سنة أو تزيد .

واذا كان الاقباط قد أجرموا فى حق أنفسهم بتهاونهم هذا التهاون الجسيم فخطأ الحكومة فى حق الوطن كان أشد وانكى . فهى بتدخلها قد اعتــــدت على ما كان يتمتع به الاقبـــاط طول تاريخهم — حتى فى احلك أوقاته — من حق انتخاب بطاركتهم فى حرية . وهو ما لم تحاول اشد الحكومات تعسفا واضطهادا أن تتدخل فيه . وكان من اثر ذلك أن حمـــل بقية الاقباط هـــذا العمل فى نفسهم وأيقنـــــوا ان الحكومة فى سبيل أن تحيـــــد عن سياسة المساواة التى كفلها الدستور . ومنذ هذا الوقت انعدمت الثقة بين الحكومة والاقباط واصبحت العلاقة بينهما كالعلاقة بين الصياد والطـــائر . وزاد من يقين الاقباط بهذه الفكرة ما كانت تأتيه الوزارة الصدقية وأمثالها من وزارات الاقلية من أعمال أبعدتها عن حسن ظن الناس بهم .

وعاش الأنبا يؤنس التاسع عشر الى سنة ١٩٤٢ حين توفى وانتخب الانبا مكاريوس مطران اسيوط قائمقام بطركيا . ولم يتعظ المطارنة بما فات من حوادث الاربع عشرة سنة الماضية من امتهان مقصود لحقوق الاقباط من

---

(٣) نفس المصدر السابق .

ناحية الحكومة شجعها عليه ما شعرت من جميل على البطريرك . بل تطلعت نفوسهم التي أضلها الطمع مرة أخرى الى المنصب البطريركى ولو كان ذلك على حساب الاقباط وكرامتهم . ولذا عملوا على تحـــدى ارادة الامة مرة أخرى . ورشحوا بعضهم لمنصب البطريرك . ولكى يضمن الانبا مكاريوس تعضيد الناخبين له . وعدهم أنه فى حالة انتخابه سوف يقف فى صف اشراف المجلس الملى على الاوقاف الخيرية القبطية . حتى اذا نجح واخذ فى تنفيذ وعده وقف أساقفة الاديرة فى وجهـــه وابوا ان يسلموا للمجلس الملى بأى اشراف . فوقع البطريرك بين المطرقة والسندان (١) واخذ يظهر الضيق من آن الى آخر بالهرب الى الدير والامتناع عن تصريف الشئون العامة ؛ ولذا لم يكن ما أصاب الاقباط فى عهـد هذا الاخير بأقل مما أصابهم فى عهد سـلفه من استمرار النزاع بين المجلس الملى (وهو الذى اصبح يمثل الاقباط تمــام التمثيل) وبين رجال الدين ممثلين فى المجمع المقدس . علاوة على :

أ ــ نقل الكهنة من كنيسة الى اخرى رغم مخالفة ذلك للتقـــاليد الكنسية .

ب ــ رسم الكهنة مقابل هدايا نقدية .

جـ ــ خلو الابرشيات من الاساقفة زمنا طويلا حتى يوجد المرشح الذى يدفع .

د ــ عدم اكتراث المطـــارنة فى كثير من المواقف وتعديهم على ابرشية مصر الاسكندرية يقيمون فيها الشعائر دون رقابة او تصريح .

هـ ــ تناقص ايراد البطريركية حتى وصل الى درجة العدم

ولقد كان هذا الحال دافعا للبطريرك الى الندم والتفكير فى تعديل لائحة الانتخاب وقصره على الرهبان الذين لم يتعدوا درجة القمص الا ان غيره من الاساقفة الذين كانوا ينتظرون موت البطريرك العجوز بفارغ الصبر لينالوا حظهم من هذا الكنز وقف فى سبيل هذه الامنية واذا كان الله قد شاء أن يرحم

هذه الامة من هذا الخلاف ليتعظوا بما فات منهم ويعودوا الى سابق قناعتهم وزهدهم وتقاليدهم حين مات الانبا مكاريوس بعد عام واحد الا أن هذا الجشع وروح العناد والتحدى للأمة ظهرت بشكل واضح مرة أخرى فى جماعة المطارنة والاساقفة فتقدم للترشيح للمنصب الانبا يوساب مطران جرجا وكان سابق تعليمه فى أثينا واتقانه الفرنسية واليونانية دافعا لكثيرين أن يحسنوا الظن فيه فقبلوا ترشيحه رغم مخالفة ذلك للتقاليد .

وكان عهده أسوأ ما شهدت الامة من عهود . اذ تسلط عليه جماعة من الجهلة غير المسئولين . وتصرفوا فى شئون الاقباط المالية والروحية تصرفات شاذة . وانتشرت السيمونية واصبحت صفقات هذه المناصب تعقد على قارعة الطريق فى صراحة مخزية . بل حررت لاجلها عقود وصكوك . مما حدا بالاقباط وبعض المطارنة أن يطلبوا وقف هذا الهوان .

وكان تخلى بريطانيا عن انتدابها على فلسطين، وتركها هذه البلاد دون أن تقيم بها حكومة تتسلم منا السلطات سببا فى اعلان يهود فلسطين قيام دولة اسرائيل مما أدى الى زيادة شعور السخط من المصريين وكان ان قررت الحكومة المصرية ومعها الحكومات العربية دخول الجيوش العربية الى فلسطين من أجل الاطاحة بحكومة اسرائيل الجديدة ووضع الامر فى يد العرب ولكن عدم استعداد الحكومات العربية للحرب وتفشى الخلاف بينهم ومعها أسباب أخرى كثيرة أدت الى هزيمة الجيوش العربية وكان طبيعيا أن يساهم المسيحيون بكونهم جزءا من الجيش المصرى فى هذه الحرب وأن يسقط منهم ضحايا كما سقط غيرهم .

وزاد السخط بين المصريين حين تأزم الموقف أكثر من ذلك بين الحكومتين المصرية والبريطانية بسبب ميل الأخيرة الى عدم الجلاء عن مصر استجابة لطلب الاولى فى عدم موافقة الثانية أيضا على اعتبار المسألتين المصرية والسودانية مسألة واحدة واصرارها على عدم حل المسألة السودانية الا بعد الرجوع الى الشعب السودانى منفردا عن الحكومة المصرية مما أدى بالحكومة المصرية الى الغاء معاهدة الزعفران وتلقيب ملك مصر بلقب جديد هو « ملك مصر

والسودان » وتعويلها على سن دستور خاص بالسودان يقرر نوع الحكومة التى ستقام هناك وقد أدى هذا الامر الى الهاب شعور الشعب المصرى كله بالسخط على بريطانيا وظهور حركة المقاومة المسلحه واعتدائها على قواعد الجيش البريطانى بمنطقة القنال وكان طبيعيا أن يكون شعور المسيحيين كجزء من الأمة المصرية لا يختلف مطلقا عن شعور بقية افراد الامة واشترك منهم كثيرين فى هذه الحرب التى ادت الى سقوط ضحايا آخرين من المصريين سواء من المسلمين والمسيحيين .

وكان الملك يخاف هذا التوتر الشديد بين الحكومتين وهو الحريص على صفاء العلاقة مع بريطانيا لانه يراها الضمان الوحيد لعرشه اذ كان فى نفس الوقت يعرف تماما ما يكنه له المصريون من كره وسخط بسبب مسلكه الفاسد وفضائحه التى كانت على كل لسان . فكان ان دبر وبعض انصاره المجهولين حتى الآن أمر حريق القاهرة يناير سنة ١٩٥٢ .

وفى رأيى أنه كان المدبر الوحيد لهذا الحريق والدليل على ذلك ما فعله عمه توفيق من حريق الاسكندرية غداة اشتعال الشعور الوطنى فى سنة ١٨٨٢ ومناصرته للحكومة العرابية وقد أدى هذا الحريق كما نعلم الى ضرب الحركة العرابية من الخلف ثم الاحتلال البريطانى للبلاد .

وقد أدى حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ الى نفس النتيجة وهى ضرب حركة المقاومة المسلحة فى منطقة القنال ثم اقالة حكومة الوفد التى شجعت على هذه الحركة ثم اطلاق يد الملك فى اقامة ضروب من الحكومات المتوالية يرضى بالتفاهم مع الانجليز وفقا لما يريدون .

هذا فى الوقت الذى كان بعض الضباط الذين اشتعلت فى نفوسهم روح السخط على الملك من جراء موقفه فى حرب فلسطين ثم من جراء فضائحه التى شاعت على كل لسان كما ذكرنا ثم زيادة نفوذ غير المسئولين الى حد تدخلهم فى جميع الشئون لغير المصلحة المصرية قد تجمعوا فى منظم سرى هدفه الاطاحة بهذا الملك الفاسد . والعمل على تقويم المصالح المصرية التى فسدت واهمها الجيش ثم العمل على انهاء الاحتلال البريطانى وحل المسألة السودانية .

وكانت الحالة بعد يناير سنة ١٩٥٢ تزداد سوءا من جراء انطلاق يد الملك فى اقالة واقامة الوزارات المصرية على نحـــو واضح سوى الرغبـــة فى اظهـــار سلطته المطلقة ومنح المكافآت لـــكل من وقف فى صفه واقصاء كل من عمل على معاكسته واستمر التنظيم السرى ينمو تحت الارض ويبلور اهدافه ووسائله حتى قام بحركته المباركة فى ٢٣ يوليو من نفس السنة التى انتهت بزوال الملكية واقامة الجمهورية على قواعد جديدة أهم ما يعنينا منها المساواة التامة بين جميع افراد الشعب دون اعتبـــار لجنس أو دين أو مذهب .

خط همانون نقلا عن « العــالم العربى الحديث »

للدكتور جلال يحيى ص ٢٠٢ وما بعدها

لا يخفى أنه منذ ابتداء دولتنا كانت الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيعة فى غاية المراعاة الـكاملة ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعية ورفاهيتهم وعمار البــلاد فى غيابة ما يكون من الكمال ولكن منذ ١٥٠ سنة لم يعد انقيــــاد ولا امتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيعة لسبب ما طرأ عليهــــا من الحوادث الكثيرة ، ولهــذا تحــولت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدمار واية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول الى الاضمحلال ومنــذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة اتجهت افكارنا الخيرية الى عمــار البلاد وراحة العباد . فنظرا الى مواقع ممالك دولتنا العلمية واراضيها الخصبة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا أخذ فى عمل الوسائط اللازمة ، يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى فى برهة خمس أو عشر سنين .

فاعتمادا على عون الله تعــالى واستعدادا بروح نبينا قد شوهد من الأمور المهمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالــكنا المحروسة ونتيجة خلاصة هذه القوانين هى عبــارة عن منية الحياة وصيانة الوطن وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقــــة آخذ العساكر وحدة استخدامهم فلا يوجد شىء فى الدنيا أفضل من الحياة والوطن والشرف . فالانسان اذا نظر الى هذه الامور وكانت على خلاف رضاه ييئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياته وشرفه بأعمال يؤدى بها الدولة والبــلاد . وبخلاف هذا اذا كان مطمئنا على حياته وعرضه وشرفه لا يحيــد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهدا فى حسن خدمة الدولة والله . واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام فى كل مايؤول لنجاح الدولة وعمار

البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئنا عليه فيكون مهتما بأعمـــالـه ومجتهدا فى توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والله يحب الوطن . ويبذل نفســه دونها فهذا الامر يجب ان يكون مستعدا لكل فعل حميد . وأما ترتيب مال الويركو (أى مطالب الاميرية) فهو من أهم الامور لكون الدولة يقتضى لهــا نفقات كثيرة لتجهيز العساكر وللدول ان تأخـذ النفقات من الأهالى لصيانة المملكة .

ولقد أمرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحولات بيد شخص واحد الامر الذى كان الاقدمون يعتقدون أنه أصل كل سعادة وتفرض الاموال الاميرية على انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وأن لا يطلب منه شىء خلافه ومن الامور المهمة أيضا وضع قوانين لتحسين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية .

ومن حيث ان صيانة البــلاد أمر واجب وفرض لازم فعلى الاهالى أن يبذلوا أنفارا للعسكرية فقد أمرنا بوضع قوانين فى كيفية أخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم فى سلك العسكرية أربع سنين أو خمس لانه اذا اخذنا انفارا أكثر من طاقة الاماكن أو مكثوا مدة حياتهم العسكرية يكون ذلك ظلمــا وضررا على العباد والبلاد ويصير الانفار يأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة ومن الآن فصاعدا لا يقاص أحد لاسرا ولا جهرا بأى نوع كان من القصاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقا لشريعتنا الالهية ولا يسمح لأحد أن يهين شرف الآخر كائنا من كان .

ولكل واحد الحـرية الكاملة أن يتمتع بأملاكه وأمواله دون معارضة . كما أن اقارب المذنب لا يقــاضون بذنبه ولا يحرمون من ميراثه اذا كانوا أبرياء .

فلتعلم هذه الترتيبات الى جميع رعايانا من أى ملة كانت وليتمتع بهــا الجميع دون استثناء وليكن اطمئنانا كاملا ممنوحا منا الى جميع أهالى المملكة

على حياتهم وشرفهم وأموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة ولقـــد أمرنا بوضع مجلس للأحكام العدلية يكون فيه وزراؤنا وكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيه بالحرية الكاملة لأجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حيـــاتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية واما الشرائع المختصة بترتيب العســاكر فتصير المفاوضة بهـــا فى المجلس العسكرى تحت نظارة السر عسكر وكل ما يرتبوه من الاشياء المستحسنة يعرض لسدتنا السلطانية فنشرفهـــا فى أعلاها خطا بيدنا الملوكية لأجل المصادقة ولما كانت هذه الترتيبات ليس لهـــا غـــاية سوى تقـــوم الديانة والدولة والشعب وخـــير المملكة فعظمتنا الشاهانية تتعهد أن لا تفعل شيئا مخالفـــا لها . وتأكيدا على الاقامة بعهدنا هذا نقسم بالله العظيم أمام كل العـــالم ووكلاء رجال الدولة فى بيت الحرمة الشريفة وتحلفهم ايضا وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير على فور ذنبه مع قطع النظر عن رتبته واعتبار . وبما أن للموظفين ماهيـــات ثابتة فيجرى القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التى تحـــرمها الشريعة الالهية وتكون سببا لسقوط المملكة وبما أن هذه التوانين المتقدم ذكرها قـــد جعلناها درســا عن القـــوانين القديمة فنعلن ارادتنا الملوكية فى الاستانة العلية وفى سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها ايضا الى سفراء الدول المتحابة الموجودين فى دار السعادة العلية لتكون دولتهم شهودا على دولتنا الى ما شاء الله وبعد ذلك ليحفظنا الله بحفظـــه الالهى وكل من خالف هـــذه الترتيبات فيكون موضوعا للعنة الالهية الى الأبد آمين .

مراجع البحث

ابراهيم امين غالى : الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية فى شبه جزيرة سيناء .. مقال فى مجلة السياسة الدولية .

ابراهيم عبده : تطور الصحافة فى مصر .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن .

احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر .

أمين سامى باشا : التعليم فى مصر .

توفيق اسكاروس : نوابغ الأقباط ومشاهيرهم .

الجبرتى : تاريخ الجبرتى .

جولدشتين : الحضارة المصرية (ترجمة أحمد فخرى) .

حبيب المصرى : مذكرات خاصة غير منشورة .

حسين هيكل : بطرس غالى (مقال فى المجلة الجديدة).

دافيدسون : صحوة افريقيا (ترجمة محمد عبد القادر حمزة) .

رفعت رمضان : مصر والسيادة على السودان .

رؤوف حبيب : المعلم يعقوب (مقال فى صور من تاريخ القبط) .

زاهر رياض : ١ — كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا .
٢ — مصر وأفريقيا .
٣ — المعلم يعقوب (مقال فى مجلة المقتطف) .

الزبير : الزبير باشا رجل السودان .

ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية .

السخاوى : البدر الطالع بمحاسن من فى القرن السابع
سليم حسن واحمد السكندرى : تاريخ مصر من الفتح العثمانى .
عبد الرحمن الرافعى : ١ - تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل (مجموعة تاريخ الحركة الوطنية) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .
على أمين : الكتاب الممنوع .
حسين كمال : تاريخ السودان القديم .
على أبرهيم : تاريخ المماليك البحرية .
فتحى رضوان : مصطفى كامل .
الشهيد محمد فريد .
السكندى : القضاة والولاة .
محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
الحملة الفرنسية على مصر وظهور محمد على .
المقريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك .
ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر .
ورن : صفحة من تاريخ القبط ترجمة جمعية مارمينا .
يوسف جرجس : الرحلة البطريركية .
يوسف خليل : انجلترا والجلاء عن مصر .
يونان لبيب : الحياة النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال .
رمزى تادرس : الاقباط فى القرن العشرين
تاريخ تكلا هيمانوت مخطوط بمكتبة الدار البطريركية .

الـكتاب الأخضر المصرى بشأن السودان
تذكار المؤتمر القبطى .
المؤتمر المصرى .
المدرسة الأكليريكية .
السنكسار .
الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
عـــلاوة على جرائد الأهرام . الوطن .
اللواء . المقطم .
ومجلات : آخر ساعة ــ الايمـــان ــ
انوار . السياسة الدولية .

المراجع الأجنبية :

Anis : England and Suez Route in 18th Century

Abbas Mikky : British Policy in Sudan.

Budge. S. W. : History of Ethiopia and Nubia.

Baedeker : Egypt.

Gorbal and Others : The Unity of the Nile Valley

George Sobhy : Education in Egypt.

Kiriakos M. : Copts and Muslims under British Rule.

Levingstone : In the Darkest Continent.

Milner : Egypt and the Egyptian Question.

Ohr Walder : Ten Years in Mahdy's Captivity.

Omar Al-Tounsy : Voyage à Darfour (Traduction).

Cambridge Medieval History : Vol IV .

Pankhurst R. : Ethiopia.